تاريخ الدولة العباسية

دكتور
محمد عادل عبد العزيز

الطبعة الثانية
١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م

مقدمة

الحمد لله رب العالمين. الذى علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم. والصلاة والسلام على الرسول المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد، فإنه منذ أن ولد الإسلام ولد معه خصومه، وعاش يعانى من كيدهم صنوفا من الفتن، وألوانا من الافتراءات. وإذا كان هجوم الأحزاب على المدينة المنورة فى السنة الخامسة من الهجرة، هو باكورة اتحاد أعداء الإسلام ضد المسلمين، وذلك بتحريض من اليهود وتعاون حربى مع قوات التحالف. فقد كانت حركة المرتدين فى منطقة الخليج العربى بتحريض يهودى وتعاون فارسى، هو الضربة الثانية التى إتحد فيها أعداء الإسلام ضد المسلمين. ثم قتل عمر بن الخطاب بمؤامرة يهودية فارسية معتقدين فى ذلك، أنه فى قتل عمر نهاية للإسلام والمسلمين، لكن الخليفة الثالث عثمان بن عفان خيب آمالهم، واتسع النفوذ الإسلامى فى عهده إلى ضعف ما كان عليه نفوذ المسلمين أيام عمر. وهنا تعدل خططهم فعملوا على توجيه حربهم إلى الصف الإسلامى حتى استطاعوا بقتلهم عثمان بن عفان أن يقسموا المسلمين إلى معسكرين. ولم يكن انقسام المسلمين إلى معسكرين أيام الفتنة الكبرى لتناقض المصالح بين المعسكرين، أو لصراع على السلطة، لأنه كان على رأس كل من المعسكرين عدد من العشرة المبشرين بالجنة، والذين مات رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو عنهم راض، وإنما كان بفعل فئة باغية عملت فى ظلام دامس على الوقيعة بين المعسكرين.

وتأتى الدولة الأموية لتحكم قبضتها، وتعيد للمسلمين وحدتهم السياسية. فيعمل اليهود والفرس على إسقاط تلك الدولة بنشر فكرة التشيع، والتى مؤداها نقل الخلافة إلى بيت النبى – صلى الله عليه وسلم – صاحب الرسالة وسيد الأمة، وهى فكرة قريبة مما كان قديما يؤمن به الفرس والذى يفرض أن الملك الذى لا يجوز نقله إلى غير بيت الملك.

ومما تجدر ملاحظته أنه لما لاح فى الأفق نجاح تلك الدعوة. سرعان ما تحولوا عن آل البيت من ذرية على بن أبى طالب، إلى ذرية العباس عم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ليضربوا هذه المرة الهاشميين ببعض، حتى يصبح من يفوز منهم بالخلافة يكون فى قبضتهم وتتضح قوة الجذب الفارسية فى انتقال عاصمة الدولة الإسلامية من المدينة المنورة إلى الكوفة، ثم إلى الأنبار، ثم إلى بغداد، ولولا نكبة البرامكة لانتقلت إلى الهضبة الإيرانية.

وهكذا كان انتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسيين انتصاراً للشعوبية والقومية، كما كان فى تعدد الخلافة ما بين عباسية فى بغداد، وأموية فى قرطبة، وفاطمية فى القاهرة. بداية حقيقية لمأساة تفتيت وحدة المسلمين. فهل من عودة لوحدة الصف الإسلامى !؟

والله ولى التوفيق . .

مصر الجديدة فى ٢٥/٢/٢٠٠٤

دكتور
محمد عادل عبد العزيز

انتقال الحكم من الأمويين إلى العباسيين

الدعوة الشيعية العباسية :

ينقضى عهد الخلفاء الراشدين وليس بين أيدينا من النصوص الصريحة ما يحتم النظام الوراثي في شأن الخلافة. فذلك أبو بكر الصديق يعهد إلى عمر وهو ليس من أقربائه؛ وأبو بكر لا يبرم العهد إلا بعد أن يستشير عظماء المسلمين وأصحاب الرأى منهم فيجد ما يقرب من الإجماع فى قبول إمامته. ويطل أبو بكر على المسلمين وهو في آخر عهده بالدنيا فيقول : " أترضون بمن استخلفت عليكم؟ ما استخلفت عليكم ذا قرابة وإنى قد استخلفت عليكم عمر فاسمعوا له وأطيعوا. فإنى والله ما آلوت من جهد الرأى ". والمسلمون يستمعون قول أبى بكر ويقولون فى رضى واطمئنان : " سمعنا وأطعنا " وهذا عمر لما طعنه أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة. أشار عليه أحد جلسائه أن يستخلف على المسلمين ابنه عبد الله بن عمر، فرد الخليفة يقول : " قاتلك الله، والله ما أردت الله بهذا، لا أرب لنا فى أموركم فما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتى، إن كان خيراً فقد أصبنا منه، وإن كان شراً فقد صرف عنا، بحسب آلَ عمران يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمة محمد، أما لقد جهدت نفسى وحرمت أهلى، وإن نجوت كفافاً لا وزر ولا أجر إنى لسعيد !! ".

ثم كانت الشورى وبايع الناس عثمان بن عفان. ثم كان الشغب عليه وقتله ومصير الأمر إلى علي. فلما قتل علي بايع أهل الكوفة ابنه الحسن وبقي يخطب له على منابر الحجاز والعراق وخراسان ستة أشهر، ثم سار معاوية إليه فرأى الحسن أن يصالحه لعدم اطمئنانه إلى مظاهرة أهل الكوفة له، وليس أدل على ذلك من تصريح خطير أدلى به الأحنف بن قيس أحد كبار العلويين : قال وقد استنفروه لقتال معاوية :

" لقد بلونا الحسن وآل الحسن ؛ فلم تكن عندهم إيالة الملك ولا صيانة المال ولا مكيدة الحرب "، وبتنازل الحسن عن الخلافة بويع لمعاوية بيعة عامة، ودخل الحسن في طاعته فحقن بذلك الدماء، وحمد فعلته العقلاء، وأكبر بعض شيعة الحسن أمر هذا الصلح، ولم يسعها إلا أن تحمله على محمل الخير لاعتقادهم بعصمة آل البيت في كل ما يصدر من أقوالهم وأفعالهم، لا يسألون عما يبدو منهم.

ولما مات معاوية تولى الخلافة ابنه يزيد، كتب أهل الكوفة إلى الحسين بن علي يستقدمونه إليهم ويظهرون استعدادهم لنصرته، قيل إنه تتابعت عليه رسل أهل الكوفة تحمل من الكتب ما ملأ خرجين وأخيراً خرج الحسين من مكة إلى الكوفة، وكانت في كربلاء وقعة قاتل فيها حتى فني وأصحابه .

فمن هم العباسيون ؟

أبناء عبد المطلب كثير، لكن أكثرهم ذرية هما أبو طالب شقيق والد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والعباس الذى كان يكبر رسول الله بثلاث سنوات فقط. وقد توفى العباس سنة ٣٢هـ، وعمره ثمان وثمانون سنة ودفن في البقيع فى عهد عثمان بن عفان.

وأولاد العباس كثير أيضاً، لكن أكبرهم هو الفضل، وثانيهم هو عبد الله والذى انحدر من نسل ابنه على كل خلفاء الدولة العباسية. وقد ولد على هذا فى نفس الليلة التى قتل فيها علي بن أبى طالب سنة ٤٠هـ ولهذا سماه أبوه بهذا الاسم. وقد أقام علي بن عبد الله بن العباس فى قرية من قرى شرق الأردن يطلق عليها الحميمة بعد أن ترك المدينة المنورة، وكان يقيم معه ابنه محمد بن علي، ولما مات علي بالحميمة أصبح محمد بن علي هو الممثل لبيت العباس.

وقد بدأ توافد الشيعة على الإمام محمد بن علي بالحميمة فى أول خلافة يزيد بن عبد الملك (١٠١–١٠٥هـ).

ولقد كان طبيعياً أن تكون الدعوة إلى انتقال الحكم من الأمويين إلى العباسيين سرية فى بادئ الأمر، كما كان طبيعياً أيضاً أن تكون خراسان هى ميدان الدعوة، فتكونت فيها جمعية سرية قوامها اثنا عشر

رجلاً كان يطلق عليهم اسم النقباء، وعدد أعضائها سبعون داعياً تظاهروا بأنهم تجار. وظلت الدعوة سرية، حتى وقع فى يد مروان بن محمد، خطاب مرسل من إبراهيم الإمام ابن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس إلى أبى مسلم الخرسانى يأمره فيه بتشديد الرقابة على من يتكلم العربية فى خراسان. الأمر الذى أدى إلى القبض على إبراهيم بن محمد حيث وضع فى سجن حران بشمال الشام، ثم قتل مسموماً فى النهاية. وأمام هذه الأحداث اضطر أخوه أبو العباس (السفاح) أن ينتقل من الحميمة إلى الكوفة ومعه الأسرة العباسية ومن بينهم أخوة أبو جعفر (المنصور).

وابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، ومن كبار بنى هاشم أيضاً عبد الله بن علي العباسى عم السفاح والمنصور. وبعد سنتين هزم ابن هبيرة القائد الأموى بظاهر الكوفة وأرغم على السير إلى واسط التى تقع بين مدينتى الكوفة والبصرة جنوبى العراق، ونزل أبو سلمة فى أوائل سنة ١٣٢هـ بالكوفة، وكان أبو العباس وأخوه أبو جعفر مختفيين. فى هذه المدينة قبل ذلك بزمن يسير، وقد هربا إليها بعد مقتل إبراهيم الإمام واهتم أبو سلمة بأمرهما، وأبقاهما عدة أسابيع، دون أن يكشف أمرهما ودون أن يبايع

ألا قـــل للوصى فدتـــك نفســـى ... أطلت بذلك الجبل المقاما
ومـــا ذاق ابن خولة طعـــم موت ... ولا وارت له أرض عظاما
لقد أمسى بموروق شعب رضوى ... تراجعـــه الملائكة الكلاما
وإن لـــه بـــه لمقيـــل صـــــدق ... وأنديـــة تحدثـــه كرامـــا
تمـــام نـــوره المهــــــدى حتـــى ... تروا راياته تترى نظاما [1]

وكان فريق آخر من الشيعة لا يؤمن برجعة الإمام محمـــد، ولذا نصبوا ابنه أبا هاشم إماماً لهم، وبرغم أن بعض الشيعة وهم الأمامية كان يرى أن تكون الإمامة لعلي بن الحسين المعـــروف بزين العابدين، فإن شيعة أبي هاشم كانت أكثر عـــدداً وأعظـــم خطراً، ولذا اعتبر المؤرخون أبا هاشم الممثل الأكبر لآل البيت.

وتكاد تجمع المصادر التاريخية على أن مطالبـــة العباســـيين بالخلافة وادعائهم لها قد انتقل إليهم من أبي هاشم عبد الله بـــن محمد بن الحنفية (أحد أبناء علي رضى الله عنه) فرواية صاحب " أخبار الدولة العباسية " تقول : " وكان تشيع العباسية أصله من قبل محمد ابن الحنفية وإلى ذلك دعا أبو مسلم " وتذكر أيضاً أن محمداً بن على أخذ العلم على يدى أبي هاشم وكان محمد يبجله ويجله فكان إذا قام أبو هاشم يركب أخذ له الركـــاب " فلمـــا مرض أبي هاشم مرضه الذى مات فيه وكان بأرض السراة مـــن

---

(١) المصدر السابق ص ٣٩.

بلاد الشام وذلك عند قفوله من لقاء سليمان بدمشق عـــدل إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وكان بالحميمة، وعهد لـــه بحقوقه في الإمامة في سنة ٩٨ هـــ / ٧١٧م [١]. وألقـــى إليـــه بأسراره وقال له : أوصيك بتقوى الله فإنها خير ما تواصى بهـــا العباد، ومن بعد ذلك فإن هذا الأمر الذى نطلبه ونســـعى فيـــه وطلبه آخرون وسعوا فيه فيك وفي ولدك [٢].

هذا ما تقوله الرواية العباسية، أما الشيعة العلويين فـــإنهم قالوا : أن أبا هاشم أوصى إلى عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب وهو الذى نادى به الشيعة في الكوفة إمامـــاً على عهد مروان بن محمد، وبعد انهزامه أمام المروانية اتجـــه إلى فارس وأصفهان واصطخر، وانتهى الأمر بمقتله على يدى الداعية العباسى أبي مسلم الخرسانى.

هذا هو موجز لنشأة الدعوة الشيعية العباسية، وقبـــل أن ننتقل إلى الدور العملى للدعوة العباسية، والذى أدى إلى سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية، لابد لنا مـــن وقفـــة مـــع النصوص التاريخية نبحث فيها حقيقة موقف البيت الهاشمى مـــن الخلافة : هل كانوا يرون أنهم الأحق بها من أبي بكر الصديق !؟

---

(١) مؤلف مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص ١٨٥.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ١٨٦.

هل اختلف البيت الهاشمى على مبايعة أبى بكر الصديق !؟

اختلفت روايات المؤرخين فى إجماع البيت الهاشمى على مبايعة أبى بكر فبنما يورد الطبرى أنه لم يتخلف أحد من الأنصار عن مبايعة أبى بكر فى سقيفة بنى ساعدة، وتتابع المهاجرون على بيعته من غير أن يدعوهم [1] يذكر اليعقوبى أنه: تخلف عن بيعة أبى بكر قوم من المهاجرين والأنصار ومالوا مع على بن أبى طالب، منهم العباس بن عبد المطلب والفضل بن العباس والزبير بن العوام، وخالد بن سعيد والمقداد بن عمرو، وسلمان الفارسى، وأبو ذر الغفارى، وعمار بن ياسر، والبراء بن عازب، وأبى بن كعب [2].

ونحن حينما نستعرض أقوال المؤرخين فى تلك القضية نجدها تنقسم إلى مجموعتين :

المجموعة الأولى : تفيد بأن عليا كان يرى أن أبا بكر أهل للخلافة، ولذلك فإنه لم يتخلف عن البيعة العامة رغم انشغاله والهاشميين بتجهيز رسول الله – صلى الله عليه وسلم.

---

(١)اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى. الجزء الثانى. نشر المكتبة المرتضوية بالنجف ١٣٥٨هـ ص ٣.

(٢)الطبرى : تاريخ الرسل جـ ٣ ص ٢٠٩.

أما المجموعة الثانية : فتفيد أن عليا امتنع عن مبايعـة أبي بكر فترة من الزمن قدرت بستة أشهر وقيل أنها ٧٥ ليلة من وفاة الرسول – صلى الله عليه وسلم – وأقلها ٤٠ يوما فقط.

وبالنسبة للمجموعة الأولى فيذكر الطبرى : أنه لما اجتمع الناس على بيعة أبي بكر، أقبل أبو سفيان وهو يقـول : والله إني لأرى عجاجة لا يطفئها إلا دم! يا آل عبد مناف فيم أبو بكر من أموركم ! أين المستضعفان ! أين الأذلان علي والعباس ! وقال : أبا حسن ! ابسط يدك حتى أبايعك فأبى علي عليه وزجره، وقال : إنك والله ما أردت بهذا إلا الفتنة، وإنك والله طالما بغيـت الإسلام شراً ! لا حاجة لنا في نصيحتك [1]. كما يذكر الطبرى أن علياً قال أيضاً لأبي سفيان : إنا وجدنا أبا بكر لها أهلاً [2].

وكما تفيدنا النصوص السابقة أن علياً كان يرى أن أبـا بكر أهل للخلافة فإن النصوص التالية تفيد أن علياً لم يتخلف عن مبايعة أبي بكر في البيعة العامة.

عن حبيب بن أبي ثابت، قال : كان علي في بيته إذ أتـى فقيل له : قد جلس أبو بكر للبيعة، فخرج في قميص ما عليه إزار

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل جـ ٣ ص ٢٠٩.

(٢) المصدر السابق ص ٢٠٧.

ولا رداء، عجلاً، كراهية أن يبطئ عنها، حتى بايعه، ثم جلس إليه وبعث إلى ثوبه فأتاه فتجلله، ولزم مجلسه [١].

وأخيراً يذكر الطبرى نصاً يفيد أيضاً أن علياً لم يتخلف عن البيعة العامة، ولكن يفهم من النص أنه جاء مكرها حيث يقول الطبرى : وتخلف عليّ والزبير، واخترط الزبير سيفه، وقال لا أغمده حتى يبايع علي، فبلغ ذلك أبا بكر وعمر، فقال عمر، خذوا سيف الزبير فاضربوا به الحجر، قال : فانطلق إليهم عمر، فجاء بهما تعبا، وقال : لتبايعان وأنتما طائعان، أو لتبايعان وأنتما كارهان ! فبايعا [٢].

أما نصوص المجموعة الثانية : فتنقسم بدورها إلى مجموعتين. المجموعة الأولى منها تصور لنا بداية اختلاف وقع بين فاطمة الزهراء وأبى بكر الصديق - رضى الله تعالى عنهما - على ميراثها من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيذكر الطبرى : أن فاطمة والعباس أتيا أبا بكر يطالبان ميراثهما من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهما حينئذ يطالبان أرضه من فدك، وسهمه من خيبر، فقال لهما أبو بكر : أما إنى سمعت رسول الله يقول : لا نورث ما تركناه فهو صدقة، وإنما يأكل آل محمد فى

---

(١) المصدر السابق جـ ٣ ص ٢٠٣.

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل جـ ٣ ص ٢٠٣.

هذا المال وإنى والله لا أدع أمراً رأيت رسول الله يصنعه، فهجرته فاطمة فلم تكلمه فى ذلك حتى ماتت [١].

أما الطبرى فيروى رواية قالها رجل للزهرى نصها : أفلم يبايعه علي ستة أشهر ! قال : لا، ولا أحد من بنى هاشم، حتى بايعه علي فلما رأى علي انصراف وجوه الناس عنه ضرع إلى مصالحة أبى بكر، فأرسل إلى أبى بكر :

أما نصوص المجموعة الثانية : فيذكر ابن سعد أن علياً كان يرى أنه أحق بنى هاشم بميراثهم من النبى باعتباره زوج السيدة فاطمة الزهراء، وأبا سبطى رسول الله -- صلى الله عليه وسلم -- وهو الذى اعتبره رسول الله بالنسبة إليه بمنزلة هارون من موسى[٢].

هذا الكلام الذى ذكره ابن سعد فى طبقاته، وإن كان قد يفيد تلميحاً أن علياً كان يرى أنه أحق بالخلافة من أبى بكر، إلا أن النص صراحة لا يفيد إلا أن المشكلة لا تتعدى أن تكون مشكلة ميراث.

---

(١) المصدر السابق جـ ٣ ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ ابن حبان : السيرة النبوية ص ٤٢٩.

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى. طبعة لندن، تحقيق الدكتور سترستين جـ ٣ ص ٢٤.

لكن ابن قتيبة ينفرد بروايتين تتعارضان تماماً مع كل النصوص التي سبقت، فيذكر في الرواية الأولى، أن العباس عم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أقبل علي على وطلب منه أن يبسط يده ليبايعه لكن علياً يرفض ويقول : ومن يطلب هذا الأمر غيرنا [1].

أما الرواية الثانية فيذكر فيها أن علي بن أبي طالب امتنع عن مبايعة أبي بكر هو وجماعة من الهاشمية والزبير بن العوام، وتخلفوا في بيت فاطمة الزهراء، فخرج إليهم عمر بن الخطاب في جماعة من الصحابة وأرغموا بني هاشم والزبير على مبايعة أبي بكر [2] ثم استقدم على إلى أبي بكر وطلب منه أن يبايعه فامتنع وقال، "أنا أحق بهذا الأمر منكم، لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة أن ائتنا ولا يأتنا معك أحد، وكره أن يأتيه عمر لما علم من شدة عمر، فقال عمر : لا تأتهم وحدك، قال أبو بكر : والله لأتينهم وحدى، وما عسى أن يصنعوا بي ! قال : فانطلق أبو بكر فدخل على علي، وقد جمع بني هاشم عنده فقام علي فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال : أما بعد، فإنه لم يمنعنا من أن نبايعك يا

---

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة جـ ١ القاهرة ١٩٣٧ ص ٦.
(٢) المصدر السابق. ص ١٤.

أبا بكر إنكار لفضيلتك ولا نفاسة عليك بخير ساقه الله إليـــك، ولكنا نرى أن لنا فى هذا الأمر حقاً، فاستبددتم به علينا.

ثم ذكر قرابته من رسول الله - صلى الله عليه وســـلم - فلما صمت علي تشهد أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : أما بعد فوالله لقرابة رسول الله أحب إلى أن أصل مـــن قرابتى، وإنى والله ما ألوت فى هذه الأمور التى كانت بينى وبينكم غير الخير، ولكنى سمعت رسول الله يقول : لا نورث ما تركنـــاه فهو صدقة، إنما يأكل آل محمد فى هذا المال. وإنى أعوذ بالله ألا أذكر أمراً صنعه محمد رسول الله إلا صنعته فيه إن شـــاء الله، ثم قال علي : موعدك العشية للبيعة، فلما صلى أبو بكر الظهر أقبل على الناس، ثم عذر علياً ببعض ما أعتذر ثم قام علي فعظم مـــن حق أبى بكر، وذكر فضيلته وسابقته، ثم مضـــى إلى أبى بكـــر فبايعه[١].

الحق أن النصوص السابقة وإن كانت تفيد تخلف علي بن أبى طالب عن مبايعة أبى بكر الصديق بالخلافة فترة من الزمن، إلا أنها لا تفيد إطلاقاً أن تخلف علي عن المبايعة لأنه كان يرى أنـــه أحق من أبى بكر بالخلافة، وإنما لتمسك أبى بكر بأن كـــل مـــا تركه الرسول - صلى الله عليه وسلم - فهو صدقة هذا الحق.

(١) الطبري : تاريخ الرسل جـ ٣ ص ٢٠٧ ، ٢٠٩.

أما الرواية الثانية فيذكر فيها أن علي بن أبي طالب امتنع عن مبايعة أبي بكر هو وجماعة من الهاشمية والزبير بن العوام، وتخلفوا فى بيت فاطمة الزهراء، فخرج إليهم عمر بن الخطاب فى جماعة من الصحابة وأرغموا بنى هاشم والزبير على مبياعة أبو بكر[١] ثم استقدم علي إلى أبي بكر وطلب منه أن يبايعه فامتنع وقال، " أنا أحق بهذا الأمر منكم، لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة من الأنصار، واحتججتم عليهم بالقرابة من النبى — صلى الله عليه وسلم- وتأخذونه من أهل البيت غصباً، ألستم زعمتم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم لما كان محمد منكم فأعطوكم القادة، وسلموا إليكم الإمارة فإذا احتج عليكم بمثل ما احتججتم على الأنصار، نحن أولى برسول الله حياً وميتاً فأنصفونا إن كنتم تؤمنون، وإلا فبؤوا بالظلم وأنتم تعلمون. وتدخل بعض الصحابة لإكراه علي على مبايعة أبي بكر، فبكت فاطمة، وزجرت أبا بكر وأعلنت سخطها عليه وعلى عمر [٢].

وهكذا أصبح أبن قتيبة هو الوحيد الذى انفرد برواية صريحة وضعت علي بن أبي طالب موضع الحاسد لأبى بكر على

---

(١)ابن سعد : الطبقات الكبرى. طبعة ليدن، تحقيق الدكتور سترستين جـ ٣ ص٢٤.

(٢)ابن قتيبة : الإمامة والسياسة جـ ١ القاهرة ١٩٣٧ ص ١٦ ، ١٧.

الخلافة، وقد تبع ابن قتيبة للأسف عدد كبير ممن نقل عنه خاصة فى عصرنا الحديث دون دراسة متأنية للنصوص.

والواقع أن ما رواه ابن قتيبة مردود عليه :

أولاً : لماذا لم يذكر أحد من المؤرخين السابقين عن ابن قتيبة مثل تلك الروايات، وخاصة ونحن نعلم أن ابن قتيبة لم يكن شاهد عيان، فقد كان بينه وبين زمن تلك الأحداث أكثر من قرنين من الزمان . !؟ بل على العكس يذكر مؤرخ من عصر ابن قتيبة وهو الطبرى، أن علياً بن أبى طالب رفض الخلافة فى أول الأمر حينما عرضوها عليه، وهذا هو نص ما ذكره الطبرى : بقيت المدينة بعد قتل عثمان خمسة أيام وأميرها الغافقى بن حرب يلتمسون من يجيبهم إلى القيام بهذا الأمر فلا يجدونه. يأتى المصريون علياً فيختبئ منهم ويلوذ بحيطان المدينة – أى بساتينها – فإذا لقوه باعدهم وتبرأ منهم ومن مقالتهم مرة بعد مرة، ويقول الطبرى بعد ذلك : إن الناس أتوا علياً وهو فى سوق المدينة وقالوا له : إبسط يدك نبايعك قال : لا تعجلوا فإن عمر كان رجلاً مباركاً وقد أوصى بها شورى فأمهلوا يجتمع الناس ويتشاورون فارتد الناس عن علي .. ثم يقول الطبرى أيضاً : فلما اجتمع أهل المدينة قال لهم أهل مصر. أنتم أهل الشورى وأنتم تعقدون الإمامة. فانظروا رجلاً منكم تنصبونه ونحن لكم تبع

فقال الجمهور علي بن أبى طالب. نحن به راضون، فقال علي : دعونى والتمسوا غيرى، فقالوا : ننشدك الله : ألا ترى الفتنة ؟! ألا تخاف الله ؟! فقال : إن أجبتكم ركبت به مـا أعلـم، وأن تركتمونى فإنما أنا كأحدكم، إلا أنى أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم، ثم افترقوا على ذلك ".

ثانياً : لماذا لم يصعد علي بن أبى طالب المشكلة مرة أخرى عند توليه عمر بن الخطاب، وأيضاً عند توليه عثمان ما دام أنـه كان يرى أنه الأحق بالخلافة من أبى بكر كما أدعى ابن قتيبة !؟.

ثالثاً : هل أخطأ الصحابة – رضى الله تعالى عنهم جميعاً – حينما بايعوا أبا بكر بالخلافة بالإجماع !؟ وإذا كـان الإجمـاع مرفوض عند الشيعة، وأنه ليس من مصادر التشريع الإسـلامى عندهم، فهل كان ذلك هو الهدف من دس ما ينصر التشـيع فى كتب التاريخ !؟

عموماً قد كشف البحث فى تلك القضية أن فكرة تـولى الخلافة لم تكن واردة نهائياً عند البيت الهاشمى حتى نهاية عصـر الخلفاء الراشدين. وهذا يكشف بدوره أن فكرة التشيع فكـرة دخيلة على سلالة البيت الهاشمى، بل وعلى المسلمين بصفة عامة.

الدور العمالى للدعوة العباسية :

كان تعصب الأمويين للعنصر العربى أهم نقاط الضعف فى سياسة الدولة الأموية، حيث كان العنصر العربى بين الفرس هـــو صاحب الكلمة العليا والنفوذ السائد، ولا يتولى من ليس منـــهم شيئاً من الولايات العامة، وكان عند الحكومة الأموية فى هذا هو عدم ثقتهم فى الفرس وخاصة وأن بعضهم من اعتنق الإسلام عن عقيدة غير صحيحة، ومنهم من اعتنق الإسلام وهو يضمر العداء له. لكن الأمويين تغالوا فى تعصبهم للعنصر العربى حتى حرمـــوا كل الموالى [١]كثير من الحقوق - ولقد كان من بين هذه الحقوق التى حرم منها الموالى فى عهد الأمويين: أنهم لم يحصـــلوا علـــى عطائهم الذى يستحقونه نظير التحاقهم بالجيش كـــالعرب، و لم يكن يسمح لهم بركوب الخيل أثناء القتال : وقصـــر التحـــاقهم بالجيش على فرقة المشاهد، وحتم عليهم أن يكون لهم مســـجد خاص يؤدون فيه الصلاة وجبانة خاصة يدفنون فيها موتـــاهم، كما كان العربى لا يرضى أن يزوج ابنته من مـــولى [٢] لتنـــاقض العادات بين العرب وسكان البلاد المفتوحة. ولـــيس أدل علـــى

---

(١)الموالى : هم رعايا الدول التى فتحها المسلمون الذين اعتنقوا الإسلام.

(٢)الدكتور/ علي إبراهيم حسن : التاريخ الإسلامى العام. مكتبة النهضة المصـــرية، هامش ص٣٢٨.

إهمال شأن الموالى فى العصر الأموى من أن وفداً جاء إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز مكوناً من اثنين من العرب وواحد من الموالى من خراسان يكنى أبا الصيد. فتكلم العربيان والمولى ساكت، فقال عمر : " ما أنت من الوفد ؟ "قال :" بلى" قال : " فما يمنعك من الكلام " فقال : " يا أمير المؤمنين عشرون ألفاً من الموالى يغزون بلا عطاء ولا رزق، ومثلهم قد أسلموا من الذمة يؤخذون بالخراج، فأميرنا عصبى جاف، يقوم على منبرنا فيقول : "والله لرجل من قومى أحب إلىّ من مائة من غيرهم". هكذا كان ينظر العرب إلى الموالى أهل خراسان [١].

ومما قوض أركان الدولة وعجل بزوالها، ما كان من تولية العهد لأكثر من واحد مما أدى إلى جلب العداوة والخصام وإحداث القطيعة والانقسام بين أفراد البيت المالك الأموى، وانتهى الأمر إلى تدهور الدولة وسقوطها، وظهر ذلك بوضوح فى عهد خلافة مروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك.

وقد بدأت ولايات فارس، فى الخروج على سلطان الخلافة، فى بلاد الشام منذ عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز، وذلك عندما

---

(١) الدكتور/ عبد الفتاح شحاته : دراسات فى تاريخ العباسيين. الجزء الأول، ص ١٢.

ظهرت مشكلة الدخول فى الإسلام ودفع الجزية فكما يفهم، من الروايات كان من سياسة عمر بن عبد العزيز رفع الجزية عمن أسلم، ولكن نقص الموارد المالية دفع الدولة إلى اتخاذ إجراءات شديدة كانت ترمى إلى إثبات الدخول فى الإسلام ثبوتاً قاطعاً، كما أنها لم تعف الكثيرين من الداخلين فى الإسلام من دفع الجزية وبصفة خاصة على عهد والى خراسان هشام بن عبد الملك أشرس بن عبد الله السلمى (١٠٩-١١١هـ / ٧٢٧ – ٧٢٨م) [١].

فى ظل هذه الظروف كانت الفرصة موائية لقيام حركة مناهضة للأمويين رغم أن رواية الطبرى تذكر أن الدعوة الشيعية العباسية بدأت فى خراسان منذ أيام خلافة عمر بن عبد العزيز فى سنة مائة للهجرة [٢].

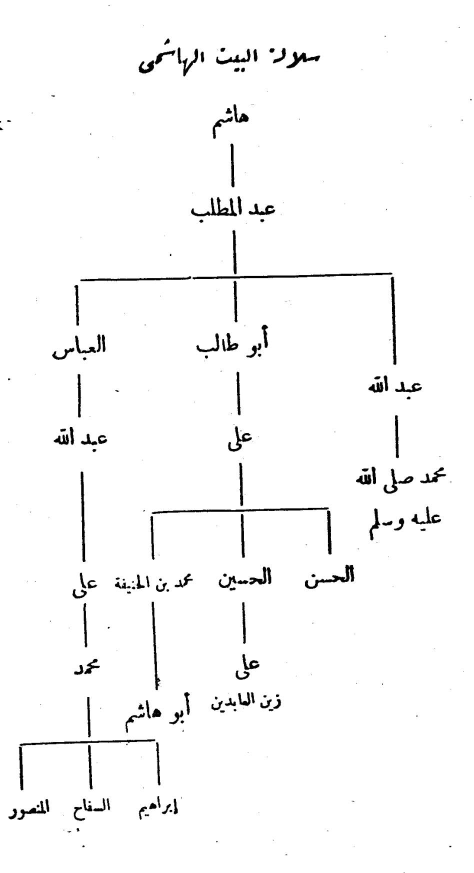
ولكن هناك رواية أخرى للطبرى نعرف منها أن أول من لبس السواد فى خراسان – ودعا إلى كتاب الله وسنة نبيه والبيعة للرضا فى سنة ١١٦هـ/٧٣٤ هو الحارث بن سريج.

---

(١) انظر عن ولاية أشرس، ابن الأثير، الكامل، ح ٤، ص ٢٠٠، ص ٢٠٢ – ٢٠٣، ص ٢٠٦، ص ٢١٨-٢١٩.

(٢) انظر، الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، طبعة دار المعارف مصر (مجموعة ذخائر العرب) ح٧ أحداث سنة ١٠٠هـ، ابن الأثير، الكامل، ح٤، ص ١٥٩ (ذكر ابتداء الدعوة العباسية).

سلسلة البيت الهاشمى

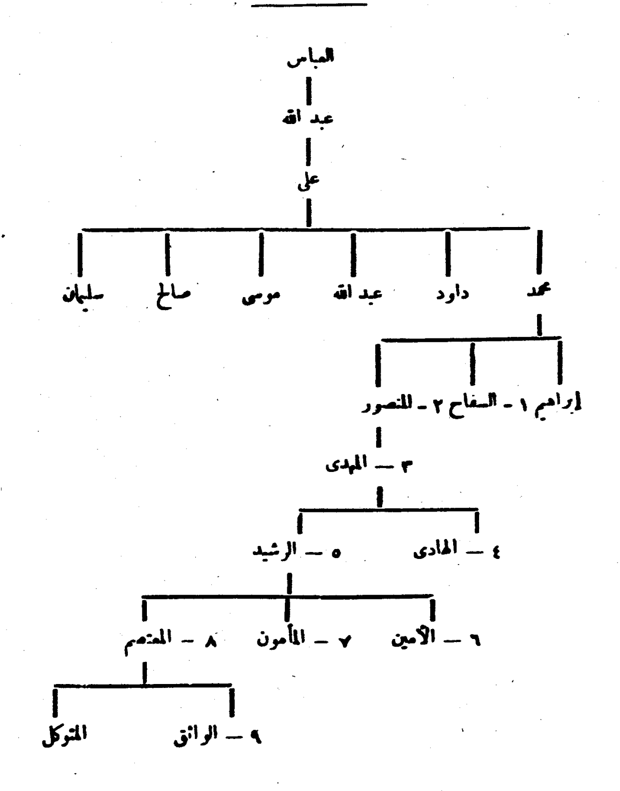


عموماً بدأت طلائع الدولة العباسية تظهر، منذ أن بدأ أبو مسلم الخراسانى سنة ١٢٩هـ – أى قبل سقوط الدولة الأموية بثلاث سنوات – ينشر الدعوة للعباسيين فى خراسان. وتداعت الدولة، حين عقد فى الحجاز فى أواخر العصر الأموى مؤتمر ضم أقطاب آل هاشم من العلويين والعباسيين، وتناقشوا فى الوسائل التى تؤدى إلى القضاء على الخلافة الأموية بعد أن اشتد البلاء بالمسلمين على خلفائهم ونظروا فيمن يرشح للخلافة إذا نجحت مساعيهم. فوقع اختيارهم على أحد الحاضرين وهو محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب المعروف بالنفس الزكية. ولكن الخلافة لم تسند فيما بعد إلى هذا العلوى، بل أسندت إلى رجل من العباسيين هو أبو العباس. ولم يعدل العلويون بعد وصول العباسيين إلى الخلافة عن المطالبة بدعواهم وظلوا يناضلون ويكافحون ابتغاء الوصول إليها فى غير طائل، واضطهدهم العباسيون كما اضطهدهم الأمويون من قبل.

وكان ذلك التحول من الأمويين إلى العباسيين والقضاء على محاولات العلويين فى إقامة خلافة علوية.

العصر العباسي الأول

١٣٢ – ٢٣٢ هـ = ٧٥٠ – ٨٤٧ م



أبو العباس عبد الله السفاح

(١٣٢ - ١٣٦هـ = ٧٥٠ - ٧٥٤م)

هو حفيد حفيد العباس - رضي الله تعالى عنه - عم رسول الله صلى الله عليه وسلم - والذي كان يكبر الرسول بثلاث سنوات فقط.

وقد تولى إدارة الدعوة بعد القبض على أخيه الأكبر (إبراهيم) بسبب خطاب من إبراهيم وقع في يد الأمويين - وقد تولى السفاح إمامة العباسيين رغم أنه أصغر من أخيه (أبي جعفر المنصور) بسبب أن المنصور كانت أمه أم ولد (يعني أمة) وكان عمره ٢٨ سنة.

ثم هرب سراً وأفراد الأسرة العباسية من الحميمة بالأردن بعد القبض على أخيه الأكبر إبراهيم إلى الكوفة، وظل بها أكثر من أربعين يوماً دون أن يعلم أحد بوجود الأسرة العباسية في الكوفة.

---

(١) الحميمة تصغير الحمة : بلد من أرض الشراة من أعمال عمان فى أطراف الشام .

وتفيد الروايات أن " وزير آل محمد هو أبو سلمة الخلال كان حريصا على إشعال الفتن فتظاهر بأنه لم يبايع شخصيا إلا إبراهيم الإمـــام وهذا يفسر كيف أنه أخفى وصول العباسيين إلى الكوفة لمدة تزيد علـــى أربعين يوماً. وحاول فى هذه الفترة أن يتصل بالعلويين فأرسل رسالتين من نسخة واحدة إلى الإمام أبى عبد الله جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب. وعبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب يدعو كـــل أحد منهما إلى القدوم إليه ليصرف الدعوة إليه ويأخذ بيعة أهل خراسان له ولقد كان جواب جعفر بن محمد إحراق الرسالة وأنكر معرفته بأبى سلمة ، أما عبد الله فقد شاور جعفر الصادق فحذره الصادق من نتيجة الانقياد وراء الخلال قائلاً له :" ومتى كان أهل خراسان شيعة لك أأنت بعثـــت أبا مسلم إلى خراسان أأن أمرته بلبس السواد ؟[1].

ولما فشلت محاولات الخلال فى إشعال الفتنة اضطر أبو سلمة إلى الذهاب ومبايعة أبى العباس [2].

وفى يوم الجمعة١٢ ربيع الأول ، خرج أبو العباس إلى دار الإمارة ومنها ذهب إلى المسجد الجامع بالكوفة حيث أخذ البيعة خطب الجمعـــة قائما، وكان بنو أمية يخطبون قعودا فحياة الناس وقالوا: أحييت السنة يابن عم رسول الله . وقد نوه أبو العباس فى خطبته بفضل آل محمد وأحقيتهم بالخلافة، وندد بالأمويين لاغتصابهم الخلافة ، ولما اقترفوه من جوروا ثـــام ضد أهل البيت ، ،انحى باللائمة على جند الشام ، وذلك أهل الكوفـــة بالخير . وختم خطبته بقوله: " أنا السفاح المبيح والثائر المبير ".

---

(١) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٤، ص ٩٧-٩٨.

(٢) انظر الطبري تاريخ الرسل والبدو . ج٧. ص ٣٢٣-٣٢٤ ابن الاثير ج ٤ . ص ٢٢٢-٣٢٤.

وفى هذه الجملة رسم السياسة التى سينتهجها مع معارضيه ومن يقف فى سبيله . وإليك فقرات من هذه الخطبة ، " يا أهل الكوفة أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا ، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ، ولم يثنك عن ذلك تحامل أهل الجور عليكم حتى أدركتم زماتنا ، وأتاكم الله بدولتنا ، فأنتم أسعد النسا بنا ، وأكرمهم علينا ، وقد زدتكم فى أعطيانكم مائة درهم فاستعدوا ، فأنا السفاح المبيح والثائر المبيد (١). وعقب إلقاء الخطبة جلس أبو العباس على المنبر لوعكة كانت به ، وصعد عمه داود بن على فقال: أيها الناس ! الآن أقشعت حنا دس الدنيا ، وانكشف غطاؤها ، وأشرقت أرضها وسماؤها ، وطلعت الشمس من مطلعها وبزع القمر من مبزغه ، وأخذ القوس بارئها ، وعاد السهم إلى منزعه ، ورجع الحق إلى نصابه فى أهل بيت نبيكم ، أهل الرأفة والرحمة بكم والعطف عليكم . إنا والله ما خرجنا فى طلب هذا الأمر لنكثر لجينا ولا عقيانا ، ولا نحفر نهراً ، ولا نبنى قصرا، وإنما أخرجنا الآنفة من ابتزازهم حقنا ، والغضب لبنى عمنا ، وما كرهنا من أموركم وبهظنا من شؤونكم ، ولقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فراشنا ، ويشتد علينا سوء سيرة بنى أمية فيكم .. واستذلالهم لكم ، واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم ، ولكم ذمة الله تبارك وتعالى وذمة رسوله صلى الله عليه وآله ،وذمة العباس رحمه الله أن نحكم فيكم بما أنزل الله ، ونعمل فيكم بكتاب الله ، ونسير فى العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله ، تبا تبا لبنى حرب بن أمية وبنى مروان آثروا فى مدقم-وعصرهم العاجلة على الآجلة .. فركبوا الأثام ، وظلموا الأنام ، وانتهكوا المحارم .. جهلا باستدراج الله وأمنا لمكر الله ، فأتاهم بأس الله بياتا وهم نائمون ، فأصبحوا أحاديث ، ومزقوا كل ممزق ، فبعدا للقوم

---

(١) الطبري : ٤٢٦/٧ طبع دار المعارف.

الظالمين ، وأدا لنا الله من مروان ، وقد غره بالله الغرور .. فظن عـــدو الله أن لن نقدر عليه ، فنادي حزبه ، وجميع مكايده ورمي بكتائبه ، فوجـــد أمامه ووراءه وعن يمينه وشماله من مكر الله وبأسه ونقمته ما أمات باطله ومحق ضلاله ، وجعل دائرة السوء به وأحيا شرفنا وعزنا ورد إلينا حقنـــا وإرثنا ، إلى أن قال : وأدعو الله لأمير المؤمنين بالعافية ، فقد أبـــدلكم الله بمروان عدو الرحمن وخليفة الشيطان المتبع للســـفلة الـــذين أفســـدوا فى الأرض بعد صلاحها بإبدال الدين وانتهاك حريم المسلمين الشاب المتكهل المقتدي بسلفه الأبرار الأخيار الذين أصلحوا الأرض بعد فسادها بمعـــالم الهدي ومناهج التقوي.. يا أهل الكوفة إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان ، فأحيا بهم حقنا ، ،أفلج بهم حجتنا وأظهر بهم دولتنا ، وأراكم الله ما كنتم تنتظرون وإليه تتشوفون ، فاظهر فيكم الخليفة من هاشم وبيض به وجوهكم ، وأدالكم على أهل الشام ، ونقل إليكم السلطان وعز الإسلام ، ومن عليكم بإمـــام منحـــه العدالة وأعطاه حسن الإيالة ، فخذوا ما آتاكم الله بشكر ، والزموا طاعتنا ، ولا تخدعوا عن أنفسكم فإن الأمر أمركم . وإن لكل أهل بيت مصـــرا وإنكم مصرنا ، ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أمير المؤمنين على بن أبي طالب ، وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد – وأشار بيده إلى أبي العباس – فاعلموا أن هذا الأمر فينا لـــيس بخارج منا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم [1]..

([1]) المصدر السابق : ص ٤٢٧-٤٢٨ ، البداية والنهاية لابن كثير : ١٠/٤١-٤٢ ، وانظر تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٢٥٧ وفى العقد للفريد لابن عبد ربه : ٤/١٠١ أن خطبة داود كانت بمكة ؟.

ثم نزل أبو العباس وداود بن علي أمامه حتى دخل القصر ، وأجلس أبا جعفر في المسجد ليأخذ له البيعة على الناس ، فلم يأخذها عليهم حتى صلى بهم العصر ، ثم صلى بهم المغرب ، وجنهم الليل ، فدخل.

وكان عيسى بن موسى إذا ذكر خروجهم من الحميمة يريدون الكوفة يقول : " إن نفرا أربعة عشر رجلا خرجوا من دارهم وأهليهم يطلبون مطالبنا لعظيمة هممهم كبيرة أنفسهم شديدة قلوبهم ".

ويتبين من الخطابين اللذين ألقاهما كل من أبي العباس وداود بن علي الأسس التي يستندون إليها ، ،أعلنوا للناس سياسة ووعدوا بالسير عليها ، ويلاحظ من مضمون الخطبتين ما يلي :

(١) إن أبا العباس في خطابه افتخر بكونه ثائرا أي خارجا على الظالم ومغير لأوضاع النظام السابق .

(٢) إن العباسيين أقاموا دولتهم على أساس من الحق .

(٣) إنهم جاؤوا لإحياء سنة الرسول صلى الله عليه وسلم والعمل بكتاب الله وسنة رسوله .

(٤) مثلوا انتصارهم كانتصار للعراقيين على أهل الشام ، فأغروا أهل الكوفة بزيادة العطاء كي يحصلوا على تأييدهم .

(٥) الإشادة بالخراسانيين والثناء عليهم لما أبلوا من بلاء حسن في مساعدتهم على استعادة حقهم المغتصب في الخلافة .

(٦) الدعاية القوية فى خطبة داود بن على الذى أعلن أبدية خلافة بـــن العباس إلى يوم القيامة ، واعلموا أن هذا الأمر فينا وليس بخارج منــا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم ".

(٧) تأكيد المودة والمصلحة المشتركة بين العباسيين وبين أهل الكوفة.

(٨) فى خطبة داود بن على جملة أخري بارزة هى قوله لأهل الكوفة :" إن لأهل كل بيت مصرا ، وإنكم مصرنا ".

وكان لابد من ذلك لإرضاء شعور أهل الكوفة ، ولكن محور الثقل فى الدولة الإسلامية قد انتقل بالفعل من دمشق إلى الكوفة والعراق ، وكان ذلك حادثا له شأن حاسم .

لقب ((السفاح)):

جاء فى نهاية خطاب أبى العباس الذى أوضح فيه منهجه السياسى جملة ذات شأن وهى " (أنا السفاح المبيح والثائر المبيد) وأصبح السفاح لقبا لأبى العباس ، واللفظ يحتمل سفك الدماء وتهديد من تحدثـه نفســه بالتمرد ، كما يحتمل السخاء وبذل المال [١]. ولنا أن نفهم من ذكر لفظ السفاح فى الخطاب بعد الجملة التى قرر فيها أبو العباس الزيادة فى عطــاء جند الكوفة أن المقصود باللفظ العطاء وبذلك المال ، علـــى أن بــاقى الجملة– وهو الثائر المبير أو المبيد – يرجح ما ذهب إليه أكثر المؤرخين من أن المقصود التهديد بسفك دماء المخالفين .

---

(١) يقال سفاح : سفاك للدماء ، وسفح الدم أراقه ، سفحت العين دمعها إذا أرسلته ، والسفاح للعطاء والفصيح .

وإذا رجعنا إلى المصادر الأولى كابن قتيبه واليعقـوبى والجهشـياري والدينوري والطبري فإننا لانجد أثرا فيها لنسبة هذا اللقب للخليفة ، أما المسعودي فهو أول مصدر يذكره ، ويظهر أن متأخري المؤرخين الـذين جاؤا بعده أخذوه عنه، ومما يلفت النظر أن لفظ السفاح كان يطلـق فى الجاهلية على بعض شيوخ القبائل ، ويقال إن سلمه بن خالد الذى قاد بنى تغلب فى موقعة " يوم الكلاب الأول) سمى السفاح ، لأنه أفـرغ مـزاد جيشه قبيل الموقعة ، وورد فى بعض الروايات" أنا السفاح المبـاح ، ولا يبعد أن يكون قصد من هذا أن يتوعد أهل الكوفة .

السياسة الداخلية للسفاح

لم تكن هزيمة مروان أو قتل ابن هبيرة منتهى متاعب العباسين فإنه كان لا يزال فى الأمة العربية قواد ضلعهم مع بنى أمية ولا يزال عنـدهم شئ من القوة ، فكانوا يثورون إما خوفا على أنفسهم من بنى العبـاس ، وإما طمعا فى إعادة تلك الدولة العربية التى كان لهم منها نصيب وافر ، ونلاحظ ظاهره جديدة فى هذه الثورات ، إذ أنها اتخذت البياض شعارا لها بالمقابلة للون الأسود شعار العباسيين .

وأهم تلك الثورات ثورة قنسرين ، إذ قامت القيسية بها ونادت بأبى محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية ودعوا إليه وقالوا ": هذا السفيانى المنتظر ، ولكن عبد الله بن على تمكن من تشتيت شمل الثوار فى أواخر سنة ١٣٣ هـ . ووقع أبو محمد بين أيدي العباسين وهو يفـر إلى الحجـاز وذلك على أيام المنصور [١].

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٢٣٤-٢٣٥.

سنة ١٣٥ هـ وأظهر كتابا من أبى العباس بولايته على خراسان ، ولكن أبا مسلم قضى على الثورة فوراً . وبقى أبو مسلم يتدخل فى كل شىء حتى ثقلت وطأته على أبى العباس وكثر خلافه إياه ورده لأمره . كما أن الخليفة شكا إلى خالد بن برمك اهتمامه بهيبة الجند لأبى مسلم ، فأشار عليه خالد برأى ظاهره تقوية جيش أبى مسلم وباطنه تحطيم مركزه ، وكان رأى خالد أن يأمر الخليفة أبا مسلم بعرض جيشه وإسقاط من لم يكن من أهل خراسان منهم ، ففعل ذلك ، فأسقط أبو مسلم جنداً كثيراً فى يومين متتالين ، ولما جلس فى اليوم الثالث قام إليه رجل فقال : « علام تسقط الناس أيها الرجل منذ ثلاث ؟ فقال : أسقط من لم يكن من أهل خراسان قال : فابدأ بنفسك فانك من أهل أصبهان وقد دخلت فى أهل خراسان . فوثب أبو مسلم من مجلسه وقال : هذا أمر أحكم بليل ، وفطن لما أريد به ، وبلغ الخبر أبا العباس فسر(١) . ولم يجرؤ أبو العباس على اتخاذ تدبير حاسم ضد أبى مسلم ، فقد أشار عليه أبو جعفر عند رجوعه من خراسان سنة ١٣٢ — ١٣٣ هـ بقتل أبى مسلم وقال له : « لست بخليفة ما دام أبو مسلم حياً ، فاحتل لقتله قبل أن يفسد عليك أمرك ، فلقد رأيته وكأنه لا أحد فوقه ومثله لا يؤمن غدره ونكثه(٢) » .

فرفض أبو العباس حذراً من الخراسانيين ، وقد أشرب قلوبهم

---

(١) الجهشيارى : كتاب الوزراء والكتاب ص ٩٤ .

(٢) الدينورى ص ٣٥٦ .

وعصر أبو العباس لم يبلغ خمس سنوات ، وعمل السفاح بمعاونة أخيه أبي جعفر على ان يتقلد الهاشميون مقاليد الأمور فى الدولـــة ، فعهـــد إلى أخوته وأبنائهم وأبناء عمومته بالقيادة العسكرية وولايات الأقاليم كمـــا بدأ سياسة غريبة تهدف إلى التخلص من كبار الإتباع والعمال الذين حس بخطورتهم .

وعلى عهد أبي العباس قامت بعض الثورات فى خراســـان ، وفى إقليم ما وراء النهر ولكن الجيوش العباسية الخراسانية استطاعت أن تقضى عليها بسهولة ، وكذلك استطاعت جيوش الدولة أن تحرز انتصـــارات فى المشرق وأن تدفع بحدود الدولة نحو أواسط أسيا .

ثورة بخاري :

ثورة بخاري هذه خطيرة إذ تزعمها رجل اسمه شريك المهري من قبيلة مهرة ، هذا الرجل كان يؤيد أل البيت فى أول الأمر ، ولكنه نقـــم على السياسة التى انتهجها أبو مسلم عندما توسع فى اســـتحلال ســـفك الدماء ، والتف حوله أكثر من ٣٠ ألف رجل من منطقة بخاري ومنطقة خوارزم وأرسل أبو مسلم جيشاً لقتال هذا الثائر على رأسه زياد بن صالح الخزاعى ، وعاون ابن صالح ملك بخاري واخمدت الثورة بكثير من العنف والقسوة ويقال أن المدينة تركت طعمه للنيران لمدة ثلاثة أيام ، كما صلب الأسري على أبوابها (١).

---

(١) انظر ، النرشحى ، تاريخ بخاري ، ترجمة الدكتور أمين عبد المجيد بدوي ، نصر الله مبشر الطرازي ، طبعة دار المعارف ، مصر ، ص ٩١-٩٣ ، ابن الأثير ، ح ٤ ص ٣٤١-٣٤٢.

وظهر على أطراف الدولة خطر جديد ، ذلك أن الصين بدأت تتدخل فى شئون ما وراء النهر . ولكن زياد بن صالح بعد أن قضى علـــى ثـــورة بخاري استطاع أن يحرز نصراً عظيماً على القوات الصينية فى وقعة تسمى طراز وتبالغ الروايات العربية فى ذلك النصر فتقول أن المســـلمين قتلـــوا حوالى خمسين ألفا وأسروا نحو عشرين ألفا وهرب باقى الجيش إلى الصين .

واستمرت الصين فى سياساتها التى تهدف إلى مساعدة الحكام الوطنيين ، على الخروج على الحكم الإسلامى ، ولكن عامل بلخ الذى عينه أبـــو مسلم هو أبا داود خالد بن إبراهيم نجح فى قمع ثورة الختل التى فر أميرها إلى بلاد الصين ، وكذلك قتل دهقان كش ونسف .

وهكذا استطاع أبو مسلم أن يحرز نجاحـــا كـــبيرا فى سياســـته الخارجية بتأمينه لحدود الدولة الخارجية كما نجح فى سياســـته الداخليـــة. وهذا النجاح الكبير زاد بطبيعة الحال من هيبة الـــداعى الهـــاشمى وأثـــار الخوف فى نفوس العباسيين .

خروج زياد بن صالح :

ففى سنة ١٣٥ هـــ قامت ثورة فى ارض ما وراء النهر ، بقيادة زياد ابن صالح ومعه سباع بن النعمان الأزدي — وهو الذى كـــان قـــد أرسله السفاح إلى زياد بن صالح وأمره ان رأي فرصه أن يثب علـــى أبى مسلم فيقتله ، وكان أبو مسلم قد عينهما واليين لما وراء النهر . والظاهر أنهما رفعا راية العصيان بتحريض من السفاح ، ولكنـــهما لم ينجحـــا فى

ثورتهما تلك فقتل سباع بمدينة أمل ، أما عن زياد بن صالح فقد انفض عنه جنده وهرب إلى دهقان قرية باركث فقتله وبعث رأسه إلى أبي مسلم [١].

ولم يكن هذا يعني انتهاء محاولات الخليفة ضد عامله الكبير وذلك أنه ربما قرر أبو العباس السفاح بالاتفاق مع أخيه أبي جعفر التخلص من ذلك المنافس الخطير [٢].

القضاء على أبي سلمة الخلال :

تذكر الروايات أن أبو مسلم اقترح على الخليفة التخلص من أبي سلمة وأنه كتب إليه يقول له " قد أحل الله يا أمير المؤمنين دمه لأنه قد نكث وغير وبدل " ولكن السفاح رد على ذلك بأنه لايريد أن يبدأ عهده بقتل رجل من شيعته مثل أبي سلمة لجهوده في نشر الدعوة [٣]. كما كلمه أيضا أبو جعفر (المنصور) أخوه وداود بن علي عمه في ذلك ، وكان أبو مسلم قد أرسلهما وطلب منهما أن يشيرا على السفاح بقتله .

---

(١) انظر ، الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٧ ، ص ٤٤٦-٤٦٧ ، ابن لأثير ، ج ٤ ، ص ٣٤٤.

(٢) خليفة تاريخ خليفة ، ج ٢٢ ، ص ٦٢٩ هـ وقارن المسعودي ، مروج الذهب ، ج٤ ، ص ٩٤ حيث يقول " ومات بالأنبار في مدينته التي ابتناها ، وذلك يوم الأحد لاثنى عشر ليلة خلت من ذي الحجة ، ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٣٤٦.

(٣) انظر ، المسعودي ، ج ٤ ، ص ١١٥-١١٦.

ولكن أبو مسلم كما نستشف من الروايات أرسل جماعة من ثقاته لقتل أبي سلمة وانتهز فرصة انصرافه من عند السفاح من الأنبار وليس معه أحد ، " فوثب عليه أصحاب أبي مسلم فقتلوه ": وأشيع أن أبا سلمه قتله الخوارج ، وكان مقتله فى رجب سنة ١٣٢هـ.

علاقة الخليفة بأبي مسلم :

كان أبو العباس يخشى سلطان أبي مسلم وحب أهل خرسان له لأنه لم يكن والياً فحسب ، وإنما ان زعيما دينياً ، وكان فوق هذا يتدخل فى شئون الدولة ، حيث كان له ممثل فى البلاط اسمه أبو الجهم وكان الخليفة لا يعدو رأيه ،وكان عيناً لأبي مسلم على أبي العباس ، وكان يكتب بالاخبار إلى أبي مسلم ، فحاول أن يستعمل زياد ابن صالح والى بلاد ما وراء النهر للقيام ضده ، وأمره إن رأى فرصة أن يثب على أبي مسلم فيقتله ، وثار زياد على أبي مسلم سنة ١٣٥ هـ وأظهر كتابا من ابى العباس بولايته على خراسان ، ولكن أبا مسلم قضى على الثورة فوراً ، وبقى أبو مسلم يتدخل فى كل شئ حتى ثقلت وطأته على أبي العباس وكثر خلافة إياه ورده لأمره ، كما أن الخليفة شكا إلى خالد بن برمك اهتمامه بهيبة الجند لأبي مسلم ، فأشار عليه خالد برأي ظاهره تقوية جيش أبي مسلم وباطنه تحطيم مركزه ، وكان رأي خالد أن يأمر الخليفة أبا مسلم بعرض جيشه وإسقاط من لم يكن من أهل خراسان منهم ، ففعل ذلك ، فاسقط أبو مسلم جنداً كثيرا فى يومين متتالين ، ولما جلس فى اليوم الثالث قام إليه رجل فقال : علام تسقط الناس أيها الرجل منذ ثلاث ؟ فقال: أسقط من لم يكن من أهل خراسان قال : فأبدأ بنفسك فانك من أهل أصبهان ، وقد دخلت فى أهل خراسان ، فوثب أبو مسلم من مجلسه وقال : هذا أمر أحكم بليل ، وفطن لما أريد به ، وبلغ الخبر أبا

العباس فسر [١]. ولم يجرؤ أبو العباس على اتخاذ تدبير حاسم ضد أبي مسلم ، فقد أشار عليه أبو جعفر عند رجوعه من خراسان سنة ١٣٢-١٣٣هـ بقتل أبي مسلم وقال له : لست بخليفة ما دام أبو مسلم حياً ، فاحتل لقتله قبل أن يفسد عليك امرك ، فلقد رأيته وكأنه لا أحد فوقه ومثله لا يؤمن غدره ونكثة [٢]

وفرض أبو العباس حذرا من الخراسانيين ، وقد أشرب قلوبهم حبه واتباع أوامره وأثار طاعته ، ثم أشار عليه ثانية بقتله سنة ١٣٦هـ عندما جاء للحج فرفض للسبب عينه ، وهكذا ترك أبو العباس هذه المهمة الصعبة لأخيه أبي جعفر المنصور ليقوم بتنفيذها فى خلافته .

وأراد أبو مسلم أن يتولى إمارة الحج سنة١٣٦هـ فكتب إلى السفاح يستأذنه فى ذلك فأذن له ، ولكنه أو عز إلى أخيه أبي جعفر أن يطلب إمارة الحج حتى لا يأخذها أبو مسلم ، ولما طلبها جعفر أجابه عليها واعتذر لأبي مسلم ، وقال أبو مسلم لبعض خاصته : أما وجد أبو جعفر عاما يحج فيه غير هذا ، وخرج الإثنان للحج فى عام واحد .

مسلم من الكرم وقوة الجاه وكثرة الأنصار فى أثناء الحج ما حرك مواطن الغيرة والحسد فى قلب أبي جعفر وجعله يتدبر الأمر ويتخذ العدة للفتك به والخلاص من خطره.

---

(١) الجهشياري : كتاب الوزراء والكتاب ص ٩٤.

(٢) الدينوري ص ٣٥٦.

ولاية العهد ووفاة السفاح :

في سنة ١٣٦ هـ اختار أبو العباس بعده أخاه أبا جعفر وجعله ولي عهد المسلمين ، وبعد أبي جعفر ابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن علي ، وكتب العهد بذلك وصيره في ثوب وختم بخاتمه وخواتيم أهل بيته ودفعه إلى عيسى بن موسى لأن أبا جعفر كان غائباً ، وقد ارتكب السفاح بفعله هذا الغلطة الشنيعة التي سبق بها في عهد الأمويين وهي تولية العهد لأكثر من واحد من الأبناء والاخوة ، ولم يعتبر العباس بمن مضى قبله ، فقد كان ذلك مبعث شرور وفتن شديدة : بين الخليفة وأولياء عهده مما ستراه عند دراستنا لأبي جعفر ومن بعده من العباسيين .

وكانت وفاته متأثراً بمرض الجدري في ١٢ ذي الحجة سنة ١٣٦ هـ بمدينة الأنبار حيث دفن بها في قصره .

أبو جعفر المنصور

(١٣٦ — ١٥٨ هـ = ٧٥٤ — ٧٧٥ م)

هو أبو جعفر عبد الله بن محمد بن على العباس ولد بالحميمة من أرض الشراة سنة ١٠١ هـ وقيل سنة ٩٥ هـ (١)، وأمه سلامة بنت بشير البربرية ، بايع له أخوه السفاح لما حضرته الوفاة، وقام بأمر الناس عيسى بن موسى ، وأرسل عيسى إلى أبى جعفر رسولا يخبره بموت السفاح وبالبيعة له ، فوصل إليه الكتاب بالصُّفَيّنة فى طريق مكة منصرفه من الحج ، ولما قرأ الكتاب كتب إلى أبى مسلم بالقدوم عليه فوراً — وكان كذلك يحج — فجاءه أبو مسلم ، فلما جلس ألقى إليه الكتاب ، فلما قرأه بكى واسترجع ، ثم نظر أبو مسلم إلى أبى جعفر وقد جزع جزعاً شديداً ، فقال : ما هذا الجزع وقد أتتك الخلافة ؟ قال : أتخوف شر عبد الله بن على عمّى وشيعة على ، قال : لا تخف فأنا أكفيك أمره إن شاء الله تعالى، فإنما عامة أصحابه وجنده أهل خراسان وهم لا يعصوننى ، فسرّى عن أبى جعفر ، وبايع الناس وأقبلا حتى وردا الكوفة ، وفيها اجتمع إليه بنو هاشم وبايعوه(٢) .

صفاته وأخلاقه :

يعتبر المنصور من أعظم الساسة العباسيين، وإن يكن من أكثرهم

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط : ٢ / ٤٥٨ ، مروج الذهب : ٣ / ٢٠٩ ، تاريخ السيوطى ص ٢٥٩ .

(٢) الطبرى : ٧ /٤٧٢ ، ابن الأثير : ٥ / ٢١٩ ، العيون والحدائق : ٣ / ٢١٦ .

سفكا للدماء ، فالمنصور — لا السفاح — هو الذى أسس الدولة العباسية حقاً وجميع الخلفاء الذين تبعوه وهم ٣٥ إنما كانوا من ذريته . ويصفه المسعودى بقوله : كان طويلا أسمر نحيفا خفيف العارضين يخضب بالسواد ، محنك السنّ ، حازم الرأى ، قد عركته الدهور ، وحات الأيام سطوته ، وروى العلم ، وعرف الحلال والحرام ، لا يدخله فتور عند حادثة ، ولا تعرض له ونية عند مخوفة ، يجود بالأموال حتى يقال هو أسمح الناس ، ويمنع فى الأوقات حتى يقال هو أبخل الناس ، ويسوس سياسة الملوك ، ويثب وثوب الأسد العادى ، لا يبالى أن يحرس ملكه بهلاك غيره ، وخلف من الأموال ما لم يجتمع مثله لخليفة قبله ولا بعده ، وهو تسعمائة ألف ألف وستون ألف ألف ، ففرق المهدى جميع ذلك حين أفضى الأمر إليه (١) وقال أيضاً : وكان من الحزم وصواب الرأى وحسن السياسة على ما تجاوز كل وصف ، وكان يعطى الجزيل والخطير ، ما كان عطاؤه حزما ، ويمنع الحقير اليسير ماكان إعطاؤه تبيعا ، وكان كما قال زياد : لو أن عندى ألف بعير وعندى بعير أجرب لقمت عليه قيام من لا يملك غيره(٢) . ووصفه ابن طباطبا فقال : كان المنصور من عظماء الملوك وحزمائهم وعقلائهم وعلمائهم وذوى الآراء الصائبة منهم والتدبيرات السديدة ، وقوراً شديد الوقار ، حسن الخلق فى الخلوة ، من أشد الناس احتمالا لما يكون

---

(١) التنبيه والاشراف ص ٢٩٥ ، وفى مروج الذهب (٣ / ٢٣٢) أنه خلف ستمائة ألف ألف درهم ، وأربعة عشر ألف ألف دينار .

(٢) مروج الذهب : ٣ / ٢٣٢ .

من عَبث أو مزاح ، فاذا لبس ثيابه وخرج إلى المجلس العام تغيّر لونه واحمرت عيناه وانقلبت جميع أوصافه ، قال يوما لبنيه ! يا بنيّ إذا رأيتمونى قد لبستُ ثيابى وخرجت إلى المجلس فلا يدنونّ أحد منى مخافة أن أعُرّه بشىء.(١) ويروى ابن طباطبا عن يزيد بن عمر بن هبيرة قوله فى المنصور : ما رأيت رجلا فى حرب أو سلم أمكرَ ولا أنكر ولا أشد تيقظا من المنصور ، لقد حاصرنى تسعة شهور ومعى فرسان العرب فجَهَدنا كل الجهد حتى نال من عسكره شيئا فما قدرنا لشدة ضبطه لعسكره و كثرة تيقظه ولقد حصرنى وما فى رأسى شعرة بيضاء ثم انقضى ذلك وما فى رأسى شعرة سوداء(٢) .

والمنصور هو الذى أصّل الدولة وضبط المملكة ورتّب القواعد وأقام الناموس واخترع أشياء(٣) .

وقال عنه السيوطى : كان فحل بنى العباس هيبة وشجاعة وحزما ورأيا وجبروتا ، جماعا للمال ، تاركا للهو واللعب ، كامل العقل جيد المشاركة فى العلم والأدب ، فقيه النفس ، قتل خلقا كثيرا حتى استقام ملكه ... وكان فصيحا بليغا مفوّها خليقا للامارة ، وكان غاية فى الحرص والبخل ، فلقب « أبا الدوانيق » لمحاسبته العمال

(١) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٣٦ .
(٢) المصدر السابق ص ١٣٦ — ١٣٧ .
(٣) المصدر السابق ص ١٣٧ .

والصناع على الدوانيق والحبات ، كما كان عالما بالحديث والأنساب(١).

ويؤخذ من هذه الأوصاف أن المنصور كان مجربا حازم الرأى وقوراً شديد الدهاء مثقفا كثير الحذر ، يتحاشى الملذات مهتما بادارة الدولة مدبراً فى المال إلى درجة الحرص والبخل ، قوى الإرادة ، قد عركته الأيام . وهو كسياسى إدارى لا يشق له غبار ، فضلا عن أنه لم يكن ليقل عن أشهر ملوك ذلك العصر فى بعد النظر والاهتمام برفاهية الشعب ، لكنه كان من الجهة الأخرى غادراً خادعاً ، لا يتردد ألبتة فى سفك الدماء . .

ويحاول البعض الدفاع عن المنصور فيما سفك من دماء وما ارتكب من غدر ونقض للعهود ، بأن هذا المسلك ضرورى لتثبيت دعائم دولة حديثة ، لكن هذا الدفاع إن ساغ أن يكون دفاعاً عن تأسيس بعض الدول فى بلاد غير إسلامية ، فانه لايجوز بحال من الأحوال أن يقال فى الدفاع عن مؤسسى الدول الإسلامية والعربية التى تستند فى تصرفاتها أصلا إلى الكتاب والسنة وعمل الخلفاء الراشدين ، وقوامها العدل والشورى والمساواة ، أضف إلى هذا أن العباسيين حينما قاموا بدعوتهم فى خراسان وغيرها أذاعوا بين الناس

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ٢٥٩ ، ٢٧٠ .

أنهم قاموا لإحياء السنة وإماتة البدعة وتخليصهم من ظلم الامويين وعسفهم وبطشهم ، فأين هـــذا العدل وتلك المساواة التى زعمها العباسيون ، لقدقتلوا منالأمويين عدداً غير قليل ومثلوا بزعمائهم أشنع تمثيل ، حتى إذا ما أسقطوا دولتهم شرعوا يتخلصون ممن أبلوا البلاء الحسن فى تأسيس الدولة ، كأبى سلمة الخلال وأبى مسلم الخراسانى ، وعبدالله بن على وغيرهم كثير ، وكانت الطامة الكبرى سوء معاملتهم لبنى عمومتهم من أولاد على بن أبى طالب ، وكان المنصور أول من أوقع الفرقة والخلاف بين العباسيين والعـــلويين ، وكان قبل ذلك أمرهم واحداً(١) .

وقدم رجل على المنصور كان يعرفه قبل الخلافة فسأله المنصور : كيف سلطانى من سلطان بنى أمية ؟ قال : ما رأيت فى سلطانهم من الجور شيئاً إلا رأيته فى سلطانك ، فقال : إنا لانجد الأعوان ، قال: إن عمر بن عبـد العزيز قال : إن السلطان بمنزلة السوق يجلب إليها ما ينفق فيها ، فان كان براً أتوه ببرهم ، وإن كان فاجراً أتوه بفجورهم ، فأطرق المنصور(٢) . وقال رجل للمنصور : لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لم تسمع بالعفو ، قال : لأن بنى مروان لم تبلَ رمَمهم ، وآل أبى طالب لم تغمد سيوفهم ، ونحن بين قوم قد رأونا أمس سُوقَة واليوم خلفاء ، فليس تتمهد هيبتنا فى صدورهم إلا بنسيان العفو واستعمال العقوبة(٣) .

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ٢٧٠ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٦٨ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٦٧ .

الأحداث التي واجهت المنصور :

لم يكد المنصور يتبوأ منصب الخلافة حتى وجد الفتن والأخطار تحيط به من كل جانب ، فهنا عمه الشجاع عبد الله بن علي والي الشام وقائد الجيش السابق في معركة الزاب وصاحب الأثر الأكبر في انتصار العباسيين يثور ويبايع لنفسه بالخلافة ، وهناك سلطان أبي مسلم الخراساني الذي كان يؤرق مضجع المنصور منذ عهد السفاح ، وهنالك العلويون من آل الحسن الذين كانوا يدعون الناس إلى بيعتهم وينافسون بني العباس في الملك .

وقد تمكن المنصور بدهائه بالقضاء على كل هذه الثورات وغيرها ، واستطاع بمهارته أن يضرب خصومه بعضهم ببعض ، والتخلص منهم واحداً تلو الآخر بأقرب وأسهل وسيلة ، وإليك تفصيل هذه الثورات وكيف قضى عليها ؟

ثورة عبدالله بن علي : حينما توفى أبو العباس السفاح كان المنصور مع أبي مسلم في الحجاز للحج ، فقام بأخذ البيعة له ابن أخيه عيسى بن موسى ولي العهد الجديد من بعده ، وكان عبد الله بن علي حينذاك والياً على الشام وكان قد قطع الدرب لغزو الروم وتحت

إمرته جيش كبير من الخراسانيين وأهل الشام والجزيرة ، ولما بلغته وفاة السفاح رجع حتى صار إلى « دُلُوك » من أرض جند قنسرين فأحضر حميد بن قحطبة الطائي وجماعة من القواد الذين كانوا معه ، فقال : ما تشهدون أمير المؤمنين أبا العباس السفاح ؟ قال : من خرج إلى مروان فهو وليّ عهدي فشهدوا له بذلك وبايعوا ، وبايعه أكثر أهل الشام(١) ، وكتب إلى عيسى بن علي وغيره يعلمهم بذلك ، وتوجه يريد العراق وخلع طاعة أبي جعفر . ولما علم المنصور بذلك — وكان قد نزل الهاشمية بعد وصوله من الحج — كتب إلى عمه عبد الله يقول(٢) :

سَأَجعل نفسي منكِ حيثُ جعلتِها ... وللدَّهر أيام لهُن عوَاقب

وشاور المنصور أبا مسلم الخراساني ، وقال له : ليس لعبد الله ابن علي غيري وغيرك ، فكره أبو مسلم ذلك وقال : ياأمير المؤمنين ، إن أمر عبد الله بالشام أقل وأذلّ ، وأمر خراسان يجلّ خطبه ، ثم انصرف أبو مسلم إلى منزله وقال لكاتبه : ما أنا وهذان الرجلان ؟! ثم قال : ما الرأى إلا أن أمضي إلى خراسان وأخلي بين هذين الكبشين فأيهما غلب كتب إلينا وكتبنا إليه سمعنا وأطعنا فرأى أنا قد أنعمنا عليه وعملنا له عملا ، فقال له كاتبه أعيذك بالله من أن تمكن أهل خراسان من الطعن عليك ، وأن يروا أنك نقضت أمرا

---

(١) تاريخ اليعقوبي : ٣ / ١٠٤ ، انظر الطبري : ٧ / ٤٧٤ وما بعدها ، ابن الأثير : ٥ / ٢٢٠ .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ٣ / ٢١٦ .

بعد تأكيده ، فقال : ويحك ! إنى نظرت فيمن قتلت بالسيف صبرا سوى من قتل فى المعارك فوجدتهم مائه ألف من الناس، فلم يزل به كاتبه حتى أجاب المنصور إلى الخروج لقتال عبـــد الله بن على وعسكر فى جيش كبير ثم سار حتى وصل إلى الجزيرة .

أما عبد الله بن على فقد وصل إلى حرّان(١) وقـد ارتكب عبد الله من الأخطاء التى كانت سببا فى إضعاف مركزه ، ذلك أنه لما علم بزحف جيش أبى مسلم قتل كثيرا من الخراسانيين الذين كانوا فى جيشه ، بحجة الخوف من تألبهم عليه إذا رأوا أبا مسلم مطلا، فقضى على نحو سبعة عشر ألف منهم بالقتل من غير جرم ارتكبوه ، كذلك أخطأ فى الأمر بقتل قائد كبير من قواده الذين معه وهو حميد بن قحطبة الطائى ولما علم حميد بذلك دعا أناسا من خاصته فأخبرهم الخبر وشاورهم وقال لهم : منْ أراد منـكم أن ينجو ويهرب فليسرْ معى فانى أريد أن آخذ طريق العراق ، ومن يرد منكم أن يحمل نفسه على السير فلا يغشينّ سرى وليذهب حيث أحب ، فتابعه على ذلك بعض أصحابه ، وبذلك فقدَ عبدُ الله قائداً عظيما مثل حميـد . وترك عبـــد الله مدينة حران حتى وصل نصيبين(٢) ، فاتخدها معسكرا

---

(١) حرّان بتشديد الراء وآخره نون : مدينة قديمة قصبة ديار مضر ، بينها وبين الرها يوم ، وبين الرقة يومان ، وكانت منازل الصابئة الحرانيين ، وهى مهاجر إبراهيم عليه السلام ، وبها قتل إبراهيم الامام بن محمد بن على (مراصد الأطلاع : ١ / ٣٨٩) .

(٢) نصيبين بالفتح ثم الكسر ثم ياء : مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على طريق القوافل من موصل إلى الشام ، وبينها وبين سنجار تسعة فراسخ . . . (مراصد : ٣ / ١٣٧٤) .

وحصنها ، فأقبل إليه أبو مسلم وأراد أن يحتل موقع عبد الله لقوة حصانته ، فكتب إليه : إنى لم أومر بقتالك ولم أوجه لذلك ، ولكن أمير المؤمنين ولانى الشام وإنما أريد نت تلك خدعة وحيلة من أبى مسلم لم تدخل على عبد الله ، لأنه يعرف مهارة خصمه فى الحروب ومكايدها ، لكن جند الشام الذين كانوا مع عبد الله قالوا له : كيف نقيم معك وهذا يأتى بلادنا وفيها حرمنا وذرارينا وتقاتله إن قاتلنا ، فقال لهم عبد الله : والله ما يريد الشام وماوجه إلا لقتالكم ولئن أقمتم ليأتينكم ، فلم تطب أنفسهم وأبوا إلا المسير إلى الشام .

فارتحل عبد الله متوجها إلى الشام على كره منه ، وحينئذ تمت الحيلة حيث تحول أبو مسلم حتى نزل معسكر عبد الله ، ولما بلغ ذلك عبد الله تأكد أن الحيلة قد تمت عليه وعاد فنزل معسكر أبى مسلم .

ودار القتال بين الطرفين ، وكان جند عبد الله أكثر فرسانا وأتم عتاداً ، لكن المركز الحصين الذى احتله أبو مسلم عوض عليه كثرة عدوه عَددا وعُدة ، واستمر القتال بينهما نحو ستة أشهر والحرب سجال بينهما ، وتمكن أبو مسلم من تمزيق صفوف عبد الله فضم أكثر الميمنة إلى الميسرة ، فلما ضم الشاميون أكثر ميسرتهم إلى ميمنتهم هجم أبو مسلم فى سرعة بالقلب مع بقية الميمنة على ميسرة أهل الشام . حتى إذا كان يوم الثلاثاء لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ١٣٧هـ وقعت الموقعة الفاصلة حيث انتصر أبو مسلم على خصمه عبد الله وتمت هزيمته ، ففرّ من الميدان هاربا مخالفا بذلك تقاليد بنى هاشم فى الحروب ، فانهم كانوا يرون الفرار عاراً على نفوسهم الأبية ،

ابن خالد بالإمارة على خراسان ما عاش ولا شيء أكبر من ذلك يقطع صلته بأبي مسلم ، وكتب إليه أبو داود : إنا لم نخرج لمعصية خلفاء الله وأهل بيت نبيه (ص) ، فلا تخالفن إمامك ولا ترجعن إلا باذنه(١). فزاده ذلك رعبا و كسرا. وأصبح أبو مسلم بين نارين : الخليفة من ورائه ، وخصمه الجديد داود في خراسان أمامه. وأمام هذه التهديدات والأخطار التي تواجهه لم يجد بدا من أن يحول وجهه عن خراسان ويتوجه إلى العراق للقاء المنصور حيث يلاقي حتفه بعد قليل. ولم يصغ أبو مسلم لما أشار به صديقه «نيزك» من عدم الذهاب إلى المنصور وقال له نيزك : قد أجمعت على الرجوع ؟ قال : نعم ، وتمثل بقول الشاعر :

ما للرجال مع القضاء محالة ، ذهب القضاء بحيلة الأقوام

فقال : أما إذا اعتزمت على هذا فخار الله لك ، واحفظ عني واحدة إذا دخلت عليه فاقتله ثم بايع لمن شئت ، فان الناس لا يخالفونك(٢). وكتب أبو مسلم إلى أبي جعفر يخبره أنه منصرف إليه .

ولما وصل كتاب أبي مسلم إلى المنصور قال : والله لئن ملأت عيني منه لأقتلنه . واجتهد المنصور أن يكون أبو مسلم آمنا لا يحس بشيء من الجفاء ، ولما قارب أبو مسلم المدائن — حيث كان المنصور في قصره — أمر الناس وبني هاشم بتلقيه ، فلما دخل على المنصور

---

(١) الطبري : ٧/٤٧٦ . انظر البداية والنهاية : ١٠/٦٥ .
(٢) العيون والحدائق : ٣/٢٢٢ .

وأن الصمود فى ساحة الوغى هو طبيعتهم، فاما ظفر ونصر، وإما قتل واستشهاد، مع ملاحظة أن عبد الله بن على كان قد عاب على مروان ابن محمد هذا الفرار وقال: قبح الله مروان، جزع من الموت ففر. وأمر أبو مسلم أن لا يعترضه أحد، فهرب إلى العراق تاركا معسكره، فاستولى عليه أبو مسلم، وأمن الناس، فلم يقتل أحداً منهم.

أما عبد الله بن على فانه سار مع أهله إلى البصرة وكان واليها أخاه سليمان بن على، فآواه عنده وبقى مختفياً مدة، ولما علم المنصور بذلك طلبه من سليمان، فأنكر أن يكون عنده، ثم طلب الأمان، فكتبه له أبو جعفر على نسخة وضعها ابن المقفع، وتضمنت أغلظ العهود والمواثيق أن لا يناله بمكروه، وأن لا يحتال عليه فى ذلك بحيلة. وكان فى الأمان: فان أنا فعلت أو دسست فالمسلمون براء من بيعتى، وفى حلّ من الأيمان والعهود التى أخذتها عليهم. فلما وقف أبو جعفر على هذا قال: من كتبه؟ قيل: ابن المقفع، فكان ذلك سبباً لميتة ابن المقفع.

وقدم سليمان بن على من البصرة حتى أخذ الأمان وشخص من البصرة ومعه أخوه عيسى بن على وقدما بعبد الله إلى المنصور فأمر بحبسه عند عيسى بن موسى — وهو ولى عهده — ثم سأله عنه فأخبره بوفاته، فوجّه المنصور إلى أعمامه بنى علىّ وجماعة من بنى هاشم، وقال لهم: إنى كنت دفعت عبد الله بن على إلى عيسى وأمرته أن يحتفظ به وأن يكرمه ويبرّه وقد سألته عنه فذكر أنه قد مات، فأنكرت تستير خبر موته عنى وعنكم. فقال القوم: ياأمير المؤمنين،

إن عيسى قتله ، ولو كان عبد الله مات حتف أنفه ما ترك أن يعلمك ويعلمنا موته ، فجمع بينه وبينهم فطالبوه بدمه ، وقال له : إيت على ما ذكرت بنية عادلة وإلا أقدتك منه ، وأحضر الناس لذلك ، فلما رأى عيسى تحقيق الأمر عليه قال : أخرنى إلى العشى فأخر ، فحضر بالعشى وحضر عبد الله بن على معه وقال : إنما أردت بما قلت الراحة من حراسته خوفاً أن يناله شيء فيقال لى مثل هـذا ، وقد سلمته صحيحاً سوياً : فقال أبو جعفر بل أردت أن تعرف ما عندنا فاذا احتملناك فعلت ذلك ، فأمر أبو جعفر فبنى له بيت وقال يكون نصب عينى(١) ، وبقى فى محبسه تسع سنوات . حتى سنة ١٤٩ هـ . ولما كان أساس الدار سبخا مالحا لا يحتمل المياه ، فلما هطلت الأمطار بغزارة تقوضت دعائمها ، وقيل إن المنصور أمر باغراق الدار بالمياه فسقطت على من فيها فماتوا ، وهكذا قتل بطل معركة الزاب ، وهو مصير كان يستحقه نظراً للقسوة البالغة التى عامل بها الأمويين ، فشرب من الكأس التى سقى بها الناس دهاقا .

---

(١) تاريخ اليعقوبى : ١٠٨/٣ ، وروى المسعودى أن المنصور أمر عيسى بقتل عبد الله سراً ، واستشار عيسى صديقاً له فأشار عليه بعدم قتله ، وأن يظهر أنه قتل إذا سأل ، وشاع ذلك ، فكلم بنو على عيسى بن موسى فى عبد الله فقال قد قتلته ، فرجعوا إلى المنصور وأخبروه بأن عيسى زعم أنه قتله ، فأظهر الغضب على عيسى وقال : لأقتلنه بعمى ، وكان أبو جعفر أحب أن يكون عيسى قتله فيقتله به فيستريح منهما جميعاً ، واستدعى المنصور عيسى وسأله لماذا قتل عبد الله فأخبره بأن هذا أمره وكتابه فى ذلك ، فأنكر المنصور الكتاب ، فلما رأى الجد من المنصور وتخوف على نفسه قال هو عندى لم أقتله ، وأمره بتسليمه إلى أبى الأزهر (مروج الذهب : ٢٣٠/٣) .

ثورة أبى مسلم الخراسانى : استراح المنصور من الخطر الأول الذى هدد خلافته فى وقت مبكر ، وبدأ يستعد للقضاء على خطر ثان كان وجوده مبعثاً لتهديد سلطانه ذلك الخطر يتجسم فى أبى مسلم الخراسانى صاحب اليد الطولى فى تأسيس الدولة العباسية ، والذى فرغ بالأمس من القضاء على ثورة عبد الله بن على ، ولم يكن الخلاص من أبى مسلم وليد اليوم عند أبى جعفر ، ولكنه يرجع إلى عهد السفاح ، فقد أشار على أخيه بقتله فى مناسبات مختلفة ، وقال له مرة . «لست بخليفة مادام أبو مسلم حيًّا، فاحتل لقتله قبل أن يفسد عليك أمرك ، فلقد رأيته وكأنه لا أحد فوقه ومثله لا يؤمن غدره ونكثه »(١) . ولكن السفاح رفض خشية من الخراسانيين .

ولما ذهب المنصور إلى خراسان فى عهد السفاح لم يبالغ أبو مسلم فى برّه وإكرامه، ولم يظهر السرور التام بقدومه. وقال المنصور يوماً لسالم (أو مسلم) بن قتيبة : ما ترى فى أمر أبى مسلم ؟ قال : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » . فقال: « حسبك يا ابن قتيبة لقد أودعتها أذنا واعية »(٢)هذا رأى المنصور فى أبى مسلم قبل الخلافة، ثم جاءت حوادث أخرى بعد الخلافة عجلت بتقديم الأزمة ، ذلك أنه لما مات أبو العباس أرسل أبو مسلم رسالة إلى المنصور يعزيه دون أن يهنئه بالخلافة ، فأنكر المنصور ذلك ، ولما سار أبو مسلم لقتال عبدالله

---

(١) الأخبار الطوال للدينورى ص ٣٥٦ ومابعدها ، ص ٥٢ من الكتاب.

(٢) مروج الذهب : ٢١٦/٣ ، وابن خلكان : ٣٥٥/١ وينسب اليعقوبى هذا الحديث إلى السفاح ويقول إنه كان بينه وبين الحجاج بن أرطاة الفقيه (تاريخ اليعقوبى ٣٥٦/٣) .

ابن على أمر الخليفة الحسن بن قحطبة والى الجزيرة أن يلحق به ويراقب أعماله بقعل ، وأخذ يبعث بأخباره وملاحظاته على تصرفاته فأثار مخاوف المنصور وخاصة عندما كتب إليه : « إنى ارتبت بأبى مسلم منذ قدمت عليه ، إنه يأتيه الكتاب من أمير المؤمنين فيقرؤه ثم يلوى شدقه ، ويرمى بالكتاب إلى أبى نصر فيقرؤه ويضحكان استهزاء »(١)

وزادت غطرسة أبى مسلم بعد انتصاره على عبد الله بن على ، فأراد المنصور أن يختبره ، ويشعره بأنه أحد عماله ، فأرسل إليه أبا الخصيب يقطين بن موسى وأمره أن يحصى ما فى العسكر ، وكان أبو مسلم قد غنم عيناً ومتاعاً وجوهراً كثيراً وصيره فى حظيرة . فقال أبو مسلم : يا يقطين ؟ أمين على الدماء خائن فى الأموال ! وشتم أبا جعفر (٢) . فقال يقطين لما رأى ماداخله عليه : إن كان أمير المؤمنين ما وجهنى إليك إلا مهنئا بالفتح ، وكان مع يقطين صديقان له فشتمهما وتناول أبا جعفر بلسانه حتى ذكر أمه وقال : ويلى على ابن سلامة ! فانصرف القوم إلى أبى جعفر فأخبروه الخبر ، فزاد ذلك مما فى قلبه عليه(٣) .

وساءت ظنون كل واحد بالآخر ودخلت بينهما وحشة واستعد كل منهما للايقاع بصاحبه ، وهنا عزم أبو مسلم على الخلاف وأن يتوجه إلى خراسان ولا يحضر عند المنصور ، فخاف المنصور أن

(١) الطبرى : ٤٨١/٧ ، البداية والنهاية : ٦٣/١٠ .
(٢) المصدر السابق ص ٤٨٢ — ٤٨٣ ، الفخرى ص ١٤٥ .
(٣) تاريخ اليعقوبي : ١٠٦/٣ .

يتوجه أبو مسلم إلى خراسان بهذه الصفة فتفسد عليه الأمور هناك ، فكتب إليه المنصور يطيّب نفسه ويسكّنه ويَعده الجميل ، ويطلب منه الحضور ، فأجابه بأنه على الطاعة وأنه متوجه لخراسان وقال : إن أصلحت نفسك كنتُ سامعاً مطيعاً ، وإن أبيت إلا أن تعطى نفسك سؤلها كنتُ قـد نظرت لنفسى بالحال التى تقارنها السلامة ! فاشتد خوف المنصور منه وحَنقه عليه .

وفى رواية أن المنصور كتب إليه كتابا مع يقطين بولاية مصر والشام وأنها خير له من خراسان ، وأن يوجه إلى مصر من أحبَّ ويقيم بالشام فيكون قريباً من المنصور ، فغضب أبو مسلم لما وصله الكتاب وقال : هو يولينى الشام ومصر ، وخراسان لى ! واعتزم المضى إلى خراسان ، فكتب يقطين إلى أبى جعفر بذلك وكان ذلك أول خلاف علنى .

رأى المنصور أنه لم يبق إلا استعمال الدهاء للايقاع بأبى مسلم فى فخ ينصبه له حتى لا يثير حربا شعواء لا يعلم عقباها أحد ، فتوجه إلى المدائن وكتب إلى أبى مسلم فى المصير إليه ، فكتب إليه أبو مسلم ــ وقد نزل الزاب فى الرواح إلى حلوان ــ : إنه لم يبق لأمير المؤمنين عدوّ إلا أمكنه الله منه ، وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان : أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء ، فنحن نافرون من قربك ، حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت ، حريّون بالسمع والطاعة ، غير أنها من بعيد حيث تقارنها السلامة ، فان أرضاك ذاك فأنا كأحسن عبيدك ، فان أبيت إلا أن تعطى نفسك

إرادتها نقضتُ ما أبرمتُ من عهدك ضنا بنفسى عن مقامات الذل والإهانة (١) .

وكان هذا الكتاب وغيره مما زاد حنق المنصور عليه ، لأنه كتاب رجل يعتقد فى نفسه القوة حتى وضع نفسه ندا للخليفة إدلالا بمركزه وسابقته فى إقامة دعائم الخلافة العباسية .

فلما وصل الكتاب المنصور كتب إلى أبى مسلم : قد فهمت كتابك ، وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم الذين يتمنّون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم ، فانما راحتهم فى انتشار نظام الجماعة ، فلمَ سويت نفسك بهم وأنت فى طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ماأنت به وليس مع الشريطة التى أوجبت منك سماع ولا طاعة ! ... وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزغانه وبينك .

وقيل بل كتب إليه أبو مسلم : أما بعد ، فانى اتخذت رجلا إماما ودليلا على ما افترضه الله على خلقه ، وكان فى مَحلّة العلم نازلا ، وفى قرابته من رسول الله (ص) قريباً ، فاستجهلنى بالقرآن لحرفه عن مواضعه ، طمعا فى قليل قد تعافاه الله إلى خلقه ، فكان كالذى دُلّىَ (أى أطمع) بغرور ، وأمرنى أن أجرّد السيف ، وأرفع الرحمة ولا أقبل المعذرة ، ولا أقبل العثرة ففعلت توطيداً لسلطانكم حتى عرفكم الله من كان جهلكم ، ثم استنقذنى الله بالتوبة ،

(١) البداية والنهاية ١٠/٤٠ ، انظر ابن الأثير : ٥/٢٢٣ .

فان يعف عنى فقدماً عرف به ونسب إليه ، وإن يعاقبنى فبما قدمت يداى ، وما الله بظلام للعبيد(١) .

ولم يكتف المنصور بذلك الكتاب بل إنه أمر وجوه بنى هاشم بالكتابة إليه يحسنون له الحضور عند المنصور والاعتذار إليه ، ويقبحون خلافه على المنصور ومشاقته . ووجه بالكتب كلها مع جرير بن يزيد بن جرير بن عبد الله البجلى ، وكان واحد أهل زمانه وداهية عصره ، وكانت له خلابة وتأن فى الأمور ومكيدة ، وكانت المعرفة بينه وبين أبى مسلم قديمة ، وأمره أن يكلم أبا مسلم باللين كلاماً يقدر عليه ، وأن يكون فى جملة ما يكلمه به . أنه يريد رفع قدرك وعلو منزلتك والإطلاقات لك ، فان جاء بهذا فذاك ، وإن أبى وأيست منه ولم يبق لك حيلة فقل له : هو برىء من العباس إن شققت العصا وذهبت على وجهك ليدركنك بنفسه وليقاتلنك دون غيره ، ولو خضت البحر الخضم لخاضه خلفك حتى يدركك فيقتلك أو يموت قبل ذلك .

ومضى الرسول إلى أبى مسلم وناوله الكتب فقرأها والتفت إلى صديق له يقال له مالك بن الهيثم وقال له : ما الرأى ؟ قال : الرأى أن لا ترجع إليه فانك إن رجعت إليه قتلك ، وإن مضيت على طريقك حتى تصل إلى الرى وهم جندك فتقيم وتنظر فى أمرك ، فان حدث لك حادث كانت خراسان من ورائك ، فعزم أبو مسلم على

---

(١) الطبرى : ٧ / ٤٨٣ — ٨٤ ، ابن الأثير : ٥ / ٢٢٤ ، البداية . ١٠ / ٦٤ ، ٦٨ — ٦٩ .

ذلك ، وقال للرسول · قل لصاحبك إنه ليس من رأيي الحضور عندك وأنا متوجه إلى خراسان .

فقال له الرسول : يا أبا مسلم ، أنت ما زلت أمين آل محمد ، فأنشدك الله أن تسم نفسك بسمة العصيان والشقاق ، والرأي أن تحضر عند أمير المؤمنين وتعتذر إليه فلن ترى عنده إلا ماتحب ، فقال أبو مسلم: متى كنت تخاطبني بمثل هذا الخطاب ؟ فقال الرجل : سبحان الله ! أنت دعوتنا إلى ولاية هؤلاء القوم ونصرهم ، وقلت لنا من خالفهم فاقتلوه ، فلما دخلنا معك فيما ندبتنا إليه رجعت عنه وأنكرته علينا ! فقال أبو مسلم : هو ما قلت لك ولست أرجع ، فقال له : فليس عندك غير هذا ؟ قال : نعم . فخلا به وأبلغه ما قال المنصور ، فوجم وأطرق فترة ثم قال : أرجع وأعتذر إليه . وكان لهذه الرسالة الشفوية أثر سيء على نفس أبي مسلم جعلته يجبن ويخنع ويلين بعدما رأى من المنصور التصميم على التنكيل به إذا استمر على خلافه .

وعزم أبو مسلم على الرجوع ، وقبل رجوعه سلم عسكره إلى بعض أصحابه وقال له (كلمة السر) : إن جاءك كتابي وهو مختوم بنصف خاتمي فهو كتابي ، وإن كان مختوما بكل الخاتم فاعلم أنه ليس ختمي ، وأوصاه بما أراد .

ولم يكتف المنصور بما اتخذ من إجراءات ضد أبي مسلم ، بل قطع عليه خط الرجعة إلى خراسان وذلك بالتدبير المحكم الذي اتخذه ، فقد كتب إلى خليفة أبي مسلم على خراسان أبي داود ابراهيم

ابن خالد بالإمارة على خراسان ما عاش ولا شيء أكبر من ذلك يقطع صلته بأبي مسلم ، وكتب إليه أبو داود : إنا لم نخرج لمعصية خلفاء الله وأهل بيت نبيه (ص) ، فلا تخالفن إمامك ولاترجعن إلا باذنه(١). فزاده ذلك رعبا وكمدا . وأصبح أبو مسلم بين نارين : الخليفة من ورائه ، وخصمه الجديد داود فى خراسان أمامه . وأمام هذه التهديدات والأخطار التى تواجهه لم يجد بدا من أن يحول وجهه عن خراسان ويتوجه إلى العراق للقاء المنصور حيث يلاقى حتفه بعد قليل . ولم يصغ أبو مسلم لما أشار به صديقه «نيزك» من عدم الذهاب إلى المنصور وقال له نيزك : قد أجمعت على الرجوع ؟ قال : نعم ، وتمثل بقول الشاعر :

ماللرجل مع القضاء محالة ، ذهب القضاء بحيلة الأقوام

فقال : أما إذا اعتزمت على هذا فخار الله لك، واحفظ عنى واحدة إذا دخلت عليه فاقتله ثم بايع لمن شئت ، فان الناس لايخالفونك(٢). وكتب أبو مسلم إلى أبى جعفر يخبره أنه منصرف إليه .

ولما وصل كتاب أبى مسلم إلى المنصور قال : والله لئن ملأت عينى منه لأقتلنه . واجتهد المنصور أن يكون أبو مسلم آمنا لايحس بشيء من الجفاء ، ولما قارب أبو مسلم المدائن — حيث كان المنصور فى قصره — أمر الناس وبنى هاشم بتلقيه ، فلما دخل على المنصور

---

(١) الطبرى : ٤٧٦/٧ . انظر البداية والنهاية : ٦٥/١٠ .
(٢) العيون والحدائق : ٢٢٢/٣ .

قام إليه وعانقه وأظهر السرور برجوعه ، وقبل أبو مسلم يده فأمره بالجلوس وقال له : كدت تمضى قبل أن أراك وأفضى إليك بما أريد ؟ قال : فقد أتيت ياأمير المؤمنين فأمر بأمرك قال : قم فضع عنك ثيابك وانزل حتى تذهب عنك وعثاء السفر ، فخرج أبو مسلم إلى قصر قد أعدّ له ونزل أصحابه حوله ، وكان قد أقبل فى ألف فارس من أفاضل من كان معه من جنود خراسان والقواد . وبات أبو مسلم ليلته هذه منتظرا الصباح وما يدرى ما خبأه له القدر على يد المنصور . وكان الخليفة قد أعدّ كل شىء للفتك بأبى مسلم ، فقد أمر عثمان بن نهيك رئيس الشرطة باحضار أربعة رجال من الحرس ، وأن يكونوا خلف الرواق فاذا هو صفق خرجوا فقتلوا أبا مسلم .

ثم أرسل المنصور إلى أبى مسلم رسلا تترى يتبع بعضها بعضا ، فأقبل أبو مسلم فدخل على المنصور وهو يبتسم، فلما وقف بين يديه قال له : ما فعل السيفان اللذان أصبتهما من عبد الله بن على ؟ فقال : هذا أحدهما . فقال أرنيه ، فناوله السيف فوضعه تحت ركبته . وإنما فعل المنصور هذا ليأمن على نفسه أن يفتك به أبو مسلم إذا أحس بالشر . ثم صار يسأله عن أشياء أخذها عليه الخليفة وهى . ما حملك على أن تكتب لأبى عبد الله السفاح تنهاه عن الموات ، أردت أن تعلمنا الدين ؟ ! قال : إنى ظننت أن أخذه لا يحل ، فلما جاءنى كتاب أمير المؤمنين علمت أنه وأهل بيته معدن العلم . قال : فلم تقدمت علىّ فى طريق الحج ؟ قال : كرهت اجتماعنا على الماء فيضر

ذلك بالناس ، فتقدمت الناس الرفق . قال : فلم لارجعت إليّ حين أتاك خبر موت أبى العباس ؟ قال : كرهت التضييق على الناس فى طريق الحج ، وعرفت أنا سنجتمع بالكوفة وليس عليك منى خلاف قال : فجارية عبد الله بن عليّ أردت أن تتخذها لنفسك ؟ قال : لا ، ولكن خفت أن تضيع فحملتها فى قبة ووكلت بها من يحفظها . قال المنصور : ألست الكاتب إليّ تبدأ بنفسك ، والكاتب إليّ تخطب آمنة بنت على ؟ وتزعم أنك ابن سَليط بن عبد الله بن عباس ؟ لقد ارتقيت لا أم لك مرتقىً صعبا هذا كله ويد المنصور فى يده يعركها ويقبلها ويعتذر . ثم قال له : فما حملك على مراغمتى ودخولك إلى خراسان ؟ قال خفت أن يكون دخلك منى شىء، فأردت أن أدخل خراسان وأكتب إليك بعذرى فأذهب مافى نفسك، قال: فالمال الذى جمعته بخراسان ؟ قال : أنفقته بالجند تقوية لهم واستصلاحا قال : فلم قتلت سليمان بن كثير وكان من نقبائنا ودعاتنا قبلك ؟ قال : أراد خلافى . فقال : ويحك ! وأنت أردت خلافى وعصيتنى ، قتلنى الله إن لم أقتلك ، فقال أبو مسلم : يا أمير المؤمنين ، مثلى لايقال له هذا ولا تعدّد عليه مثل هذه الذنوب بعد ما فعلتُ ، فاغتاظ المنصور وقال : أنت فعلت ! والله لو كانت مكانك أمَةٌ سوداء لفعلتْ ما فعلتَ ، وهل نلتَ ما نلتَ إلا بنا وبدولتنا ؟ فقال أبو مسلم : دع هذا فقد أصبحت لا أخشى غير الله(١) فضرب المنصور بيده على الأخرى — وكانت الإشارة بينه وبين المرصدين لقتله —

---

(١) الطبرى : ٧ / ٤٩٠ ، ابن الاثير : ٥ / ٢٢٦، ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ١٢١ ، الفخرى ص ١٤٧ ، ابن كثير : ١٠/٧٠ ، العيون والحدائق : ٣/٢٢٣ .

فخرج أولئك النفر وخبطوه بالسيوف فصاح : استبقنى يا أمير المؤمنين لعدوك؟ فقال المنصور : وأى عدو لى أعدى منك ؟ ثم أمر به — بعد قتله — فلف فى بساط، ودخل عيسى فقال : أين أبو مسلم يا أمير المؤمنين ؟ فقال المنصور : هو ذاك فى البساط ، فقال : قتلته؟ قال نعم ، قال : « إنا لله وإنا إليه راجعون » بعد بلائه وفعله وأمانه ؟ وكان المنصور قد آمنه وكفل عيسى بن موسى على ذلك ، فقال له المنصور : خلع الله قلبك ، والله ليس لك عدو على وجه الأرض أعدى منه وهل كان لكم ملك فى حياته ؟ الحمد لله الذى هجمت على نعمة ولم تهجم على نقمة . فى ذلك يقول أبو دلامة(١) :

أبا مجرم ما غير الله نعمة	على عبده حتى يغيرها العبد
أبا مجرم خوفتنى القتل فانتحى	عليك بما خوفتنى الأسد الورد

ويقال إن المنصور لما قتله وقف عليه وقال : رحمك الله أبامسلم، بايعتنا فبايعناك ، وعاهدتنا وعاهدناك ، ووفيت لنا فوفينا لك ، وإنا بايعناك على أن لايخرج علينا أحد فى هذه الأيام إلا قتلناه ، فخرجت علينا فقتلناك ، وحكمنا عليك حكمك على نفسك لنا . ثم قال : الحمد لله الذى أرانا يومك ياعدو الله .

وقال (٢) :

زعمت أن الدَّين لا يقتضىَ	فاستوفِ بالكيل أبا مجرمِ
سُقيتَ كأسا كنتَ تسقى بها	أمرَّ فى الحلق من العَلقم

---

(١) ابن خلكان : ١/ ٣٥٥ — ٣٥٦ .

(٢) تاريخ اليعقوبى : ٣/١٠٧ ، الطبرى : ٧/٤٩١ ، مروج الذهب : ٣/٢١٩ ، ابن خلكان ص ٣٥٥ ، ابن كثير : ١٠/٨١ .

وكان أبو مسلم قد قتل فى دولته ستمائة ألف ممن يعرفون صبرا سوى من لا يعرف ومن قتل فى الحروب والهيجات. وسئل عبدالله بن المبارك عن أبى مسلم : أهو خير أم الحجاج ؟ فقال : لا أقول إن أبا مسلم كان خيراً من أحد ، ولكن كان الحجاج شراً منه(١) .

واضطرب أصحاب أبى مسلم بعد قتله ، فأمر أبو جعفر فهيئت ألف صرة ، فى كل صرة ثلاثة آلاف درهم ، ولما صاح الجند وسلوا السيوف أمر المنصور بتلك الصرر فقذفت إليهم مع رأس أبى مسلم . وكان قتله بالمدائن لخمس بقين من شعبان سنة ١٣٧ هـ ، وصعد عيسى بن على عم المنصور إلى أعلى القصر وقال . يا أهل خراسان ، إنما كان أبو مسلم عبداً من عبيد أمير المؤمنين وجَد عليه فقتله فليفرخ روعكم ، فان أمير المؤمنين بالغ آمالكم ، فتناولوا تلك الصرر كل واحد صرة ، وترك الرأس مقذوفا . وأرضى أبو جعفر أصحاب أبى مسلم بالعطاء ، كما وجه بالأموال إلى عسكر أبى مسلم حيث خلفه ، وأجزل صلات القواد والأشراف منهم فأرضاهم ذلك(٢)

وهكذا تخلص المنصور من أعظم شخصية فى دولته ، كانت تنازعه السلطان وتدل عليه بما أبلت من البلاء الحسن فى قيام الدولة واستقرارها . ويروى أنه قال بعد قتل أبى مسلم لجعفر بن حنظلة : ما تقول فى أبى مسلم ؟ فقال: يا أمير المؤمنين ، إن كنت أخذت شعرة من رأسه فاقتل ثم اقتل ، ثم أمره المنصور بالقيام والنظر إلى أبى مسلم مقتولا ، فقال : يا أمير المؤمنين ، عدّ هذا اليوم أول خلافتك(٣)

---

(١) ابن العبرى ص ١٢١ ، ابن كثير : ١٠/٧١ .
(٢) الدينورى : الاخبار الطوال ص ٣٦١ ــ ٣٦٢ .
(٣) الطبرى : ٧ / ٤٩٢ ، مروج الذهب : ٣ / ٣٠٩ .

ومع أن المنصور كان يتمتع بسلطة مطلقة إلا أنه كان يتظاهر بمحاولة إرضاء الرأى العام واحترامه، فقد خطب الناس بعد قتل أبى مسلم فقال . أيها الناس ، لا تنفروا أطيار النعم بترك الشكر فتحل بكم النقم ، ولا تسروا غش الأئمة فان أحداً لا يسر منكم شيئاً إلا ظهر فى فلتات لسانه وصفحات وجهه وطوالع نظره ، وإنا لن نجهل حقوقكم ماعرفتم حقنا ، ولا ننسى الإحسان إليكم ما ذكرتم فضلنا ، ومن نازعنا هـذا القميص أوطأنا أم رأسه ، حتى يستقيم رجالكم وترتدع عمالكم، وإن هذا الغمر أبا مسلم بايع : على أنه من نكث بيعتنا وأظهر غشنا فقد أباحنا دمه ، فنكث وغدر وفجر وكفر ، فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا و إن أبامسلم أحسن مبتديا وأساء منتهياً ، وأخـذ من الناس بنا لنفسه أكثر مما أعطانا ، ورجح باطنه على حسن ظاهره ، وعلمنا من خبث سريرته وفساد نيته مالو علـم اللائم لنا فيه لما لام ، ولو اطلع على ما اطلعنا عليه منه لعذرنا فى قتله وعنفنا فى إمهاله ، وما زال ينقض بيعته ويخفر ذمته حتى أحل لنا عقوبته وأباحنا دمه ، فحكمنا فيه حكمه فى غيره ممن شق العصا ، ولم يمنعنا الحق له من إمضاء الحق فيه(١) ، وما أحسن ما قال النابغة الذبيانى للنعمان بن المنذر :

فمن أطاعك فانفعه بطاعته ... كما أطاعك وادلله على الرشد
ومن عصاك فعاقبه معاقبة ... تنهى الظلوم ولا تقعد على ضمد

---

(١) البداية والنهاية : ٧١/١٠ ، انظر مروج الذهب : ٢١٩/٣ ، ابن الاثير : ٢٢٨/٥ .

فقد بين المنصور فى هذه الخطبة سبب قضائه على أبى مسلم ، وحذرهم من الخيانة ، ووعد المحسنين خيراً ، وأوعد المسيئين مصيراً كمصير أبى مسلم .

أما الأموال التى تركها أبو مسلم فان المنصور كتب إلى نائب أبى مسلم على أمواله وحواصله بكتاب على لسان أبى مسلم أن يقدم بجميع ما عنده من الحواصل والذخائر والأموال والجوهر ، وختم الكتاب بخاتم أبى مسلم . بكماله مطبوعاً بكل فص الخاتم ، فلما رآه الخازن استراب فى الأمر ، وقد كان أبو مسلم تقدم إلى صاحب خزائنه أنه إذا جاءك كتابى فان رأيته مختوما بنصف الفص فامض لما فيه ، فانى إنما أختم بنصف فصه على كتبى ، وإذا جاءك الكتاب مختوماً عليه بكماله فلا تقبل ولا تمض ما فيه . فامتنع عند ذلك خازنه أن يقبل ما بعث به المنصور ، فأرسل المنصور إليه من أخذ جميع ذلك وقتل الخازن(١) : وكتب إلى أبى داود إبراهيم بن خالد بامرة خراسان — كما وعده قبل ذلك — عوضاً عن أبى مسلم .

صدى مقتل أبى مسلم :

قامت ثورة فى فارس تزعمها « سنباذ » بن مرار العجلى المجوسى

للمطالبة بدم أبى مسلم ، واستطاع الثوار أن يستولوا على نيسابور وقومس والرىّ ، ولما وصل الرى أخذ خزائن أبى مسلم ، وسبى الحُرم ونهب الأموال ، ولم يعرض للتجار ، وكان عازما على أن يقصد الكعبة ويهدمها ، وما أن علم المنصور بهذه الثورة حتى سارع باخمادها ، فأرسل جيشاً كثيفاً بقيادة جهور بن مرار العجلى ، والتقى الجيشان بالمفازة بين همذان والرّى ، فهزم جيش سنباذ وقتل منه عدد كثير سوى من سبى من الذرارى والنساء ، ثم قتل سنباذ بعد ذلك بين طبرستان وقومس ، واسترد جهور الأموال التى استحوذ عليها من أموال أبى مسلم بالرىّ .

وقامت ثورة بالجزيرة بقيادة « ملبَّد بن حرملة الشيبانى » فى ألف من الخوارج ، وكانت ثورة عاتية أرسل إليها المنصور جيوشاً متعددة كانت تنفر وتنكسر ، ثم قاتله حميد بن قحطبة نائب الجزيرة فهزمه ملبّد ، وأخيراً اضطر حميد لمصالحته على مائة ألف فقبلها وانصرف .

ثورة الراوندية : لم يكد المنصور ينتهى من جند أبى مسلم الخراسانى حتى فوجىء بتعاليم جديدة يدعو إليها أهل فارس الذين كانوا قبل الفتح الإسلامى يقدسون ملوكهم ، وهؤلاء هم الراوندية . وهى فرقة ظهرت بتأثير الدعوة العباسية ، وكانت تعتقد بالحـــلول والتناسخ ، وزعم بعضهم أن الروح التى كانت فى عيسى بن مريم صارت فى على بن أبى طالب ثم فى الأئمة واحداً بعد واحد إلى ابراهيم بن محمد (سبط العباس عم النبى) وأنهم آلهة .

ثم انقسمت الراوندية إلى فرق متعددة(١) يهمنا منها الفرقة التي اعتقدت في أبي جعفر وبعده المهدى ، الإمامَ القادر القدير وهو الإله وأن أبا مسلم نبيه ورسوله . وقد تحركت هذه الطائفة ضد المنصور سنة ١٤١ هـ ، ويقول الطبري عن أتباعها إنهم : « كانوا من أهل خراسان على رأى أبي مسلم صاحب دعوة بني هاشم يقولون — فيما زعم — بتناسخ الأرواح ، ويزعمون أن روح آدم في عثمان بن نَهيك وأن ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم هو أبو جعفر المنصور ، وأن الهيثم ابن معاوية جبرائيل ، وأتوا قصر المنصور (بالهاشمية) ، فجعلوا يطوفون به ، ويقولون هذا قصر ربنا ، فأرسل المنصور إلى رؤسائهم فحبس منهم مائتين ، فغضب أصحابهم ، وقالوا : علام حبسوا ؟ ..... ودخلوا السجن فأخرجوا أصحابهم ، وقصدوا نحو المنصور وهم يومئذ ستمائة رجل »(٢) . ثم قصدوا المنصور فخرج إليهم ماشياً ،

---

(١) ترجع هذه الفرق إلى فرعين رئيسيين :

١ — جماعة اعتقدت بانتقال الامامة من أبي هاشم بن محمد بن الحنفية إلى محمد بن على بالوصاية ، وهم يدعون روائدية نسبة الى قرية « راوند » قرب أصبهان ثم انقسموا بعد وفاة أبي العباس السفاح إلى ثلاث فرق : فرقة اعتقدت بامامة أبي جعفر وبعده المهدى ، وفرقة أنشأها عبد الله الراوندى ، وتعتبر أبا جعفر إلها وأن أبا مسلم نبيه ورسوله . وبعد وفاة المنصور اعتقدوا بامامة المهدى ، وهؤلاء هم الذين ثاروا على أبي جعفر ، وفرقة نقلت الامامة من أبي العباس الى أبي مسلم ، وهؤلاء فريقان . فرق المسلمية الذين يعتقدون بأن أبا مسلم لم يمت وأنه حى على قول بعضهم ، بينما يقول البعض الآخر بأن جزءاً إلهيا حل فيه وأنه فوق الملائكة ، وفريق يسمون الرزامية نسبة إلى زعيمهم رزام ، وينسبون لأبي مسلم الخوارق والمعجزات ، ويعتقدون بموته .

٢ — جماعة تعتقد بأن الرسول أوصى لعمه العباس ثم ورثها عنه أولاده ، وهى أحدث من الجماعة الأولى وتسمى العباسية ، وقد يكون لادعاء أبي مسلم بأنه من نسل سليط بن عبد الله بن العباس أثر في نقل الرياسة الدينية إليه (راجع العصر العباسى الأول للدكتور عبد العزيز الدورى ص ٨٨ ، تاريخ الاسلام السياسى للدكتور حسن إبراهيم : ١ / ٩٤) .

(٢) الطبرى : ٧ / ٥٠٥ وما بعدها ، ابن الأثير : ٥ / ٢٣٨ وما بعدها .

فتكاثروا عليه وكادوا يقتلونه ، لولا أن أغاثه معن بن زائدة أحد قواد الأمويين، الذين حاربوا العباسيين تحت إمرة ابن هبيرة والي العراق في عهد الأمويين وقد ظهر معن ، وقاتل دون الخليفة المنصور فظفر بالراوندية وكوفىء بولاية اليمن، بعد أن كان مختفيا بعد موقعة واسط إلى تلك اللحظة ، كما أبلى في الدفاع عن الخليفة أبو نصر مالك بن الهيثم نائب أبي مسلم على خزائن المال .

وكان نظر المنصور إلى الراوندية كأنهم أعداء سياسيون لدولته لأنهم من أتباع أبي مسلم الذين يعملون على تحويل الخلافة إلى ملك كسروى ، وبعبارة أخرى إلى القضاء على الدولة الإسلامية العربية ، وإعادة مجد الفرس القديم ، كما كان يعتبرهم زنادقة يريدون أن تعود المجوسية في أية صورة من صورها ، ومن جهة أخرى فان المنصور لم يكن يستطيع أن يوافقهم على مقالتهم التي فيها خروج على الدين والدولة ، وهو الممثل لهما ، ولأن ذلك من شأنه أن يثير العرب عامة والمسلمين خاصة لهذا قتلهم شر قتلة ، وإن كان لم يقض عليهم نهائياً وظهروا بعد ذلك في صور مختلفة نجدها في ثورات المقنع الخراساني وبابك الخرمي وغيرهما .

وقد نبهت ثورة الراوندية المنصور بعد هجومهم عليه إلى إنشاء نظام « فرس النوبة » ، وذلك باعداد فرس أصيلة مسرجة ملجمة تكون أمام القصر دائماً لكي تكون معدة لركوبها عند الضرورة(١) وقد عدّ المنصور خروجه إلى الثوار بنفسه أحد أخطاء ثلاثة ارتكبها ولكن الله وقاه شرها(٢).

---

(١) الطبرى : ٧/٥٠٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ٥٠٧ .

ثورة العلويين : كانت الثورة العلوية أهم الأخطار الحساسة التي واجهت المنصور فقد هددت عرش العباسيين بالانهيار ، وقد أحس المنصور بهذا الخطر في وقت مبكر منذ كان ولياً للعهد وحج بالناس سنة ١٣٦ هـ حيث لم يحضره محمد ولا أخوه إبراهيم ابنا عبدالله بن الحسن مع من شهده من سائر بني هاشم، وقبل الكلام عن محمد ابن عبد الله وأخيه إبراهيم في عهد المنصور نذكر كلمة عن حالة الشيعة بعد موقعة كربلاء المشئومة .

لم ينس العلويون حقهم في الخلافة . بعد استشهاد أبي الشهداء الحسين رضي الله عنه ، بل كانوا يترقبون الفرص لنيل حقهم ، فاذا أنسوا من أنفسهم القوة واستعمال السيف قاموا وأعلنوا حقهم ، وإذا وجدوا من أنفسهم ضعفاً سكنوا واستكانوا وآثروا المعيشة الهادئة والاشتغال بالتجارة والانصراف إلى الدين على الاشتغال بالسياسة ، وكانت آخر الثورات التي قام بها الشيعة هي ثورة جماعة التوابين ، وثورة المختار الثقفي ، أما الأولى فقضى عليها عبيد الله بن زياد في موقعة « عين الوردة » سنة ٦٥ هـ ، وأما الأخرى فقضى عليها مصعب ابن الزبير في موقعة « المذار » سنة ٦٧ هـ [١]) . ولم يحرك الشيعة ساكناً إلا في أواخر الدولة الأموية حين قام زيد بن علي زين العابدين

---

(١) راجع كتاب « دراسات في تاريخ الأمويين جـ ٢/١٠٤ وما بعدها » .

وابنه يحيى فى عهد هشام بن عبد الملك ، وكان مصير زيد القتل فى موقعة « الكناسة » بالعراق على يد الحكم بن الصلت ويوسف بن عمر الثقفى سنة ١٢٢ هـ . وأما يحيى فانه لم يزل مختفياً بخراسان حتى مات هشام بن عبد الملك وخلفه الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، فكتب نصر بن سيار إلى يوسف بن عمر وإلى الوليد بخبر يحيى فأمره الوليد باخراجه من الحبس وإرساله إليه بدمشق فلما كان ببعض الطريق قتله نصر غيلة وغدراً مع جميع أصحابه وذلك سنة ١٢٥ هـ .

ولما قام العباسيون بالدعوة كانت الدعوة مبهمة، لأنها كانت إلى الرضا من آل بيت النبى علويا كان أم عباسيا ، فلما ظهرت الدولة العباسية على أيدى الدعاة وظفر العباسيون بالخلافة لم يرق ذلك فى نظر العلويين وعدوهم غاصبين للأمر ، كما عدوا بنى أمية من قبلهم ، وأدركوا أن العباسيين قد خدعوهم واستأثروا بالخلافة دونهم، على الرغم من كونهم يداً واحدة واشتراكهم فى العمل ضد بنى أمية لاسقاط دولتهم ، ثم هم قبل ذلك جميعاً من أولاد هاشم ، ويمتازون عنهم بأحقيتهم للخلافة . لهذا نابذوهم العداء، ونظروا إليهم كما كانوا ينظرون إلى الأمويين من قبل وظل العلويون يناضلون فى سبيل الخلافة ويبثون الدعاة سرا واستمروا كذلك حتى كان عهد المنصور الذى تفجرت فيه ثورتهم .

ومما شجع على التفاف الناس حول العلويين ما أذاعوه بينهم من أن الهاشميين علويهم وعباسيهم اجتمعوا سراً حينما آل ملك بنى أمية إلى الاضطراب واتفقوا على مبايعة النفس الزكية محمد بن عبدالله بن الحسن ، وحضر المجلس من أعيان الطالبيين الصادق جعفر بن محمد الباقر ،

وعبد الله المحض بن الحسن ، وابناه محمد النفس الزكية وإبراهيم قتيل « باخمرى » وجماعة من الطالبيين، ومن أعيان العباسيين، السفاح والمنصور وغيرهما من آل العباس ، فاتفق الجميع على مبايعة النفس الزكية إلا الإمام جعفر بن محمد الصادق ، فانه قال لأبى محمد عبد الله إن ابنك لا ينالها (يعنى الخلافة) ولن ينالها إلا صاحب القباء الأصفر (يعنى المنصور) ثم اتفقوا على مبايعة النفس الزكية فبايعوه ، ثم ضرب الدهر ضربته وانتقل الملك إلى بنى العباس .

وأهم العلويين حينئذاك : الإمام جعفر الصادق الذى تنتسب إليه فرقة الإمامية الإثنى عشرية من الشيعة، و عبدالله بن الحسن ، وابناه : محمد (الملقب بالمهدى و بالنفس الزكية لزهده وورعه) وإبراهيم .

أما جعفر الصادق فقد رضى بما تم تسليما بالواقع ولم يحرك ساكنا وكان يوصى أصحابه بالهدوء والسكينة لأنه لم ير أمامه فرصة مناسبة للخروج على العباسيين .

أما محمد بن عبد الله ، وأخوه إبراهيم فقــــد امتنعا عن مبايعة السفاح والمنصور للسبب الذى أشرنا إليه سابقاً . وعند ذلك لم يكن للمنصور همّة سوى طلب النفس الزكية وأخيه إبراهيم لأنه رأى فى وجودهما خطراً يهدد دولته ، وأخذ يعمل على التخلص منهما ، كما تخلص من منافسيه عبدالله بن على وأبى مسلم الخراسانى من قبل . وقد بعث المنصور فى طلب بنى هاشم وسألهم عن مكان محمد ، فهوّن البعض الأمر عليه وقال له : يا أمير المؤمنين ! قد علم أنك قد عرفته بطلب هذا الشأن قبل اليوم ، فهو يخافك على نفسه وهو لا يريد لك

خلافا ولا يحب لك معصية ، وقال البعض الآخر ومنهم حسن بن زيدبن حسن بن علي : والله ما آمن وثوبه عليك ، فانه للذي لا ينام عنك ، فر رأيك(١) . فأيقظ بقوله هـذا من لا ينام . وأما عامل المدينة زياد بن عبيد الله الحارثي فقال للمنصور : ما يهمك من أمرهما أنا آتيك بهما ، فضمنه إياهما وأبقاه عاملا على المدينة . ولما لم ير المنصور من ابن زياد صدقاً في القول من إحضار محمد وأخيه إبراهيم عزله عن إمرة المدينة وولى بدله محمد بن خالد القسري ، وبسط يده في النفقة في طلبهما فأنفق كثيراً من المال وبحث كثيراً في المدينة وخارجها فلم يصل إلى نتيجة فعزله المنصور .

ولجأ المنصور إلى عبدالله بن الحسن والد محمد وابراهيم وسأله عنهما فأنكر أن يكون له علم بمكانهما وحلف بالله على ذلك ولا يدري أين صارا من أرض الله ، ثم ألحّ المنصور على عبدالله في طلب ولديه فغضب عبدالله من ذلك وقال : والله لو كانا تحت قدميّ لما رفعتهما عنهما ، سبحان الله آتيك بولديّ لتقتلهما !؟ فقبض عليه وعلى أهله من بني الحسن وصادر أموالهم ، وجدّ في طلب محمد وابراهيم جدا ، هذا وهما يحضران الحج في غالب السنين ، ويكنان في المدينة في غالب الأوقات ولا يشعر بهما أحد ، والمنصور يعزل نائبا عن المدينة ويولي عليها غيره ويحرضه على إمساكهما والفحص عنهما وتعجزه المقادير عنهما .

وعين المنصور على المدينة رياح بن عثمان بن حيّان المري ، وذلك لسبع بقين من شهر رمضان سنة ١٤٤ هـ ، وأمره بالجد في طلب محمد

(١) الطبري : ٥١٨/٧ ، الأصفهاني : مقاتل الطالبيين ص ٢١٠ .

وابراهيم وأخذ بنى الحسن بالشدة . وقدم رياح المدينة وصعد المنبر وخطب الناس خطبة لا تختلف فى مضمونها عن تلك الخطب التى كان يخطبها ابن زياد والحجاج بالعراق .

وهذه فقرات منها : يا أهل المدينة ! أنا الأفعى ابن الأفعى ، ابن عثمان بن حيان ، وابن عم مسلم بن عقبة المبيد خضراءكم ، المفنى رجالكم ، والله لأدعنها بلقعا لا ينبح فيها كلب . ولما انتهى الأفعى من خطابه غضب الحاضرون وقالوا له: يا ابن المجلود فى حدّين لتكفنّ أو لنكفنك عن أنفسنا . وكتب رياح إلى المنصور بحالة أهل المدينة وعصيانهم ، فأرسل المنصور كتابا إلى أهلها يقول فيه : يا أهل المدينة ! إن واليكم كتب إلىّ يذكر غشكم وخلافكم وسوء رأيكم واستمالتكم على بيعة أمير المؤمنين ، وأمير المؤمنين يقسم بالله لئن لم تنزعوا ليبدّلنكم بعد أمنكم خوفا ، وليقطعن البرّ والبحر عنكم وليبعثن عليكم رجالا غلاظ الأكباد بعادَ الأرحام يثوون فى قعر بيوتكم يفعلون ما يؤمرون(١) .

ولما قرأ الكتاب صاح الحاضرون من كل جانب ورموه بالحصى ، فبادر إلى المقصورة وأغلقها فدخل دار مروان . وقال بعضهم لرسول المنصور أبلغه أن قولك إنك تبدل المدينة وأهلها بالأمن خوفا ، فان الله عز وجلّ وعدنا غير هذا إذ يقول . « وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً » . فنحن نعبده لا نشرك به شيئاً .

---

(١) تاريخ اليعقوبى : ٣/١١٤ — ١١٥ .

وعلى الرغم من معارضة أهل المدينة لسياسة المنصور وتأييدهم لبنى الحسن فان رياحا لم يتراجع عن تنفيذ السياسة المرسومة ، لذلك نراه يأتى عبدالله بن حسن فى محبسه مهدداً متوعداً إذا لم يدله على ابنيه محمد وابراهيم ، كما أمر بحبس بنى الحسن كلهم وكانوا نحو ثلاثة عشر رجلا وحبسهم بالمدينة .

ولما علم محمد النفس الزكية — وكان مستخفيا بالمدينة — بما حل بأبيه وأخوته وذوى قرباه أتى أمه هند بنت أبى عبيدة من ذرية زمعة بن الأسود وقال لها . إنى قد حملت أبى وعمومتى مالا طاقة لهم به ولقد هممت أن أضع يدى فى أيديهم فعسى أن يخلى عنهم. فذهبت هند إلى السجن متنكرة كهيئة الرسول فأذن لها ، فلما رآها زوجها عبدالله نهض إليها فأخبرته مقالة محمد ، فقال لها : كلا بل نصبر ، فوالله إنى لأرجو أن يفتح الله به خيراً ، قولى له : فليدع إلى أمره وليجدّ فيه ، فان فرجنا بيد الله. فانصرفت(١) . وأصر محمد على أمره .

ولم يزل بنو حسن محبوسين بالمدينة حتى حج أبوجعفر سنة ١٤٤هـ فتلقاه رياح أمير المدينة بالربذة(٢) فأمره المنصور بالعودة إلى المدينة وإشخاص العلويين ، فلما مثلوا بين يديه سألهم عن مقام محمد ابن عبد الله ، فلم يظفر منهم بشىء ، فأخذ يعنفهم وينكل ببعضهم ، ثم بعث بهم إلى الكوفة مقيدين بالسلاسل مصفدين بالأغلال وسير بهم على شر ما يكون حتى أتى بهم العراق فحبسوا بقصر ابن هبيرة شرق الكوفة مما يلى بغداد على نهر الفرات ، وحدث أن مرّ بهم المنصور :

---

(١) الطبرى : ٧/٥٣٨ ، ابن كثير : ١٠/٨١ .

(٢) الربذة : على ثلاثة أميال من المدينة قريبة من ذات عرق ، وبها قبر أبى ذر (مراصد : ٢ / ٦٠١) .

وبعث أهل خراسان يشفعون فى محمد بن عبدالله من أحفاد عثمان ابن عفان — وهو أخو عبد الله بن حسن لأمهم فاطمة بنت الحسين رضى الله عنه ، وكان ابراهيم بن عبد الله متزوجا بابنته رقية(١) — فأمر به فضربت عنقه ، وأرسل برأسه إلى أهل خراسان .

ولما أخذ المنصور عبدالله بن الحسن وأهل بيته بهذه الشدة صعد المنبر بالهاشمية فقال بعد حمداً لله والصلاة على النبي : يا أهل خراسان أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دعوتنا ، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا خيرا منا ، إن ولد ابن أبى طالب تركناهم والخلافة فلم نعرض لا بقليل ولا بكثير فقام فيها على بن أبى طالب فما أفلح وحكم الحكمين ، فاختلفت عليه الأمة وافترقت الكلمة ، ثم وثب عليه شيعته وأنصاره وثقاته فقتلوه ، ثم قام بعده الحسن فوالله ما كان برجـل ، عرضت عليه الأموال فقبلها ، ودسّ إليه معاوية إنى أجعلك ولىّ عهدى فخلعه وانسلخ له مما كان فيه وسلمه إليه ، وأقبل على النساء يتزوج اليـوم واحدة ويطلق غداً أخرى ، فلم يزل كذلك حتى مات على فراشه ، ثم قام من بعده الحسين فخدعه أهل العراق وأهل الكوفة أهل الشقاق والنفاق والإغراق فى الفتن إلى هذه المدرة السوء — وأشار إلى الكوفة

---

(١) أحضر المنصور محمد العثمانى وكانت ابنته زوجة إبراهيم بن عبد الله قد حملت قريبا فقال له : قد حلفت بالطلاق والعتاق إنك لم تغشنى وهذه ابنتك حامل ، فإن كان من زوجها فقد حبلت منه وأنت تعلم به ، وإن كان من غيره فأنت ديوث فأجابه العثمانى بجواب أحنقه به .

ـــ فوالله ما هى بحرب فأحاربها ، ولا هى بسلم فأسالمها ، فرّق الله بينى وبينها ، فخذلوه وأبرءوا أنفسهم منه ، فأسلموه حتى قتل ، ثم قام بعده زيد بن على فخدعه أهل الكوفة وغروه ، فلما أظهروه وأخرجوه أسلموه ، وقد كان أبى محمد بن على ناشده الله فى الخروج ، وقال له : لاتقبل أقاويل أهل الكوفة فانا نجد فى علمنا أن بعض أهل بيتنا يصلب بالكُناسة ، وأخشى أن تكون ذلك المصلوب ، وناشده الله بذلك عمى داود وتحذره فلم يقبل ، وتمّ على خروجه فقتل وصلب بالكناسة ، ثم وثب بنو أمية علينا ، فأماتوا شرفنا ، وأذهبوا عزّنا ، والله ما كان لهم عندنا ترة يطلبونها ، وما كان ذلك كله إلا فيهم وبسبب خروجهم ، فنفونا عن البلاد ... حتى بعثكم الله لنا شيعة وأنصارا ، فأحيا الله شرفنا وعزّنا بكم ، وأظهر لنا حقنا ، وأصار إلينا ميراثنا من نبينا (ص) ، فقرّ الحق فى قراره وأظهر الله مناره ، وأعز أنصاره ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا .. فلما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل الله وحكمه العدل وثبوا علينا حسداً منهم وبغيا ، بما فضلنا الله به عليهم ، وجبناً من بنى أمية وجراءة علينا ، إنى والله يا أهل خراسان ما أتيت من هذا الأمر من جهالة ، ولقد كنت يبلغنى عنهم بعض السقم ، ولقد كنت سميت لهم رجالا فقلت : قم أنت يا فلان فخذ معك من المال كذا وكذا ... وحذوت لهم مثالا يعملون عليه ، فخرجوا حتى أتوا المدينة فدسّوا ذلك المال ، فوالله ما بقى منهم شيخ ولا شاب ولا صغير ولا كبير إلا بايعهم لى ، فاستحللت به دماءهم وحكمت عند ذلك بنقضهم بيعتى وطلبهم الفتنة والتماسهم الخروج علىّ[1] . ثم قرأ

---

(١) مروج الذهب : ٣ / ٢٢٦ – ٢٢٧ .

قوله تعالى . « وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل إنهم كانوا فى شك مريب » .

وهذا الخطاب يصور لنا نظرة المنصور إلى الخراسانيين واهتمامه باقناعهم بحقه ليؤيدوه تأييدا كلياً . وهكذا بدأت حرب الدعاية قبل حرب السلاح .

ظهور محمد ومقتله :

وفى سنة ١٤٥ هـ = ٧٦٢ م اضطر محمد إلى الظهور بعد اختفائه هذه المدة الطويلة وبعد ما لاقاه أبوه وأقاربه ، وبعد ما دخل عليه جماعة من أتباعه وقد اشتد بهم البلاء وقالوا له . ما تنتظر بالخروج ؟ ما تجد فى هذه الأمة أحداً أشأم عليها منك ، ما الذى يمنعك من أن تخرج وحدك؟ وكان ذلك لليلتين بقيتا من شهر جمادى الآخرة من سنة ١٤٥ هـ . وظن محمد أن الناس أجمعوا على نصرته لما يعتقدونه فيه من الفضل والشرف والعلم وتحليه بالصفات الحميدة والخصال الكريمة، وساعده على ذلك إفتاء الإمام مالك بنقض بيعة المنصور ، وقال لأهل المدينة : « إنما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين » .وهذه الكتب التى كانت تأتيه من الولايات الإسلامية بتأييد الناس له وانتظار خروجه ، وقد أشار إلى هذه الكتب فى خطابه لأهل المدينة الذى سنعرض له بعد ، ولم يكن يدرى أن هذه الكتب حيلة دبرها المنصور على ألسنة القواد وغيرهم يدعونه إلى الظهور ويعلمونه بأنهم معه ، فكان يقول : لو التقينا مال إلىّ القواد كلهم(١) .

(١) الطبرى : ٧ / ٥٥٩ .

وقد كان الاتفاق بينه وبين أخيه إبراهيم أن يظهرا فى وقت واحد فيقوم محمد بالمدينة ، ويظهر إبراهيم بالبصرة حتى يهول أمرهما أبا جعفر ، ولكن شدة رياح بن عثمان عامل المدينة حالت دون ذلك ، فاضطر محمد إلى الثورة وقبل وقتها المعين ، وصادف أن كان إبراهيم مريضاً فلم يخرج فى هذا اليوم ، أو أن محمدا سبق الميعاد ، والنتيجة أنهما لم يخرجا معا ، وتمكن المنصور من توجيه حملاته عليهما بالتوالى ، ونجا من محاربتهما فى ميدانين فى زمن واحد . فلما اشتد به الأمر وضاق الحال واعد أصحابه على الظهور .

وكنتيجة لتلك الظروف المحيطة بمحمد فقد صمم العزم على الظهور بالمدينة ، وتحدث أهلها بذلك وفوجىء الناس فى جوف الليل بأصحاب محمد وقد ارتفعت أصواتهم بالتكبير ، وأشار البعض على رياح أمير المدينة أن يضرب أعناق بنى حسين ابناء عم بنى الحسن حتى لا يساعدوهم ، فقال أحدهم : علام ونحن مقرون بالطاعة ، واشتغل الأمير عنهم بما فجأه من الأمر . وأقبل محمد النفس الزكية فى مائتين وخمسين ، فمر بالسجن فأخرج من كان فيه ، وجاء دار الإمارة فحاصرها فافتتحها ، وقبض على الأمير رياح بن عثمان فسجنه فى دار مروان وسجن معه ابن مسلم بن عقبة - الذى أشار بقتل بنى حسين - وأصبح محمد وقد استظهر على المدينة ودان له أهلها ، فصلى بالناس الصبح وقرأ فيها سورة . « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » وخطب محمد أهل المدينة فى هذا اليوم(١) فقال : أما بعد ، فانه كان من أمر هذا الطاغية

---

(١) كان خروج محمد لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة فى رواية للطبرى : ٧ / ٥٥٧ ، والأصفهانى فى مقاتل الطالبيين ص ٢٦٣ ، التنبيه والاشراف المسعودى ص ٢٩٥ ، وابن الأثير : ٥ / ٢٥٠ . والعيون والحدائق فى رواية : ٣/٢٣٩ وعند ابن خياط : ٢ / ٤٤٩ فى رجب . وكذا اليعقوبى : ٣/١١٥ ، الطبرى فى رواية : ٧/٥٥٦ ، ابن كثير : ١٠ / ٧٣ .

أبا جعفر مالم يخف عليكم ، من بنائه القبة الخضراء التى بناها معانداً لله فى ملكه وتصغيراً للكعبة الحرام ، وإنما أخذ الله فرعون حين قال: « أنا ربكم الأعلى » . وإن أحق الناس بالقيام بهـذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والأنصار المواسين . اللهم إنهم قد أحلوا حرامك وحرّموا حـلالك ، وآمنوا من أخفت وأخافوا من آمنت ، اللهم فأحصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ، ولاتغادر منهم أحداً . إنى والله ما خرجت من بين أظهركم وأنتم عندى أهل قوة ولا شـدة ولكنى اخترتكم لنفسى ، والله ما جئت هذه وفى الأرض مصر يعبد الله فيه إلا وقد أخذ لى البيعة(١) .

وعلى أثر هذه الخطبة اجتمع معه خلق عظيم وأتته كتب أهل البلدان ووفودهم(٢) : ومن أنصاره : ولد على ، وولد جعفر ، وولد عَقيل ، وولد عمر بن الخطاب ، وولد الزبير بن العوام ، وسائر قريش ، وأولاد الأنصار(٣) .

ومنذ خرج النفس الزكية بالمدينـة وفعل ما فعل ، توجّه من المدينة رجل يقال له أوس العامرى إلى المنصور فى تسعة أيام وقدم ليلا ، فوقف على أبواب المـدينة التى بناها المنصور ، فصاح حتى علموا به فأدخلوه ، فقال الربيع الحاجب : ما حاجتك فى هذه الساعة وأمير المؤمنين نائم ؟ قال : لابد لى منه ، فدخل الربيع وأخبر المنصور خبره وأدخله إليه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، خرج محمد بن عبد الله

---

(١) الطبرى : ٧ / ٥٥٨ ، ابن الاثير : ٥ / ٢٠١ ، انظر ابن كثير : ١٠ / ٨٣ ، والعيون والحدائق : ٣ ٢٣٨ .
(٢) تاريخ اليعقوبى : ٣ / ١١٥ .
(٣) مروج الذهب : ٣ / ٢٢١ .

بالمدينة و فعل وصنع ، قال أنت رأيته ؟ قال نعم وعاينته على منبر رسول الله ﷺ وخاطبته ، فأدخله المنصور بيتا ، ثم تواترت الأخبار عليه بذلك فأخرجه . وقال له : فى كم ليلة وصلت من المدينة ؟ قال فى تسع ليال ، فأعطاه تسعة آلاف درهم(١) ، ثم قام المنصور وقعد وتراخت المدة حتى تكاتبا وتراسلا ، فكتب كل واحد منهما إلى صاحبه كتابا نادراً معدودا من محاسن الكتب ، احتج فيه وذهب فى الاحتجاج كل مذهب . وكان البادىء بالكتابة المنصور لكى يعذر إليه ويحمله المسئولية أمام المسلمين ، ولكسب الوقت من جهة أخرى .

ولم يضيع المنصور الوقت بل إنه أخذ يستشير المختصين فى الخطة التى يسلكها إزاء محمد ، ومن هؤلاء أبو مسلم العقيلى ، فأشار عليه بشحن البصرة بالرجال ، حتى لا يفر إليها من المدينة التى ليس بها زرع ولا ضرع ولا تجارة واسعة ، ولا تحتمل الجيوش(٢) كما قال له عن محمد : الرأى أن ترميه بمثله ، إذا قال أنا ابن رسول الله ﷺ قال هذا وأنا ابن عم رسول الله كما استشار عمه عبد الله بن على وهو محبوس عنده فى السجن فقال : إن المحبوس محبوس الرأى ، فأخرجنى حتى يخرج رأيى ، فأرسل إليه أبو جعفر : لو جاءنى حتى يضرب بابى ما أخرجتك ، وأنا خير لك منه وهو ملك أهل بيتك . فأرسل إليه عبد الله : ارتحل الساعة حتى تأتى الكوفة ، فاجثم على أكبادهم ، فإنهم شيعة أهل هذا البيت وأنصارهم ، ثم احففها بالمسالح ، فمن خرج منها إلى وجه من الوجوه أو أتاها من وجه من الوجوه فاضرب عنقه ،

(١) الطبرى : ٧ / ٥٦٤ ، ابن الأثير : ٥ / ٢٥٢ الفخرى ص ١٤٣ .
(٢) مروج الذهب ٣ / ٢٢١ – ٢٢٢ .

وابعث إلى سَلمْ بن قتيبة ينحدر عليك — وكان بالرىّ — واكتب إلى أهل الشام فمرهم أن يحملوا إليك من أهل البأس والنجدة ما يحمل البريد، فأحسِن جوائزهم، ووجههم مع سَلمْ. ففعل(١) وأشار على أعمامه — وقد دسّهم المنصور إليه من غير أن يعلموه بأنه أرسلهم — : مروه فليخرج الأموال، فليعط الأجناد، فان غلب فما أوشك أن يعود إليه ماله، وإن غُلب لم يقدم صاحبهُ على درهم واحد، كما استشار جعفر بن حنظلة البهَرانىّ، فقال للمنصور: أحمد الله، ظهر حيث لا مال ولا رجال ولا سلاح ولا كُراع، ابعث مولى لك تثق به حتى ينزل بوادى القرى، فيمنعه ميرة الشام فيموت مكانه جوعاً(٢).

واستقر رأى المنصور على انتداب ولى عهده عيسى بن موسى لحرب محمد النفس الزكية، فان قتل عيسى حول الخلافة لابنه المهدى، وإن انتصر أنقذه من خطر محقق: وروى الطبرى أن المنصور قال — بعد أن سار عيسى لحرب محمد — : « لا أبالى أيهما قتل صاحبه » (٣). ولما أمره المنصور بالشخوص إلى محمد وقال له عيسى شاور عمومتك، قال المنصور: إمض أيها الرجل، فو الله ما يراد غيرى وغيرك، وما هو إلا أن تشخص أو أشخص. فسار حتى قدم المدينة(٤).

---

(١) الطبرى: ٧/٥٦٥، ابن الأثير: ٥/٢٤٢ — ٢٥٤.
(٢) الطبرى ٧/٥٧٧ — ٧٨، ومقاتل الطالبيين ص٢٦٦.
(٣) المصدر السابق ٥٧٧.
(٤) المصدر السابق

المكاتبات بين المنصور ومحمد :

ورغبة من المنصور فى الحل السلمى ، فقد رأى اللجوء إلى سياسة اللين والمسالمة بدلا من سياسة الحرب والعداء التى كانت عاقبتها غير مأمونة . وبناءً على ذلك فقد كتب إلى محمد كتابا جاء فيه : « .. ولك عهدُ الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله (ﷺ) ، إن تبتَ ورجعتَ من قبل أن أقدرَ عليك أن أؤمنك وجميع ولدك وإخوتك وأهل بيتك ومَن اتبعكم على دمائكم وأموالكم ، وأسوّغك ما أصبت من دم أو مال ، وأعطيك ألف ألف درهم ، وما سألت من الحوائج ، وأنزلك من البلاد حيث شئت ، وأن أطلق ما فى حبسى من أهل بيتك ، وأن أؤمّنَ كل من جاءك ، وبايعك واتبعك ؟ أو دخل معك فى شىء من أمرك ، ثم لا أتبع أحداً منهم بشىء كان منه أبداً. فان أردت أن تتوثقَ لنفسك ، فوجّه إلىّ من أحببتَ يأخذ لك من الأمان والعهد والميثاق ما تثق به »(١) .

فكتب إليه النفس الزكية جوابا مطولا جاء فيه : « . . . وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذى عرضتَ علىّ ، فان الحقّ حقّنا ، وإنما ادّعيتم هذا الأمر بنا ، وخرجتم له بشيعتنا ، وحظيتم بفضلنا . . . ولك الله علىّ إن دخلت فى طاعتى ، وأجبت دعوتى أن أؤمنك على نفسك ومالك ، وعلى كل امرأ حدثته ، إلا حدّا من حدود الله ، أو حقاً لمسلم أو معاهَد ، فقد علمتَ ما يلزمك من ذلك ، وأنا أولى بالأمر منك ، وأوفى بالعهد . لأنك أعطيتنى من العهد

---

(١) المصدر السابق : ٧/٥٦٦ ، والعقد الفريد : ٥/٧٩ ، ابن الأثير : ٥/٢٥٣ ، ابن كثير : ١٠/٨٤ ـ ٨٥ وانظر العيون والحدائق : ٣/٢٤٠ .

والأمان ما أعطيته رجالاً قبلي فأيّ الأمانات تعطيني أمان ابن هبيرة ، أم أمان عمك عبد الله بن علي ، أم أمان أبي مسلم ! » (١) .

فكتب إليه أبو جعفر : « . . أما بعد . فقد بلغني كلامك وقرأت كتابك ، فاذا جُلّ فخرك بقرابة النساء ، لتضلّ به الجفاة والغوغاء ، ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء ، ولا كالعصبة والأولياء ، لأن الله جعل العمّ أبا وبدأ به في كتابه على الوالدة الدنيا ، فقال : جلّ ثناؤه عن نبيه يوسف عليه السلام ، (واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب) . ولو كان اختيار الله لهنّ على قدر قرابتهن كانت آمنةُ أقربَهن رحماً وأعظمهن حقاً ، وأول من يدخل الجنة غداً ، ولكن اختيار الله لخلقه على علمه لما مضى منهم واصطفائه لهم .. ولو أن أحداً رزق الإسلام بالقرابة رُزقه عبد الله أولاهم بكل خير في الدنيا والآخرة ، ولكن الأمر لله يختار لدينه من يشاء . . . ولقد بعث الله محمداً (ص) وله عمومة أربعة ، فأنزل الله عز وجلّ : (وأنذر عشيرتك الأقربين) فأنذرهم ودعاهم ، فأجاب اثنان أحدهما أبي ، وأبى اثنان أحدهما أبوك ، فقطع الله ولا يتهما منه ، ولم يجعل بينه وبينهما إلا ولا ذمـــة ولا ميراثاً ، وزعمت أنك ابن أخف أهل النار عذابا وابن خير الأشرار ، وليس في الكفر بالله صغير ، ولا في عذاب الله خفيف ولا يسير ، وليس في الشر خيار ، ولا ينبغي لمؤمن يؤمن بالله أن يفخر بالنار ، وسترد فتعلمّ (وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلَب ينقلبون) ... وأما قولك : إنكم بنو رسول الله (ص) ، فان الله تعالى يقول في كتابه :

(٤) راجع المصادر السابقة نفسها نص الكتب .

(ما كان محمد أبا أحد من رجالكم...ولكنكم بنو ابنته ، وإنها لقرابة قريبة . ولكنها لا تجوز الميراث ، ولا ترث الولاية ، ولاتجوز لها الإمامة ، فكيف تورث بها ! .

ثم يشير إلى النزاع بين بني أمية و بين العلويين وإلى انتصار العباسيين فيقول : « ... ثم خرجتم على بني أمية ، فقتلوكم وصلبوكم على جذوع النخل ، وأحرقوكم بالنيران ، ونفوكم من البلدان ... حتى خرجنا عليهم فطلبنا بثأركم وأدركنا بدمائكم وأورثناكم أرضهم وديارهم ، وأردنا إشراككم فى ملكنا فأبيتم إلا الخروج علينا ... وقد علمت أن المكرمة فى الجاهلية سقاية الحاج الأعظم وولاية بئر زمزم ، وكانت للعباس من بين إخوته ، وقد نازعنا فيها أبوك فقضى لنا بها رسول الله (ص) ، فلم نزل نليها فى الجاهلية والإسلام . فقد علمت أنه لم يبق أحد من بعد النبي (ص) من بني عبد المطلب غير العباس وحده ، فكان وارثه من بين إخوته ، ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بني هاشم ، فلم ينله إلا ولده ، فالسقاية سقايتنا ، وميراث النبي (ص) ميراثنا ، والخلافة بأيدينا ، فلم يبق فضل ولا شرف فى الجاهلية والإسلام إلا والعباس وارثه ومورثه »(١).

وهذه الرسائل بين الطرفين ترينا حجج كل طرف من العباسيين والعلويين وتظهر نظرة بعضهم إلى بعض وكشف عيوبه ، والظاهر أنها كانت لمجرد الدعاية أكثر منها إقناعا للخصم كما نلاحظ فى كتاب النفس الزكية ورده على المنصور أنه لم يذكر فيه أن المنصور بايعه

---

(١) راجع الكتاب الأخير بتمامه فى الطبرى : ٧/٥٦٧ — ٧١ ، والعقد الفريد : ٥/٧١ — ٧٥ ويلاحظ أن بينهما بعض الاختلاف فى الألفاظ .

سابقاً ، كما يفهم من رواية الأصفهانى فى مقاتل الطالبيين ، وابن طباطبا فى الآداب السلطانية .

ولم يكن لهذه المكاتبات من فائدة فى حل النزاع سلمياً ووصلت المفاوضات إلى باب مغلق ، ولم يبق إلا تحكيم السيف وهو حكم لايبالى بالحق كثيراً . وأصبح عيسى بن موسى على أتم الاستعداد للخروج إلى لقاء محمد بالمدينة وبقى منتظراً أوامر المنصور بالتحرك .

أما محمد النفس الزكيه فانه لما بلغته الأنباء بتسيير جيش لقتاله انزعج لذلك وخاصة بعد مارآه من تثبيط بعض بنى عمه ـ من آل الحسين ـ الناس عن بيعته(١) .

واستشار محمدٌ محمدَ بن خالد القسرى وكان بعد أن أطلقه من السجن حلف على تأييد دعوة محمد الحقة وليبلين فيها بلاءً حسنا ـ فقال : يا أمير المؤمنين ! إنك قد خرجت فى هذا البلد ، والله لو وُقف على نَقْب من أنقابه مات أهله جوعاً وعطشاً ، فانهض معى فانما هى عشر حتى أضربه بمائة ألف سيف . فأبى عليه ما أشار به من الخروج إلى بلد آخر ومعنى هذا أن موقع المدينة موقع غير ملائم للمعركة . فما كان من ابن خالد إلا أن كتب إلى المنصور بقلة من معه(٢) . واستشار نافع بن ثابت فقال لمحمد : أيها الرجل ! إنى والله ما أراك فى شىء ، خرجت فى بلد ليس فيه مال ولا رجال ولا كُراع ولا سلاح ، وما أنا بمهلك نفسى معك ، ولا معين على دمى(٣) .

---

(١) انظر الطبرى : ٥/٥٦٠ .
(٢) الطبرى : ٥/٥٦١ (٣) المصدر السابق ص ٧٥٢ ـ ٧٥٣ .

وهذه المشورة تؤكد سابقتها من عدم صلاحية المدينة وموقعها الحربى للقتال . كما أنها من جهة أخرى تتلاقى مع وجهة نظر من استشارهم المنصور حين قالوا له : فاحمد الله ، ظهر حيث لامال ولا رجال ولا سلاح ولا كراع ، وأشاروا عليه بقطع ميرة الشام عنه ، فيموت مكانه جوعاً(١) .

وأمر المنصور عيسى بن موسى بالتحرك إلى المدينة فى جيش عظيم على رواية اليعقوبى(٢) ، بينما يذكر الأصبهانى أن عدد الجيش كان أربعة آلاف فقط(٣) ولعل رواية المسعودى أقرب إلى الحقيقة ، إذ يذكر أن جيش عيسٰى كان مكوناً من أربعة آلاف فارس وألفى راجل ، وأتبعه محمد بن قحطبة فى جيش كثيف(٤) .

وقبل مغادرة الجيش العباسى العراق أوصى المنصور قائده عيسى ابن موسى وهو يودعه فقال له : يا عيسى ، إنى أبعثك إلى ما بين هذين ـ وأشار إلى جنبيه ـ فان ظفرت بالرجل فشِم سيفك ، وابذل الأمان ، وإن تغيب فضمّنهم إياه حتى يأتوك به ، فانهم يعرفون مذاهبه(٥) . ويزيد ابن عبد ربه (٦) على ذلك : فاذا ظفرت به فلا تخيفنّ أهلَ المدينة ، وعُمّهم بالعفو ، فانهم الأصل والعشيرة وذرية المهاجرين والأنصار ، وجيران قبر النبى (ص) ، فهذه وصيتى إياك ، لا كما أوصى به يزيد بن معاوية مسلم بن أبى عقبة حين وجّهه إلى المدينة . . . فلما بلغ يزيد ما فعله تمثل بقول ابن الزِّبَعْرى فى يوم أحد :

---

(١) المصدر السابق ص٦٦٦ .
(٢) تاريخ اليعقوبى : ٣/١١٥ (٣) مقاتل الطالبيين ص ٢٦٥ .
(٤) مروج الذهب : ٣/٢٢٢ (٥) الطبرى : ٥/٥٦٥ .
(٦) العقد الفريد : ٥/٥٦ ـ ٥٧ .

لبت أشياخي ببدرٍ شهدُوا
جَزَعَ الخَزْرَجِ من وقع الأسَلْ

ثم اكتب إلى أهل مكة بالعفو عنهم والصفح ، فانهم آل الله وجيرانه ، وسكان حرمه وأمنه ومنبت القوم والعشيرة ، وعظم البيت والحرم ، لا تُجد فيه بظلم ، فانه حرم الله الذى بعث منه نبيه محمداً (ص.) ، وشرف به آباءنا لتشريف الله إيانا . فهذه وصيتى لا كما أوصى به الذى وجّه الحجاج إلى مكة ...

ولما وصل الجيش إلى فَيد(١) ، بعث عيسى إلى رجال المدينة فى خِرَق من الحرير ، فلما وردت كتبه المدينة تفرّق ناس عن محمد ، وخرج بعضهم إلى عيسى ، ومنهم ناس من أهل على(٢) .

ولما شعر محمد بقرب عيسى بن موسى قال لأصحابه : أشيروا علىّ فى الخروج عن المدينة أو المقام ، فقال قوم : نقيم ، وقال قوم : نخرج ، فقال لعبد الحميد بن جعفر : أشر علىّ ، قال : أنت فى أقل بلاد الله فرسا وطعاما ، وأضعفه رجلا ، وأقلّه مالاً وسلاحا ، تريد أن تقاتل أكثر الناس مالا ، وأشده رجالا ، وأكثره سلاحا ، وأقدره على الطعام ؟ الرأى أن تسير بمن اتبعك إلى مصر ، فو الله لا يردك رادّ ، فتقاتل بمثل سلاحه وكراعه ورجاله وماله . وقال له جبير بن

(١) فيد بالفتح ثم السكون ودال مهملة : بليدة فى نصف طريق مكة من الكوفة (مراصد : ٣/١٠٤٠) .

(٢) الطبرى : ٥/٥٥٩ .

عبد الله ! أعيذك بالله أن تخرج من المدينة ، فان رسول الله قال عام أحد . رأيتنى أدخلت يدى فى درع حصينة فأولتها المدينة . فترك محمد ما أشار به عبد الحميد وأقام بالمدينة(١) ، وحفر خندقاً حولها اقتداء بالرسول (ص) فى حفـــره الخندق يوم الأحزاب ، وبهذا أتم الحصار الاقتصادى عليه . واجتمع لمحمـد جيش لم ير مثله نحو مائة ألف ، فلما قرب عيسى بن موسى خطبهم محمد فقال : إن هذا الرجل قد قَـرُب منكم فى عَـدد وعُـدّة ، وقد حللتكم من بيعتى ، فمن أحب الانصراف فلينصرف ، فتسللوا حتى بـقى فى شرذمة ليست بالكثيرة .

ولما سمع بعيسى وحميد قد أقبلا قال للناس مرة أخرى: إنا قـد جمعناكم للقتال وأخذنا عليكم المناقب ، وإن هذا العدو منكم قريب وهو فى عدد كثير . . وإنه قد بدا إلى أن آذن لكم وأفرج عنكم المناقب ، فمن أحب أن يقيم أقام ، ومن أحب أن يظعن ظعن . . . فخرج عالم من الناس . وكانت هذه الخطبة بمثابة مقياس لمعرفة عدد المخلصين من رجال محمد الذين قاربوا المـــائة ألف أول الأمر . فتسلل أكثرهم وبقى فى عدد قليل .

استمر عيسى فى مسيره حتى الجُـرُف ـــ على نحو أربعة أميال من المدينة ـــ وبلغته الأنباء بأن محمداً أصبح فى عدد قليل ، وخشى أن يهرب إلى مكة التى كانت بايعته ، فأرسل فصيلة من جنوده تبلغ نحو

---

(١) مقاتل الطالبين ص ٢٥٠ ـ ٢٥٥ ، وانظر الطبرى : ٥/٥٥١ وفيه بدل جبير حنين .

تبلغ نحو خمسمائة رجـــل لحراسة طريق مكة(١) ، بحيث إذا فكر محمد فى الهرب قاتله الحراس . ثم وصل عيسى المدينة فى الثانى عشر من شهر رمضان ، وقبل اللقاء دعا محمدا إلى الطاعة مع تأمينه على كل شىء ، ورفض محمد الخضوع وأبى إلا القتال ، ودارت الموقعة بين الفريقين ، وفى أثناء المعركة قامت أسماء بنت عبـد الله بن عبيدالله العباسى بتدبير مكيدة ، إذ وجهت مولى لهافى خمار أسود جعلته على قصبة ، فنصبه على منارة المسجد النبوى ، ووجهت بمولى آخر إلى عسكر محمد ، فصاح : الهزيمة الهزيمة ، قد دخل المسودة المدينة ، فلما رأى الناس العلم الأسود انهزموا(١) .

وأقام محمد يقاتل بشجاعة نادرة ، ولكن ماذا تغنى الشجاعة بجانب الكثرة والقوة ، وما زال يقاتل حتى قتل نحو سبعين ثم خر صريعا فى الميدان فى ١٤ من شهر رمضان سنة ١٤٥ هـ (٦ كانون الأول — ديسمبر — ٧٦٢م) ودفن بالبقيع(٣) . وأرسل عيسى إلى المنصور ببشارة الفتح ورأس محمد النفس الزكية بن عبد الله(٤) .

وتتبع عيسى أصحاب محمد بالمدينة فقتلهم وقبض أموالهم ، وفى ١٩ رمضان شخص عيسى إلى مكة(٥) . ولما اتصل بإبراهيم

---

(١) الطبرى : ٥٨٤/٧ .

(٢) تاريخ اليعقوبى : ٥/١١٥ — ١١٦ ، انظر الطبرى : ٥٩٣/٥ .

(٣) ابن الأثير : ٢٦٢/٥ .

(٤) الطبرى ص ٦٠٩ وفيه قتل محمد فى ١٥ رمضان .

(٥) المصدر السابق ص ٦٠٠ .

قتل أخيه محمد وهو بالبصرة نعاه وتمثل بقول الشاعر(١) :

أبا المنازل يا خير الفوارس من يفجع بمثلك فى الدنيا فقد فجعا
الله يعلم أنى لو خشيتهم
وأوجس القلب من خوف لهم فزعا
لم يقتلوه ولم أسلم أخىَّ لهم حتى نموت جميعاً أو نعيش معاً

مقتل ابراهيم بن محمد :

هكذا ختم أول فصل من المأساة ، ولم يبق أمام المنصور إلا القضاء على ابراهيم أخى النفس الزكية فى العراق ، حيث ظهر بالبصرة (فى أول رمضان سنة ١٤٥هـ) فتغلب عليها وعلى واسط والأهواز وفارس ، وتفاقم خطره ، وعظم جنده حتى بلغ نحو مائة ألف(٢) وكان أبو جعفر قد حصن البصرة لأنه كان يظن خروجه بها بعد مشورة جعفر بن حنظلة البهرانى عليه بذلك(٣) .

وسرعان ما استدعى المنصور عيسى بن موسى من مكة — وقد عجم عوده ومهارته فى حرب محمد بالمدينة — لمحاربة ابراهيم فى العراق ، فجاء مسرعا وتوجه نحو البصرة فى خمسة عشر ألفاً من الجند

---

(١) مروج الذهب : ٢٢٢/٣ ، ابن الأثير : ٢٦١/٥ ، والعيون والحدائق : ٢٤٦/٣ وفيه « يابا المبارك » بدل « أبا المنازل » . وانظر ابن الأثير ص ٢٦٢ ففيه رثاء مؤثر لبنى الحسن .

(٢) الطبرى : ٦٤٢/٥ .

(٣) المصدر السابق ص ٦٢٩ .

وخرج إبراهيم لملاقاته ، ودارت رحى الحرب بين الطرفين عند « باخَمْرَى »(١) بين الكوفة وواسط فاقتتلوا بها قتالاً شديداً ، وكان الفوز فى الجولات الأولى لإبراهيم ، فقد انهزم حميد بن قحطبة أحد قواد عيسى ، وكادت الهزيمة تتم على جيش المنصور ، لولا صمود عيسى ، ورفضه التحول عن مكانه حتى يقتل أو يفتح الله عليه ، ولا يقال انهزم (٢). وما زال الفريقان يقتتلان ، حتى انهزم جند إبراهيم وولى أكثرهم ، وثبت هو فى عدد قليل من أنصاره بلغ نحو سبعين ، وحمى القتال وإبراهيم يقاتل بشجاعة إلى أن أصابه سهم فى حلقه فنحرَه ، فتنحّى عن موقفه ، وأنزله أصحابه عن مركبه ، وهو يقول : « وكان أمر الله قدَراً مقدُوراً » ، أردنا أمراً وأراد الله غيره ، فأنزل إلى الأرض وهو مثخَن ، واحتزّ ابن قحطبة رأسه ، فأتوا به عيسى بن موسى ، فسجد لله شكراً ، وبعث بالرأس إلى الخليفة المنصور وكان قتله يوم الإثنين لخمس ليال بقين من ذى القعدة سنة ١٤٥ هـ (١٤ شباط - فبراير - ٧٦٣م) (٣)

---

(١) وتبعد عن الكوفة ستة عشر فرسخا ، وهى أقرب إليها من واسط.
(٢) الطبرى : ٧ / ٦٤٩ . (٣) المصدر السابق ص ٦٤٧ .

وهكذا تخلص المنصور من خطر هدد عرشه ، وكاد يقضى عليه بهزيمته لمحمد وأخيه إبراهيم وقتلهما اللذين خدعهما الناس بإرسال الكتب إليهما ، وحثهما على الظهور ، وكانت أكثر هذه الكتب تكتب على ألسن عيون المنصور وقواده ، فلما جد الجد وجد محمد وأخوه إبراهيم من بعده أنه يقف فى جند قليل لا يمر ولا يحلى ، كما كان لعدم قيامهما فى آن واحد — للظروف التى أشرنا إليها — أن استطاع المنصور من ضرب كل واحد منهما على حدة ، وفضلا عن ذلك تفوق المنصور عليهما فى الدهاء والمكر والخديعة ، وما صاحب ذلك من بذل الأموال للجنود ، وهما لم يكن عندهما من المال ما يمكنهما من الصمود أمام جيوش المنصور مدة طويلة ، إذ كانت الأموال تأتى إليهما عن طريق التبرع .

وبعد مقتل محمد وإبراهيم بقيت بقايا بنى الحسن مشردين فى عهد المنصور بعد أن قتل منهم من قتل ومات من مات ، ذلك أن محمداً قد استعان ببعض أهل بيته للدعوة إلى إمامته فى الأمصار الإسلامية وتفرقوا فى البلاد ، فكان فيمن توجه إلى مصر ابنه على فقتل بها ، وسار ابنه عبد الله إلى خراسان فهرب — لما طلب — إلى السند فقتل هناك ، وسار ابنه الحسن إلى اليمن ، فحبس فمات بالحبس ، وسار أخوه موسى إلى الجزيرة ، ومضى أخوه يحيى إلى الرى وطبرستان ، فكان له فى عهد الرشيد أيام عصيبة ، وسار أخوه إدريس إلى المغرب ، فبعث إليه المنصور من اغتاله هناك ، وقام ولده

إدريس ابن إدريس مقامه . ويروى أن المهدى آلت إليه خزانة مما خلف والده فدخلها مع زوجه ريطة ، فإذا أزج كبير فيه جماعة من قتلى الطالبيين ، وفى آذانهم رقاع فيها أنسابهم، وإذا فيهم أطفال ورجال وشباب ومشايخ عدة ، فلما رأى ذلك المهدى ارتاع لما رأى، وأمر فحفرت لهم حفرة فدفنوا فيها . وعمل عليهم دكان (١) .

وبالقضاء على ثورة العلويين عظم نفوذ المنصور وانتشر سلطانه ، وتوطدت أركان الإمبراطورية فى أكثر البلدان الإسلامية ماعدا شمال إفريقية التى لم تشملها سلطة الخليفة العباسى إلا إلى حدود القيروان، وإسبانية التى كان فيها عبـــد الرحمن الداخل أقوى من أن يقهر .

وما أن استقرت أحوال البلاد الداخلية حتى وجه المنصور اهتمامه إلى الإصلاحات والمشروعات العمرانية واستئناف العمل فى بناء مدينة بغداد الذى كان قد أوقف لأجل التفرغ لثورات العلويين ، كذلك عاد المنصور إلى مقارعة عدو الدولة التقليدى (الروم البيزنطيون) واستئناف المعارك معهم عند الحدود ، ذلك العراك الذى كان لايزال دائراً بصورة متقطعة نحو قرن .

---

(١) الطبرى ٨ / ١٠٥ وروى الأصفهانى فى مقاتل الطالبيين ص ٢٧٨ ، ٣٥٠ أن المنصور استعمل من وثق به من العلويين والياً على المدينة وهو الحسن ابن زيد بن الحسن من سنة ١٥٠ — ١٥٥ هـ ، كما عامل جعفر الصادق معاملة كريمة . وانظر العقد الفريد ٤ / ١٦٠ .

السياسة الداخلية :

إذا كانت الدولة العباسية مدينة فى تأسيسها وارساء قواعدها لأبى جعفر المنصور فانها تدين له كذلك بوضع أسس نظم الحكم من سياسية ومالية وإدارية وغيرها . ويوضح لنا السياسة العامة التى رسمها المنصور قوله(١): «إنما أنا سلطان الله فى أرضه ، أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده وتبصيره ، وخازنه على فيئه ، أعمل فيه بمشيئته ، وأقسمه بإرادته ، وأعطيه بإذنه ، قد جعلنى عليه قفلا ، إذا شاء أن يفتحنى لإعطائكم وقسم فيئكم وأرزاقكم فتحنى ، وإذا شاء أن يقفلنى أقفلنى ، فارغبوا إلى الله وسلوه فى هذا اليوم الشريف الذى وهب لكم فيه من فضله ما أعلمكم به فى كتابه ، إذ يقول تبارك وتعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) أن يوفقنى للصواب ويسددنى للرشاد ، ويلهمنى الرأفة بكم والإحسان إليكم ، ويفتحنى لأعطياتكم وقسم أرزاقكم بالعدل عليكم . . » فكان البيت النهائى فى جميع أمور الدولة يرجع إلى الخليفة صاحب الأمر المطاع والكلمة النافذة ، وكان المنصور يؤمن بنظرية الحق الملكى المقدس التى سادت فى العصور الوسطى ، بمعنى أن الخليفة العباسى يحكم بتفويض من الله لا من الشعب ، وأن كل رجل لا ينتسب إلى البيت المالك ويتولى الملك يعتبر مغتصباً لحق غيره ، فكان حكم

---

(١) ابن قتيبة : عيون الأخبار ٢ / ٢٥١ ، الطبرى ٨٩/٨ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٠ / ١٢٢ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٦٣ .

المنصور استبداديا مطلقا ، وذلك يخالف قواعد الحكم الصالح الذى جاء به الإسلام ، وأين هذا من قول الصديق أبى بكر : « إن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقوّمونى » . وقول الفاروق : « من رأى منكم فىّ اعوجاجا فليقومه » . وقول عمر بن عبد العزيز : « لست بخير من أحدكم ولكننى أثقلكم حملا » ؟ وبهذا وضع أبو جعفر أساس النظام السياسى الذى سارت عليه الدولة العباسية فى العصر الأول وبقيت خططه السياسية قاعدة يحتذيها الخلفاء العباسيون احتذاء الأمويين لمعاوية .

ولما كان العباسيون يدينون بقيام دولتهم للنفوذ الفارسى ، كان طبيعياً أن تسيطر الميول الفارسية . ولهذا فإننا نجد وزيرا من أصل فارسى على رأس الحكومة ، كما نجد الخلافة تدار بنفس النظام الذى كانت تدار به إمبراطورية آل ساسان . واحتجب الخليفة عن رعيته واتخذ الوزير والسياف ، فأحيط شخصه بالقـــداسة والرهبة ، وظهرت الأزياء الفارسية فى البلاط العباسى ، واحتفل بالنوروز والمهرجان وغيرها من الأعياد الفارسية القديمة . لهذا لا نعجب إذا أصبح الخليفة العباسى يعيش معيشة الأكاسرة ، تحوطه الأبهة والعظمة وينحنى أمامه الداخل عليه ويقبل الأرض بين يديه ، وإذا قرب منه قبّل رداءه ، وهو شرف لا يناله إلا رجال الدولة البارزون .

أما الإدارة الصحيحة فى نظر المنصور فتتمثل فى قوله : « ما كان أحوجنى إلى أن يكون على بابى أربعة نفر لا يكون على بابى أعف منهم ، قيل له يا أمير المؤمنين : من هم ؟ قال : هم أركان الملك ، ولا يصلح

الملك إلا بهم ، كما أن السرير لايصلح إلا بأربع قوائم ، إن نقصت واحدة وهيَ : أما أحدهم فقاض لاتأخذه في الله لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى ، والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية فإنى عن ظلمها غنى ، والرابع — ثم عضّ على أصبعه السبابة ثلاث مرات ، يقول فى كل مرة آه آه — قيل له: ومن هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحة » (١) . ومن هذا النص نتبين رغبة المنصور وميله للعدل، ويؤكد المنصور أهمية العدل فى وصيته لابنه المهدى إذ يقول : « لايصلح السلطان إلا بالتقوى ، ولا تصلح رعيته إلا بالطاعة ، ولا تعمر البلاد بمثل العدل وأقدر الناس على العفو أقدرهم على العقوبة وأعجز الناس من ظلم من هو دونه ... » (٢) وفى وصية أخرى يقول : « واحكم بالعدل ولا تشطط فإن ذلك أقطع للشغب واحسم للعدو وأنجع فى الدواء » (٣) . وروى الجهشياوى قصة تصور شدة ميله للعدل ، ومؤداها أن الجمالين الذين نقلوا أحمال المنصور فى طريق الحج اشتكوا إلى عامل المدينة لأنه لم يعطهم أجورا ترضيهم ، فحكم العامل لهم على الخليفة وطلب منه إنصافهم ، ففرح المنصور وقال لعامله : « جزاك الله عن دينك وعن بيتك وعن حسبك وعن خليفتك

---

(١) الطبرى ٨ / ٦٧ ، ابن الأثير ٦ / ١١ .

(٢) « ٨ / ٧١ ، ابن الأثير نفس الجزء والصفحة .

(٣) ابن الأثير ٦ / ٨ .

أجيبن الجزاء ، وأمرله بعشرة آلاف دينار » (١) وكتب إليه رجل يشكو بعض عماله فكتب إلى عامله : ان آثرت العدل صحبتك السلامة ، وإن آثرت الجور فما أقربك من الندامة ، فانصف هذا المتظلم من الظلامة .) (٢)

وكان المنصور يسير فى عمله اليومى على نظام دقيق ، كان شغله فى صدر نهاره بالأمر والنهى والولايات والعزل وشحن الثغور والأطراف وأمن السبل والنظر فى الخراج والنفقات ومصلحة معاش الرعية لطرح عالتهم والتلطف لسكونهم وهدوئهم ، فإذا صلى العصر جلس لأهل بيته إلا من أحب أن يسامره ، فإذا صلى العشاء الآخرة نظر فيما ورد عليه من كتب الثغور والأطراف والآفاق ، وشاور سماره من ذلك فيما أرب ، فإذا مضى ثلث الليل قام إلى فراشه وانصرف سماره ، فإذا مضى الثلث الثانى قام من فراشه فأسبغ وضوءه ، وصف فى محرابه حتى يطلع الفجر ، ثم يخرج فيصلى بالناس ، ثم يدخل فيجلس فى إيوانه (٣) .

وقد مر المنصور بتجارب قاسية تركت فى نفسه ميلا إلى سوء الظن بالطبيعة الإنسانية ، فكان يتدخل فى كل صغيرة وكبيرة خشية

---

(١) الوزراء والكتاب (طبع القاهرة ١٩٣٨ م) ص ١٣٧ ، انظر الخلفاء للسيوطى ص ٢٦٦ .
(٢) الطبرى ٨ / ١٠٦ ، ابن الأثير ٦ / ١٢ .
(٣) الطبرى ٨/ ٧٠ ، ابن الأثير ١١/٦ ، ابن كثير ١٠ / ١٢٥ .

وهما العرب والفرس ، مخالفاً بذلك سياسة الأمويين التى كانت قائمة على تمجيد العربى والتعصب للعرب ، وحاول أن يزيل أسباب الخلاف الذى وقع فى عهد الأمويين ، وقد استطاع المنصور بقوة شخصيته وشدة يقظته أن يحافظ على هذا التوازن . وفى سبيل الأخذ بهذه الخطة الحكيمة لم يتورع عن الفتك بأبى مسلم رغم رفعة شأنه وعظيم سابقته فى إقامة الدولة العباسية ، وكان يقف فى سبيل كل من تعاظم نفوذه أو اتسعت ثروته وكثر أنصاره حتى لايطغى نفوذه على سلطة الخليفة ويختل التوازن المنشود . ومن دواعى الأسف أن خلفاءه لم يسيروا على نهج هذه السياسة الرشيدة ، فقد أسلم حفيده الرشيد زمامه إلى البرامكة فى الشطر الأول من حكمه ، ولما رأى أنه لم يصبح له من الأمر شىء أوقع بهم ونكبهم تلك النكبة المشهورة ، ووقع فى المدة الثانية من خلافته تحت تأثير العنصر العربى ، ولم يستطع العمل على إيجاد توازن بين نفوذ العنصرين ، ومن ثم اشتد الخلاف فى عهده بين العرب والفرس ، وأصبحا معسكرين يلتمس كل منهما الإيقاع بالآخر ، واستفحل الخلاف لدرجة جعلته يصل إلى قصر الخليفة نفسه ، وزاد من حدة التنافس بين ولديه الأمين والمأمون ، وكان الأمين يناصره العنصر العربى ، والمأمون العنصر الفارسى ، واتسع الخلاف بين الأخوين ، وبذلت الجهود لتهدئة هذا الخلاف المتفاقم ، لكن الظروف المحدقة بهما كانت أقوى ، فأخذت تفكك ما بينهما من روابط وتفصم العرى حتى وقعت تلك الكارثة المحزنة التى شوهت عهد الرشيد وألقت على حياته ظلا من الكآبة لم يفارقه حتى الموت .

وراقب المنصور عماله مراقبة دقيقة واقتضى هذا منه أن زاد

أن يخدع ، وكان يساعده على ذلك فرط شغفه بالعمل الدائب وشدة إقباله على النهوض بواجباته نحو رعيته ، وطبيعى أنه فى عهد خليفة قوى كالمنصور كان نفوذ الوزراء محدوداً ، ولم يكونوا سوى صدى لاتجاهات الخليفة ورغباته. ويقول صاحب الفخرى عن حالة الوزارة فى عهد المنصور : « لم تكن الوزارة فى أيامه طائلة لاستبداده واستغنائه برأيه وكفاءته ، مع أنه كان يشاور فى الأمور دائماً ، وإنما كانت هيبته تصغُر لها هيبة الوزراء ، وكانوا على وجَل منه وخوف ، فلا يظهر لهم أبهة ولا رَونق »(١) . ويظهر أنه استغنى عن الوزير فى سنته الأخيرة ، فيروى المسعودى أنه بعد أن استوزر وزيرين هما ابن عطيه الباهلى وأبو أيوب المورياني ، استكتب أبان بن صدقة إلى أن مات(٢) .

وليس معنى استغناء المنصور برأيه استبداده بالرأى ولو كان خطأ ، فالواقع أنه كان يستشير وزراءه وخاصته ، ولكنه يعرض آراءهم بعد ذلك على محك تفكيره الخاص ولا يتقيد بها ، وكانت أعمال وزرائه وولاته خاضعة لرقابته اليقظة الشديدة التى لا تتيح لهم فرصة للتلاعب وإساءة استعمال السلطة المخولة لهم. وكان فى استشارته لا يكتفى بآراء وزرائه وخاصته ، بل كان يختار إلى جانبهم ذوى التجربة والكفاية ، ولم تمنعه الخصومة التى قامت بينه وبين عمه عبد الله

(١) الآداب السلطانية ص ١٠١ .
(٢) مروج الذهب : ٣ / ١٢١ — ٢١٣ .

ابن على من استشارته حينما خرج عليه الأخوان محمد النفس الزكية وإبراهيم .

أما إدارة البلاد فكانت تسير على طريقة مشابهة لما كانت عليه عند الأمويين ، فكانت الدولة مقسمة إلى ولايات ، وفى كل ولاية وال يعينه الخليفة ، ويقوم بإمامة المسلمين فى الصلاة ، ويجاهد العدو ، ويجبى الخراج ، ويحفظ الأمن ، ويفصل فى الخصومات بين الناس ، وفى بعض الأحيان كانت تسند إليه هذه الأمور الخمسة فيكون إمام القوم وقائد الجند ، وينتدب للخراج والشرطة والقضاء من يراه أهلا للقيام بها ، وأحيانا يكون إليه الصلاة والشرطة والجهاد والخراج ، ويكون للحرب أمير آخر مستقل عن أمير الصلاة ، ويعين القاضى من قبل الخليفة رأساً والظاهر أن المنصور استقر رأيه على فصل القضاء عن سلطة الولاة ، فقد ذكر اليعقوبى أنه : « كان أول من ولى القضاء الأمصار من قبله ، وكان يوليهم أصحاب المعاون(١) .

ولم تكن الولايات متعينة العدد ، بل تارة تضم ولايتان إلى وال واحد ، وتارة يفصل بينهما حسب ما يراه الخليفة فى مقدرة الوالى ، فأبو مسلم الخراسانى مثلا كان والياً لخراسان كلها وبلاد الرى والجبل وعليها ولاة من قبله .

وكان ولاة المنصور من أهل بيته وممن اصطنعهم من العرب

---

(١) تاريخ اليعقوبى : ٣ / ١٢٧ .

والموالى(١) ، ولم يكن يحب أن تطول مدة الوالى فى ولاية ولاسيما فى الأطراف كمصر وخراسان خوفا أن تحدثه نفسه باستقلاله عن الخلافة .

وبلغ المنصور أن عمه صالح بن على الذى ولاه قنسرين والعواصم قد كثر عدد مواليه وحاشيته فخافه فكتب إليه فى القدوم عليه، فكتب أنه شديد العلة فلم يقبل ذلك ، وكان مريضاً بالسل ، فصار إلى بغداد فلما رآه أبو جعفر صرفه ولم يأمر له بصلة ولا بر ، فقال : « إن أمير المؤمنين يأنس منى فنفعل هذا بى ، والله يحيى العظام وهى رميم » فلما صار إلى عانات من كور الفرات مات ، وكان نظير أبى جعفر فى السن(٢) .

والمنصور أول من استعمل مواليه على الأعمال وقدمهم على العرب وكثر ذلك بعده حتى زالت رئاسة العرب وقيادتها(٣) . ومن هذا يتضح أنه استخدم العرب والفرس فى أعماله ،

وراقب المنصور عماله مراقبة دقيقة واقتضى هذا منه أن زاد

---

(١) لمعرفة أسماء الولاة من كل صنف أنظر المصدر السابق ص ١٢٢ — ١٢٣ .
(٢) شرحه .
(٣) الخلفاء للسيوطى ص ٢٦٩ — ٢٧٠ .

فى كفاءة البريد ، فقد كان من واجب عمال البريد بالإضافة إلى نقل الرسائل التجسس على أعمال كبار الموظفين فى مختلف أنحاء الإمبراطورية الإسلامية ، فكان عمال البريد يكتبون إلى المنصور كل يوم بسعر القمح والحبوب والادم وبسعر كل مأكول (لتلافى ما قد يحدث من المجاعات) وبكل ما يقضى به القاضى فى نواحيهم ، وبما يعمل به الوالى ، وبما يرد بيت المال من المال ، وكل ماحدث ، وكانوا يكتبون حوادث النهار إذا صلوا المغرب ، ويكتبون إليه بما كان فى كل ليلة إذا صلوا الغداة ، فاذا وردت كتبهم نظر فيها ، فاذا رأى الاسعار على حالها أمسك ، وإن تغير شىء منها عن حاله كتب إلى الوالى والعامل هناك ، وسأل عن العلة التى نقلت ذاك عن سعره ، فاذا ورد الجواب بالعلة تلطف لذلك برفقه حتى يعود سعره ذلك إلى حاله ، وإن شك فى شىء مما قضى به القاضى كتب إليه بذلك ، وسأل من بحضرته عن عمله ، فان أنكر شيئاً عمل به كتب إليه يوبخه ويلومه(١) .

وزاد ارتباط عمال البريد بالعاصمة رأساً فى كفاءة هذه المراقبة فلم يخضعوا لنفوذ الولاة ، ولذلك لا نستغرب إذا سمعنا أن المهدى نفسه كان خاضعاً لرقابتهم حينما عين والياً على غربى إيران(٢). ولم يكن هذا كل ما أداه نظام البريد من خدمات ، بل إن سجلات المحطات البريدية التى وضعت لتؤلف أحد المصادر التى نشأ عنها فى الجيل الثانى علم الجغرافية عند العرب .

---

(١) انظر الطبرى ٩٦/٨

(٢) العصر العباسى الأول للدكتور عبد العزيز الدورى ص ١٠١

وأما الحاجب فهو موظف كبير ، لايدخل أحد على الخليفة إلا بإذنه ، وقد وجدت هذه الوظيفة فى عهد معاوية بعد حادثة الخوارج معه ومع على وعمرو بن العاص ، فكان الغرض منها بادئ الأمر حماية الخليفة من الاغتيال ، ثم رؤى بعد ذلك منع الناس من الازدحام عليه لما فى ذلك من شغل الخليفة من القيام بالمهمات، وكان إلى الحاجب التقديم والتأخير فى الإذن حسبما يرى من مقامات الناس ودرجاتهم . وتطورت الحجابة بتطور الحضارة، وكان للحاجب فى عصر العباسيين منزلة رفيعة ، فأصبح يستشار فى أمور الخلافة الهامة .

وكان القاضى ينظر فى قضايا مدينة بغداد وحدها فى عهد المنصور ولم يكن له سلطان على قضاة الأقاليم لأن منصب قاضى القضاة لم يكن أنشئ بعد ، ومن أشهر القضاة فى هذا العهد ابن أبى ليلى المتوفى سنة ١٤٨ ﻫ .

وكان صاحب الشرطة مختصا بالمحافظة على الأمن ، وكان له سلطان عظيم على المجرمين والجناة ، وكان يختار لهذا المنصب من توفرت

ولم يكن الخليفة يغض الطرف عن عماله إذا شك فى أمانتهم من الناحية المالية بوجه خاص ، وكان المنصور شديد الحساسية من هذه الناحية ، لأنه كان يرى أن المحافظة على أموال الدولة أولى واجبات الحاكم(١) .

(١) راجع الطبرى ٨/٦٥ ،ابن الأثير ٦/١٠ لتقف على قصة معن بن زائدة الشيبانى مع المنصور وقد بلغه عنه وهو على ولاية اليمن أن الناس قصدوه من شتى النواحى لاشتهاره بالكرم وتفريقه الاموال عليهم

وأهم المناصب فى الدولة خمسة وهى: الوزير والكاتب والحاجب وصاحب الشرطة والقاضى. وهؤلاء جميعاً كانوا أعوان الخليفة على تصريف شئون الدولة، وكان الرأى النهائى يرجع إلى الخليفة.

والوزارة لم تعرف بهذا الإسم فى عهد الأمويين، وأول من سمى بها فى عهد السفاح سلمة الخلال[1] شيخ الدعوة بالكوفة وكان يعرف بوزير آل محمد، وقد اتهم بالميل لآل على فكان مصيره القتل، واستوزر السفاح بعده - على الصحيح - خالد بن برمك جد البرامكة الذين اشتهر ذكرهم فى عهد الرشيد، وهو أول من اعتنق الإسلام من أهل بيته، ويقال إنه لم يكن يتسمى باسم الوزير تطيراً مما جرى لأبى سلمة، فكان يعمل عمل الوزير ولا يسمى وزيراً.

ولما تولى المنصور أبقى فى وزارته خالداً مدة ثم أعفاه، وولى بعده أبا أيوب سليمان الموريانى الخوزى ليد كانت له على المنصور قبل

---

(١) الطبرى ٨/ ٦٩

قيام الدولة العباسية وبقى فى منصبه إلى أن غضب عليه المنصور فى سنة ١٥٣ ﻫ فعذبه وحبس أخاه وبنى أخيه الأربعة وقتلهم جميعاً واستصفى أموالهم(١). وبعد قتل هذا الوزير المنكوب الطالع استوزر المنصور الربيع بن يونس ، وكان نبيلا حازما ، عاقلا فطنا خبيراً بالحساب والأعمال ، حاذقاً بأمور الملك ، محباً لفعل الخير ، عارفاً بآداب الملوك. رأى المنصور يوماً فى بستانه شجيرة من شجر الخلاف فلم يدرِ ما هى ، فقال : يا ربيع ، ما هذه الشجرة ؟ فقال الربيع ! إجماع ووفاق ، وكره أن يقال خلاف فاستحسن المنصور قوله(٢). ولم يزل الربيع وزيراً للمنصور إلى أن مات المنصور وقام الربيع بأخذ البيعة للمهدى ، وظل على ذلك إلى أن توفى فى عهد الهادى سنة ١٧٠ ﻫ ويقال إنه سمه فى عسل شربه فمات ليومه .

أما الكاتب فهو الذى يتولى مخاطبته من بعد عن الحضرة من الملوك والأمراء وغيرهم ، وأحياناً كان يتولى الخليفة نفسه تلك الكتابة ، فقد روى أن المنصور لما جاءته رسالة محمد النفس الزكية قال له كاتبه: دعنى أجبه عليها ، فقال أبو جعفر : لا بل أنا أجيبه عنها إذ تقارعنا على الاحساب ، فدعنى وإياه . وأحيانا كان يتولى الكتابة الوزير . وكان أرزاق الكتّاب والعمال أيام أبى جعفر ثلاثمائة درهم ، ولم تزل على حالها إلى أيام المأمون ، فكان أول من سنّ زيادة الأرزاق الفضل بن سهل(٣) .

---

(١) انظر الفخرى ص ١٥٢ — ١٥٣
(٢) ص ١٠٤ .
(٣) الطبرى ٨/٩٥

وأما الحاجب فهو موظف كبير ، لا يدخل أحد على الخليفة إلا باذنه ، وقد وجدت هذه الوظيفة فى عهد معاوية بعد حادثة الخوارج معه ومع على وعمرو بن العاص ، فكان الغرض منها بادئ الأمر حماية الخليفة من الاغتيال ، ثم رؤى بعد ذلك منع الناس من الازدحام عليه لما فى ذلك من شغل الخليفة من القيام بالمهمات، وكان إلى الحاجب التقديم والتأخير فى الإذن حسبما يرى من مقامات الناس ودرجاتهم . وتطورت الحجابة بتطور الحضارة، وكان للحاجب فى عصر العباسيين منزلة رفيعة ، فأصبح يستشار فى أمور الخلافة الهامة .

وكان القاضى ينظر فى قضايا مدينة بغداد وحدها فى عهد المنصور ولم يكن له سلطان على قضاة الأقاليم لأن منصب قاضى القضاة لم يكن أنشئ بعد ، ومن أشهر القضاة فى هذا العهد ابن أبى ليلى المتوفى سنة ١٤٨ هـ .

وكان صاحب الشرطة مختصا بالمحافظة على الأمن ، وكان له سلطان عظيم على المجرمين والجناة ، وكان يختار لهذا المنصب من توفرت فيه الأمانة والشدة وقوة العصبية .

أما جيش المنصور فـــكان مكونا من فرق عربية وأخرى خراسانية ، وبين الفرق العربية المضرية واليمنية ، وحاول الخليفة أن يحفظ التوازن بين القسمين العربى والفارسى، وإن كان جل اعتماده على الفرس الذين يرجع إليهم الفضل الأكبر فى ثل عرش الدولة الأموية، وضمانا لسلامة الخليفة من اجتماع الجند والخروج عليه فقد اتخذ سياسة

تفرق الجيش إلى أحزاب ، وقد نجح فى ذلك إلى حد كبير ، وافترق الجند ، فصارت مضر فرقة ، واليمن فرقة ، والخراسانية فرقة ، وربيعة فرقة، وقال له قثم بن العباس بن عبيد الله بن عباس — الذى دبّر حادثة التفرقة — قد فرقتُ بين جندك ، وجعلتهم أحزاباً ، كل حزب منهم يخاف أن يحدث عليك حدثا فتضربه بالحزب الآخر ، ثم أشار على المنصور ببناء الرُّصافة لابنه المهدى فى الجانب الشرقى لنهر دجلة ، وأن يحوّل ابنه المهدى ومعه بعض فرق الجيش إلى المدينة الجديدة فيصير ذلك بلداً ، فإن فسد أهل هذا الجانب ضربهم بأهل ذلك الجانب وهكذا ، وإن فسدت مضر ضربها باليمن وربيعة والخراسانية ، وإن فسدت اليمن ضربها بمن أطاعه من مضر وغيرها(١) .

وكان المنصور يستعرض جيوشه من حين لآخر للتأكد من كفاءتهم واستعدادهم ، وكان أحد عروضه الشهيرة سنة ١٥٧ ﻫ فى مجلس اتخذه على شط دجلة دون قُطرَبُّل(٢) .

وفى الناحية المالية قام المنصور بإصلاح يتعلق بضرائب الأرض فى سواد العراق ، ذلك أن الخراج كان يؤخذ بالنقد وعلى مساحة الأرض سواء زرعت أم لا ، وقد أصبح هذا النظام مضراً بصالح الزراع نظراً لتغير الظروف ، لأن السعر نقص فلم تف الغلات بخراجها ، فوضع

---

(١) ص ٣٨ — ٣٩ ، انظر ابن الأثير ٥/٢٨٦

(٢) ص ٥٢ وقطربل بضم القاف وسكون الطاء وفتح الراء وباء مشددة مضمومة ولام وتقع بين بغداد والرزقة

المنصور مشروعاً جديداً للتخفيف من كاهل الزراع ، وهو نظام المقاسمة ، ويتلخص فى أن يدفع الزارع جزءاً معيناً من محصوله كضريبة ، وبذلك يبقى له ما يكفيه(١) . وقد توفى المنصور قبل أن يتم هذا الإصلاح ، فقام بتنفيذه ابنه المهدى(٢) .

ونتيجة لسياسة المنصور المالية الدقيقة فقد خلف فى بيت المال عند وفاته ستمائة (مليون) درهم وأربعة عشر (مليونا) من الدنانير(٣) . وجاء فى وصيته لابنه المهدى : « وانظر هذه المدينة (بغداد) فإياك أن تستبدل بها .. قد جمعت لك فيها من الأموال ما إن كُسر عليك الخراج عشر سنين كان عندك كفاية لأرزاق الجند والنفقات وعطاء الذرية ومصلحة الثغور .. ، وجمعت لك من الأموال ما لم يجمعه خليفة قبلى ، وجمعت لك من الموالى مالم يجمعه خليفة قبلى »(٤) . والمنصور فخور بما تركه من الأموال على الرغم من النفقات الطائلة التى صرفها فى القضاء على الثورات وتثبيت ملكه ، عدا ما أنفقه على بناء بغداد والرصافة والرافقة .

ومن الأعمال التى قام بها المنصور الزيادة فى المسجد الحرام

حتى زاد فيه ضعفه ، وكان ابتـــداء الأمر به فى سنة ١٣٨هـ وفرغ منه سنة ١٤٠ ، كذلك بنى مسجد الخيف بمنى وصيّره على ماه وعليه من السعة ، ولم يكن بها قبل ذلك( ) .

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٧٦ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٨٠ — ٢٨١

(٣) المسعودى : مروج الذهب ٢٣٢/٣ وفى التنبيه والإشراف ص ٢٩٦ أنه خلف ٩٦٠ ألف ألف ولم يذكر نوعها ولعل ماذكره الجهشيارى من أنها دراهم يوضح ذلك

(٤) انظر الطبرى ١٠٣/٨ ، ١٠٦

العلاقات مع بلاد المغرب :

بعد تأسيس مدينة القيروان فى إفريقية سنة ٥١ هـ — ٦٧٠ م على يد عقبة بن نافع واصل ولاة العرب الذين تولوا هذه البلاد جهودهم فى سبيل تحويل البربر إلى الإسلام ، كما عملوا على إدماجهم فى جيوشهم وكوّن البربر فى إفريقية نواة الجيوش الإسلامية التى أكملت فتح بلاد المغرب بقيادة رجال من العرب والبربر . وفى نحو نصف قرن تم لهم فتح بلاد الأندلس . ومع اعتناق البربر الإسلام وتفانيهم فى توسيع رقعة البلاد الإسلامية لم يعاملهم العرب معاملة الند للند، وكان من أثر هذه المعاملة أن انتحل كثير منهم مذهب الخوارج الذى يتسم بالنزعة الديمقراطية ، وأخذوا يثيرون الفتن والاضطرابات فى وجه العرب وعلى الأخص فى أواخر الدولة الأموية، وكثرت هذه القلاقل فى العصر العباسى ؛ وذلك لبعدها عن السلطة المركزية فى بغداد،

وبغضهم ولاتهم من العرب بسبب فرضهم الضرائب الباهظة عليهم التى أثقلت كاهل الأهلين .

وكانت أول الأحداث فى عهد المنصور خروج محمد بن الأشعث والى إفريقية على الخليفة ، فولاها بعده الأغلب بن سالم أبا إبراهيم ابن الأغلب مؤسس دولة الأغالبة فيما بعد ، فقدم الأغلب القيروان سنة ١٤٨ هـ وسرعان ما ثار عليه البربر بزعامة قواد من العرب، وقتل الأغلب على أبواب مدينة القيروان فى سنة ١٥٠ هـ(١) .

ولما بلغ المنصور مقتل الأغلب ولى إفريقية عمر بن حفص من ولد قبيصة بن أبى صفرة أخى المهلب، فوصل إلى القيروان فى صفر سنة ١٥١ هـ فى خمسمائة فارس فأقر الأمن فى هذه البلاد نحو ثلاث سنين ثم سار إلى ناحية الزاب لبناء مدينة طبنة(٢) بأمر المنصور، واستخلف على القيروان حبيب بن حبيب المهلبى فانتهز البربر من الإباضية والصفرية وغيرهم فرصة تغيب عمر بن حفص عن إفريقية ، وانتقضوا عليه وهاجموا مدينة القيروان وانتقضت إفريقية من كل ناحية ، ومضوا إلى طبنة فأحاطوا بها فى اثنى عشر عسكراً منهم أبو قرة الصفرى فى أربعين ألفاً ، وعبد الرحمن بن رستم فى خمسة عشر ألفاً ، وأبو حاتم فى عسكر كثير ، وعاصم السدرانى الإباضى فى ستة آلاف ، والمسعود الزناتى الإباضى فى عشرة آلاف فارس(٣)

---

(١) انظر ابن الأثير ٥/٢٧٨

(٢) طبنة بالضم ثم السكون ونون مفتوحة على ضفة الزاب

(٣) ابن الأثير ٥/٢٨٣

واستطاع عمر بن حفص بما بذله من أموال وثياب إلى أخى أبى قرة مقدم الصفرية من الخوارج أن يفك حصار طبنة، فتركوها وحاصروا القيروان ، فلما اشتد الضيق بأهلها قصدهم عمر بن حفص وقد تمكن من دخولها . ولما علم المنصور بما نزل بجيش عمر بن حفص من الشدة أرسل يزيد بن حاتم بن قبيصة فى ستين ألف فارس ، فوصل إلى إفريقية سنة ١٥٤ﻫ بعد مقتل عمر بن حفص، وبادر أبو حاتم الخارجى إلى لقائه ، ولكن الهزيمة لحقته ، وقتل هو وجنده من البربر فى ربيع الأول سنة ١٥٥ ﻫ ، وكان عدة من قتل فى المعركة ثلاثين ألفا . وجعل آل المهلب يقتلون الخوارج ويقولون: يالثارات عمر بن حفص وأقام شهراً يقتل الخوارج ثم رحل إلى القيروان(١). وبهذا استتب الأمن ببلاد المغرب فى عهد المنصور بعد تلك المعارك الكثيرة حتى قيل: « إنه كان بين الخوارج والجنود (العباسيين) من لدن قاتلوا عمر ابن حفص إلى انقضاء أمرهم ثلاثمائة وخمس وسبعون وقعة »(٢) .

---

(١) ص ٢٨٤ — ٢٨٥

(٢) ص ٢٨٤

المنصور وبلاد الأندلس :

لعل أهم حدث يتصل بالسياسة الخارجية فى عهد المنصور هو انفصال الأندلس عن العالم الاسلامى الذى خضع لسلطان العباسيين، وقد كانت بلاد الأندلس عندما تأسست دولة العباسيين سنة ١٣٢ هـ مسرحا للخلافات القبلية بين اليمنيين والمضريين . وقابل العباسيون من المشاكل الكبرى عقب قيام دولتهم ، فصرفهم ذلك عن إخضاع بلاد الأندلس لسلطانهم،وظلت الأندلس غارقة فى خلافاتها الداخلية حتى استطاع عبد الرحمن بن معاوية حفيد هشام بن عبد الملك أن يدخل الأندلس سنة ١٣٨ هـ وقيل سنة ١٣٩ هـ (١) وأن يؤسس فيها ملكا جديداً لبنى أمية التى أصبحت حضارتها منبعاً لحضارة الغرب الحديثة .

وقد عمل المنصور على إعادة سلطانه على بلاد الأندلس فأرسل فى سنة ١٤٦ هـ العلاء بن مغيث من إفريقية إلى مدينة باحيسة من الأندلس ، ولبس السواد ، وقام بالدولة العباسية ، وخطب للمنصور واجتمع عليه خلق كثير ، فخرج إليه عبد الرحمن الأموى فالتقيا بنواحى اشبيلية ، وتحاربا أياما ، فانهزم العلاء وأصحابه ، وقتل منهم فى المعركة سبعة آلاف وقتل العلاء ، وأمر بعض التجار بحمل رأسه ورءوس جماعة من أصحابه إلى القيروان وإلقائها بالسوق سراً ، ففعل ذلك . ثم حمل منها شيئاً إلى مكة ، فوصلت وكان بها المنصور ، وكان مع الرؤوس لواء أسود وكتاب كتبه المنصور

للعلاء(١). وبذلك انتهت أهم محاولة لاسترجاع الاندلس ، فالجأ أبو جعفر إلى استعمال اللين واستمالة عبد الرحمن بإرسال الهدايا إليه والإشادة بجليل صفاته وعظيم مقدرته ، فيقول عنه : « ... اقتحم جزيرة شاسعة المحل ، نائية المطمع ، عصبية الجند ، ضرب بين جندها بخصوصيته ، وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته ، واستمال قلوب رعيتها ... إن ذلك لهـو الفتى كل الفتى الذى لا يكذب ما دحه(٢) » .

ولما لم تنجح هذه السياسة مع عبدالرحمن لجأ المنصور إلى «بيبين» ملك الفرنجة لمساعدته على عبد الرحمن ، وكانت فاتحة هـذه الصداقة الجديدة أن أرسل إلى « بيبين » سفراء أقاموا فى بلاطه عدة سنين ثم عادوا إلى المنصور يصحبهم سفراء من الفرنجة ، ثم رجع هؤلاء إلى « بيبين » محملين بالهدايا النفيسة ، ولم تؤد هذه السفارات إلى نتيجة حاسمة سوى ما ولدته فى نفس عبد الرحمن من خوف هجوم الفرنجة على بلاده ، وتعميق كراهيته للمنصور ، وإزاء هذه السياسة المشتركة بين ملك الفرنجة والخليفة العباسى لم يحاول عبـد الرحمن إظهار عدائه الحربى للمنصور . ومهما يكن الأمر فقـد أخفقت الخلافة العباسية فى القضاء على عبد الرحمن ، وأصبح أمير الأندلس دون منازع ومحيي دولة الامويين بالمغرب ، وحكم الاندلس من سنة ١٣٨ — ١٧٢هـ (٧٥٥ — ٧٨٨ م) وهى مدة طويلة قضاها عبد الرحمن فى توطيد عرش البلاد والتغلب على أعدائه .

---

(١) انظر ابن الأثير ٥ / ٢٧٢
(٢) المقرى : نفح الطيب ١ / ١٥٥ — ١٥٦

وتدل تلك السياسة التى سلكها المنصور مع عبد الرحمن ومودته لملك الفرنجة على تغلب الروح السياسية على الروح الدينية ، فقد كان خليفة بغداد يكيد بهذه الصداقة إلى أمير الاندلس المسلم ، ويهدده بملك الفرنجة ، كما كان ملك الفرنجة يقوم بنفس الدور تجاه امبراطور الدولة البيزنطية المسيحى . وقد أخطأ المنصور فى اتباعه تلك السياسة تجاه عبد الرحمن والتى سار عليها أبناؤه من بعده .

العلاقة مع البيزنطيين :

كانت الحرب بين المسلمين والبيزنطيين لا تنقطع منذ ظهور الإسلام ، وهى حلقة من سلسلة النضال القديم بين الشرق والغرب ، ونزاعهما أمر لابد منه لوجود الحدود المشتركة بين الدولتين فى الأناضول وأرمينية من جهة ولوجود مصالح اقتصادية متعارضة ناتجة عن الإشراف على التجارة من جهة أخرى . وقد حاول العرب الاستيلاء على القسطنطينية ثلاث مرات : الأولى فى عهد عثمان ، والثانية فى عهد معاوية بن أبى سفيان ، والثالثة فى عهد سليمان بن عبد الملك ، ليتم بذلك احتلال بلاد الروم كما تم من قبل احتلال الفرس . وقد كان من أثر الحروب الأهلية فى أواخر الدولة الأموية أن ضعفت قوة العرب ، واتخذ إمبراطور البيزنطيين قسطنطين الخامس (كوبر نيموس) ٧٤٠ — ٧٧٥م من هذا الضعف فرصة لشن الإغارات على البلاد الإسلامية المتاخمة لبلاده . ولما انتقل الحكم إلى العباسيين ونقلوا العاصمة إلى العراق أدى ذلك إلى إهمال الأسطول فى البحر الأبيض المتوسط ، كما أنه أبعد المركز عن الحدود البيزنطية .

وإزاء ذلك رسم العباسيون سياسة أخرى تجاه الروم ، وجعلوا

نشاطهم الحربى عبارة عن غارات الغرض منها إظهار القوة وتخويف العدو والرد على ما قد يقوم به من نشاط مماثل ، وأصبح احتلال القسطنطينية حلما بعيداً لا هدفاً توجه إليه القوى والجهود ، كما كانت الحالة فى العصر الأموى .

وقد بدأ البيزنطيون يشنون الغارات على العباسيين فى عهد أبى جعفر، وأول ما كان من ذلك فى سنة ١٣٨ هـ إذ قام الروم بقيادة الامبراطور قسطنطين الخامس بالإغارة على مَلَطْيَة فدخلوها عنوة وقهروا أهلها وهدموا سورها ، ولكن الإمبراطور عفا عمن فيها من الذرية والمقاتلة . ولما علم المنصور بذلك أغزى الصائفة أخاه العباس ابن محمد بن على مع عمه صالح بن على وعيسى بن على(١) فبنى صالح ما كان ملك الروم أخربه من سور مَلَطية ، وقد أقام فى استتمام ذلك إلى سنة ١٣٩ هـ ، ثم غزوا الصائفة من درب الحدث فوغلا فى أرض الروم ، وغزا مع صالح أختاه أم عيسى ولبابة ، بنتا على ، وكانتا نذرتا إن زال ملك بنى أمية أن تجاهدا فى سبيل الله ، وغزا من درب ملطية جعفر بن حنظلة البهرانى . وفى هذه السنة (١٣٩هـ) كان الفداء بين المنصور وملك الروم ، فاستفدى المنصور أسرى قاليقلا وغيرهم من الروم وبناها وعمرها وردّ إليها أهليها ، وندب إليها جندا من أهل الجزيرة وغيرهم فأقاموا بها وحموها ، ولم يكن بعد ذلك صائفة — فيما قيل — إلا سنة ١٤٦ لتشاغل المنصور بقتال محمد وابراهيم ابنى عبد الله بن الحسن ، وقال البعض : إن الحسن ابن قحطبة غزا الصائفة مع عبد الوهاب بن ابراهيم الإمام فى سنة ١٤٠ وأقبل قسطنطين ملك الروم فى مائة ألف فبلغ جَيْحان فسمع

---

(١) يذكر الطبرى ٧ / ٤٩٧ ، وابن الأثير ٥ / ٢٣١ هذه الصائفة فى سنة ١٣٨ ثم يقولان : وقيل كان ذلك فى سنة ١٣٩ هـ ، انظر العيون والحدائق ٣ / ٢٣٤ .

كثرة المسلمين فأحجم عنهم ، ثم لم يكن بعدها صائفة إلا سنة ١٤٦هـ. ولم تزل الصوائف(١) بعد ذلك تتوالى إلى سنة ١٥٥ هـ وفيها طلب عاهل الروم الصلح على أن يؤدى للمسلمين الجزية(٢) ثم كانت هناك صوائف فى سنى ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ هـ . وذلك فى أواخر عهد المنصور .

ومن التحصينات العسكرية التى عنى بها المنصور بناء مدينة الرافقة على ضفة الفرات الشرقية سنة ١٥٥ هـ وهى متصلة البناء بمدينة الرقة بينهما ثلاثمائة ذراع ، وبنيت على طرز مدينة بغداد ، وجعل لها سورين بينهما خندق ، ورتب فيها الجند من أهل خراسان(٣) ، وذلك لتكون قاعدة عسكرية فى غزواته الشمالية .

ولم يكتف المنصور بتحصين الحدود بين البيزنطيين ، بل اهتم كذلك بالحدود المواجهة للخزر (شمال غرب بحر قزوين) ، فبنى مدينة « كمخ » و « المحمدية » ومدينة « باب واق » وعدة مدن جعلها ردءاً للمسلمين وأنزلها المقاتلة(٤) ، وذلك بعد تحرش الخزر

---

(١) الطبرى ٨ / ٤٦ ، ابن الأثير ٦/٢

(٢) الصوائف ج صائفة وهى غزوة الروم وسميت بذلك لانهم كانوا يغزون صيفا ، وأما الشواتى فهى الحروب مع الروم فى الشتاء .

(٣) البلاذرى : الفتوح ص ١٨٧ ؛ الطبرى ٨ / ٤٦ .

(٤) تاريخ اليعقوبى ٣ / ١١٢

واعتدائهم على أراضى المسلمين(١) .

(١) الدورى : العصر العباسى الاول ص ٩٣ . وراجع ايضا عن العلاقات الخارجية : الدولة العباسية للخضرى وتاريخ الإسلام للدكتور حسن ابراهيم ج٢ ، والتاريخ الاسلامى والحضارة . د . شلبى ، الامبراطورية البيزنطية لنورمان بينز ، الامبراطورية البيزنطية لاومان . تاريخ اوربا فى العصور الوسطى لفشر القسم الثانى ، الامبراطورية البيزنطية د . العدوى ، العرب والروم لفازيليف .

تأسيس مدينة بغداد :

كانت أول عاصمة للدولة الإسلامية المدينة المنورة وبقيت كذلك في عهد الخلفاء الثلاثة من بعده ، فلما كان عهد الخليفة الرابع علي ابن أبي طالب ، وقامت الحرب بينه وبين عائشة وطلحة والزبير وكان ميدانها العراق اضطر إلى ترك المدينة واتخاذ الكوفة مقراً لخلافته ، وفيها كان تدبير شئون الدولة من سياسية وحربية ودينية، كما أرسلت منها الجيوش لحرب معاوية في صفين وغيرها من الأطراف. ولما استشهد عليّ سنة ٤٠هـ بويع بعده ابنه الحسن بالكوفة، واتخذها مقراً لخلافته التي لم تعمر حيث تنازل عن حقه في الخلافة لمعاوية ابن أبي سفيان ، وكان من البديهي أن يختار معاوية عاصمة للدولة الجديدة ، فكانت دمشق الشام التي قضى فيها معاوية نحو عشرين عاما أميراً قبل أن يلي الخلافة . واستمرت عاصمة للدولة الأموية حتى سقوطها سنة ١٣٢ هـ .

قامت الدولة العباسية وبويع أبو العباس السفاح بالخلافة في الكوفة سنة ١٣٢ هـ . وتحول بذلك مركز الخلافة من الشام إلى العراق ،

انصرف اهتمام المنصور إلى تشييد حاضره جديدة للدولة. وكان قد شرع في ذلك، عقب توليه الخلافة مباشرة. فتقول النصوص أنه كان يبحث عن موضع مناسب لتلك العاصمة. وكان السفاح قد استقر في الأنبار في الهاشمية وهي التي استقر فيها المنصور في أول عهده - ولما كانت الهاشمية على الضفة اليسرى للفرات فإنها كانت قريبة من الكوفة. والكوفة كانت مركز العلويين وهي التي سببت الكثير من القلاقل للدولة الأموية ربما كان هذا هو السبب في عدم اختيار ذلك الموضع لبناء العاصمة الكبرى.

وفى الهاشمية ثار الراوندية على المنصور وكان على وشك أن يقتل بها ، لذا فقد أدرك أن بقاءه فى مدينة كهذه غير مأمون العاقبة، لأنها لم تكن منيعة من جهة ، وهى قريبة من الكوفة من جهة ثانية ، وكان المنصور يخشى أهلها حتى وصفهم بقوله : أهل الشقاق والنفاق والإغراق فى الفتن ... فوالله ما هى بحرب فأحاربها ، ولا هى بسلم فأسالمها ، فرق الله بينى وبينها(٢) .

لذلك قرر أن يشيّد مدينة جديدة تتحقق فيها المنعة ، وتصلح لأن تكون عاصمة لهذه الدولة الكبيرة . ونشأت فكرة مدينة بغداد .

وكان فى ذهن المنصور صورة واضحة عن المكان الذى ينبغى أن تقوم عليه العاصمة الجديدة وتتوفر فيه مزايا خاصة :طيب الهواء، حسن الجو، يسهل الاتصال بينه وبين أكثر بقاع المملكة الإسلامية، له حصانة طبيعية ضد هجمات الأعداء .

ورأى المنصور أن يتولى بنفسه البحث عن الموقع المناسب لإنشاء العاصمة الحديثة ، فأخذ يتنقل فى أنحاء العراق يرتاد الأمكنة متبعاً ضفاف دجلة صعوداً من جَرْجَرايا إلى الموصل ، فذكر له أولا موضع قريب من بارمّا تحت الموصل ، فلم يستحسنه ، حيث إنه ضيق لا يحمل الجند والناس والجماعات ، وقال . أريد موضعاً يرتفق

---

(٢) المسعودى مروج الذهب: ٣ / ٢٢٦

الناس ويوافقهم مع موافقته لى ولا تغلوا عليهم فيه الأسعار، ولا تشتد فيه المؤنة ، فإنى إن أقمت بموضع لا يجلب إليه من البر والبحر شيء غلت الأسعار ، وقلت المادة واشتدت المؤنة وشق ذلك على الناس ، وقد مررت فى طريقى على موضع فيه مجتمعة هذه الخصال فأنا نازل فيه وبائت فيه ، فإن اجتمع لى فيه ما أريد من طيب الليل والموافقة مع احتماله الجند والناس ابتنيته . وأتى ذلك المكان الذى وقع عليه اختياره وبات فيه ليلة حتى أصبح ، فبات أطيب مبيت فى الأرض وأرفقه ، وأقام يومه فلم ير إلا ما يحب . وقال لمن معه : هذا موضع أبنى فيه ، فإنه تأتيه المادة من الفرات ودجلة وجماعة من الأنهار ولا يحمل الجند والعامة إلا مثله(١) ثم دعا أعيان تلك الجهات فسألهم عن مواضعهم وكيف هى فى الحر والبرد والأمطار والوحول والبق والهوام ، فأخبره كل واحد بما عنده من العلم .

وبعث رجالا من عنده فباتوا فى هذه النواحى (وهى الدير وبغداد والمخرم والدير المعروف ببستان القس والعتيقة) وأتوه بأخبارها ، فأعجب المنصور موضع بغداد ، وللتأكد من صلاحية المكان شاور المنصور صاحب بغداد ، وهو أحد الدهاقين — وكان هذا المكان قرية تسمى بغداد(٢) — فقال: يا أمير المؤمنين، سألتنى

(١) أنظر الطبرى ٧/٦١٥ — ٦١٦ ، ابن الأثير ٥/٢٦٤ — ٢٦٥

(٢) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ١ / ٦٢ . كانت بغداد قبل تمصيرها قرية قديمة بناها بعض ملوك فارس ، وتقع على الشاطىء الغربى لنهر دجلة فى أعلى المكان الذى يلتقى فيه نهر الصراة بنهر دجلة وقد بقيت قباب قرية بغداد القديمة إلى حياة الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ ﻫ، كما كانت موقعا يقصده تجار الفرس والصين بتجاراتهم . وغزاها المسلمون سنة ١٣ ﻫ . بقيادة المثنى بن حارثة وغنموا منها مغانم كثيرة (المرجع نفسه ص ٢٦ — ٢٧) وانظر الطبرى ص ٦١٦ — ٦١٨ ، معجم البلدان لياقوت مادة بغداد وذكر « لى سترينج » أن البحث الحديث يؤيد وجود بغداد القديمة (انظر بغداد فى عهد الخلافة العباسية تعريب بشير يوسف فرنسيس ص ١٧ طبع بغداد ١٣٥٥ ﻫ — ١٩٣٦م. ص ١٧ ، تاريخ الاسلام السياسى ٢ / ٢٧٢ .

عن هذه الأمكنة وطيبها وما يختار منها ، فالذى أرى أن تنزل أربعة طساسيج(١) فى الجانب الغربى طسوجين وهما قطربل وبادوريا وفى الجانب الشرقى طسوجين وهما نهر بوق وكلواذى ، فأنت تكون بين نخل وقرب الماء، فإن أجدب طسوج وتأخرت عمارته كان فى الطسوج الآخر العمارات ، وأنت يا أمير المؤمنين على الصراة ، تجيئك الميرة فى السفن من المغرب ، وفى الفرات تجيئك طوائف مصر والشام وتلك البلدان ، وتجيئك المسيرة فى السفن من الصين والهند والبصرة وواسط فى دجلة، وتجيئك الميرة من أرمينية وما اتصل بها فى تامّرا ، حتى تصل إلى الزاب ، وتجيئك الميرة من الروم وآمد والجزيرة والموصل فى دجلة ، وأنت بين أنهار لا يصل إليك عدوك إلا على جسر أو قنطرة ، فإذا قطعت الجسر وأخربت القناطر لم يصل إليك عدوك ، وأنت بين دجلة والفرات لايجيئك أحد من المشرق والمغرب إلا احتاج إلى العبور ، وأنت متوسط للبصرة وواسط والكوفة والموصل والسواد كله ، وأنت قريب من البر والبحر والجبل ... والتدبير فى المدن أن تتخذ لها الأسوار والخنادق والحصون ، ودجلة والفرات خنادق لمدينة أمير المؤمنين(٢) . فأعجب المنصور هذا القول . ووجه فى حشر الصناع والفعلة من الشام والموصل والجبل (غرب إيران) والكوفة وواسط فأحضروا ، وأمر باختيار قوم من أهل الفضل والعدالة والفقه والأمانة والمعرفة بالهندسة، فجمعهم وتقدم إليهم أن يشرفوا على البناء ، وأن يكون بناء المدينة على الصفة التى تمثلها فى نفسه . ويقول

---

(١) طساسيج . ج طسوج وهو الناحية أو الجهة أو الموضع .

(٢) الطبرى ٧ / ٦١٦ - ٦١٧ ، ابن الأثير ٥ / ٢٦٤ ، ياقوت : معجم البلدان ١ / ٤٠٨ مادة بغداد وانظر الفخرى ص ١٣٩

الخطيب البغدادي(١) : « إن المنصور كتب إلى كل بلدة بإرسال من فيه ممن يفهم شيئاً في أمر البناء ، فتكامل له من الفعلة وأهل المهن والصناعات ألوف كثيرة . واشتغل في بناء المدينة — كما رواه اليعقوبي(٢) — مائة ألف من أصناف المهن والصناعات .

وروى أن المنصور لما عزم على بناء بغداد أحب أن ينظر إليها عيانا ، فأمر أن تخط بالرماد ، ثم دخل من موضع كل باب ومر في طرقات المدينة ورحابها ، وهي مخطوطة بالرماد ، ثم أمر أن يوضع على تلك الخطوط حبّ القطن (كرات من القطن) ويصب عليه النفط ، وتوقد فيه النار ، فنظر إليه والنار تشتعل ، وبذلك أمكنه الوقوف على رسم مدينته الجديدة . وعند ذلك أمر المنصور بحفر الأساس على ذلك الرسم(٣) ، وكان ذلك سنة ١٤٥ هـ ووضع المنصور بيده أول آجرّة في بنائها وقال : بسم الله والحمد لله والارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، ثم قال : ابنوا على بركة الله(٤) .

وكان وضع أساس بغداد في الوقت الذي اختاره المنجمون فقد أمر أبو سهل بن نوبخت بأخذ الطالع ، فخبره بما تدل النجوم عليه من طول بقائها وكثرة عمارتها ، وفقر الناس إلى ما فيها ، وأنه لا يموت بها خليفة أبدا حتف أنفه ، فتبسم المنصور وقال : الحمد لله

---

(١) تاريخ بغداد ١ / ٦٧
(٢) البلدان ص ٧
(٣) الطبرى ص ٦١٨
(٤) المصدر السابق ٦١٦ ومعجم البلدان لياقوت

على ذلك (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) .
وكان من أعجب العجب أن المنصور مات وهو حاج ، والمهدى ابه خرج إلى نواحى الجبل فمات بما سَبَذان بمكان يعرف بالرّذ ، والهادى ابنه مات بعيسَاباذ بالجانب الشرقى من بغداد، والرشيد مات بطوس ، والأمين أخـذ ثم قتل بالجانب الشرقى ، والمأمون مات بالبـذَنْدون — من نواحى المصيصة بالشام — والمعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر وباقى الخلفاء ماتوا بسامَرّا . ثم انتقل الخلفاء إلى التاج من شرقى بغداد ، وتعطلت مدينة المنصور منهم(١) . وقد تحقق ما تكهّن به يومئذ منجم البلاط ، إذ لم يمض بضع سنوات حتى ازدادت عمارة بغداد فأصبحت مركزاً تجارياً خطيراً فى ميدان الاقتصاد وعاصمة دولة ذات مكانة سياسية عالمية ، وكأن مدينة المنصور هـذه أعجوبة ساحر خلقت بين عشية وضحاها وورثت ما كان من مجد وعز للمدائن وبابل ونينوى وأور وسواهامن عواصم الشرق القديم . ثم شقت بغداد لنفسها طريقا إلى المجد والسيادة لم تعرفه سواها من مدن العصور الوسطى باستثناء القسطنطينية . وهاهى اليوم بعد تقلبات الزمن تبعث إلى الوجود عاصمة جديدة لجمهورية العراق الجديدة فى ثورة ١٤ تموز (يولية) ١٩٥٨ م

وعهد المنصور إلى أبى حنيفة فى عدّ اللبن والأجرّ والإشراف على البناء ، فابتكر طريقة سهلة — ولعلها حديثة — لعدّ الطوب بالقصب، فإذا كان طول الطوبة مثلا ٣٠ سم أتى أبو حنيفة بقصبة قاس بها صفّ الطوب وبذلك أمكنه معرفة عد الطوب بالضبط فى زمن قصير .
وقد احتفل المنصور بوضع الحجر الأساسى لبناء بغداد احتفالا

---

(١) ياقوت معجم البلدان ١/ ٤٦٠ — ٤٦١ .

أشير بهدمه لئلا يتحدث الناس أنك عجزت عن هدم ما بناه غيرك . فأعرض المنصور عنه وأمسك عن هدمه(١) .

وكان بناء المدينة على شكل مستدير فسميت بالمدينة المدورة . وتخطيط المدينة على شكل دائرى اتجاه جديد فى فن بناء المدن عند المسلمين ، يظهر أنهم أخذوه عن الفرس . ويرى الخطيب البغدادى أن مزية الاستدارة هى كون المركز على مسافات متساوية من أجزاء الدائرة وأن المربعة إذا كان الملك فى وسطها كان بعضها أقرب إليه من بعض(٢) .

ولعل المنصور تأثر بهندسة العواصم الآسيوية القديمة كمدينة (أكبتانا) — محل همدان الحالية — عاصمة الميديين فإنها كانت محاطة بسبعة أسوار لا ترتفع عن بعضها إلا بمقدار المشارف ، وفى وسط الدائرة قصر الخليفة المسمى قصر الذهب ، وجامع المنصور ولم يكن حول هذين بناء إلا داراً بناها للحرس من ناحية باب الشام وسقيفة كبيرة ممتدة على عمد مبنية بالآجر والجص ، خص إحداها بصاحب الشرطة والأخرى بصاحب الحرس(٣) وجعل حول ذلك منازل أولاده ، ثم قصور الأمراء وكبار رجال الدولة ، فدواوين الحكومة ، ثم دور الأهالى تتخللها الأسواق . وكان للمدينة أربعة شوارع رئيسية ، ويتفرع من هذه الشوارع شوارع أخرى صغيرة تصل بينها .

---

(١) الطبرى : ٧ / ٦٥٠ – ٦٥١ ، الخطيب ١ / ١٢٩ ، ابن الأثير : ٥ / ٢٧٢ ، الفخرى ص ١٣٤ – ١٣٥ ، العيون والحدائق ص ٣٥٦ ، انظر لى سترينج ص ٤٢ – ٤٣

(٢) تاريخ بغداد ١ / ٧٢ ، انظر الطبرى ٧ / ٦٥١

(٣) لى سترينج ص ٣٧ .

ويظهر الأثر الفارسى فى تخطيط المدينة إذا لاحظنا فصل الخليفة عن الرعية وجعل له مقاماً سامياً يصعب الوصول إليه ، كما أن ضخامة القصر والإيوان تظهر روعة الملك. ثم إن فكرة الاستدارة، وحصر بيوت السكان فى أحياء منفصلة يمكن من غلقها ليلا وحراستها بصورة دقيقة يشير إلى السلطة المطلقة المقتبسة من الفرس والتى تتعارض مع الديموقراطية الإسلامية(١) .

وجعل للمدينة سوران ، سور خارجى وسور داخلى ، وكان أطول من الخارجى ، ويحيط بالسور الخارجى خندق عميق أجرى فيه الماء من القناة التى تأخذ من نهر كرخايا ، وبنيت حافتاه بالجص والآجر .

وللمدينه أربعة أبواب ، لكل باب منها بابان، باب دون باب وهى: باب الكوفة ويقع فى الجنوب الغربى ، وباب البصرة ويقع فى الجنوب الشرقى ويشرفان على قناة الصَّراة ، وباب خراسان ويقع فى الشمال الشرقى وكان على نهر دجلة ويوصل إلى قنطرة السفن الرئيسة ، وكان يسمى باب الدولة لإقبال قوة الدولة العباسية من خراسان ، وباب الشام ويقع فى الشمال الغربى ويوصل إلى طريق الأنبار فإذا جاء أحد من الحجاز دخل من باب الكوفة ، وإذا جاء من المغرب دخل من باب الشام ، وإذا جاء أحد من الأهواز والبصرة وواسط واليمامة والبحرين دخل من باب البصرة ، وإذا جاء من المشرق دخل من باب خراسان .

وجعل المنصور كل باب مقابلا للقصر وبنى على كل باب قبّة .

---

(١) العصر العباسى للدكتور الدورى ص ٩٧ .

وكان على كل باب من أبواب المدينة الأوائل والثوانى باب حديد عظيم جليل المقدار. وروى أن أبا جعفر نقل الأبواب من حديقة واسط التى أنشأها الحجاج وأن الحجاج وجدها على مدينة كان بناها سليمان ابن داود عليه السلام بإزاء واسط كانت تعرف بـ (زَنْدَوَرْد)، وكانت خمسة، وللمدينة ثمانية أبواب: أربعة داخلة وأربعة خارجة، فصار على الداخلة أربعة أبواب من هذه الخمسة، وعلى باب القصر الخارج الخامس منها، وصير على باب خراسان الخارج بابا جيء به من الشام من عمل الفراعنة، وصير على باب الكوفة الخارج بابا جيء به من الكوفة، كان عمله خالد بن عبد الله القسرى، وأمر باتخاذ باب لباب الشام فعمل ببغداد، فهو أضعف الأبواب كلها (١) ولا تعرف الجهة التى جىء منها بباب البصرة (٢). وكان قطر مدينة بغداد من باب خراسان إلى باب الكوفة ٢٢٠٠ ذراع، ومن باب البصرة إلى باب الشام كذلك.

وهكذا فقد كانت المدينة عبارة عن دوائر ذوات مركز واحد يقوم فى قلبها قصر الخليفة المسمى بباب الذهب أو قصر القبة الخضراء، وسمى قصر الذهب أيضا لأن بابه كان من ذهب، ومساحته ٤٠٠ ياردة فى مثلها، وفى وسطه قبة عظيمة خضراء اللون، وعلى رأس القبة تمثال فارس فى يده رمح، وارتفاع القبة فوق سطح الأرض ١٢٠ قدماً. وقد عزى إلى هذا التمثال فى العهد المتأخر قوة سحرية

---

(١) الطبرى ٧ / ٦٥١، الخطيب البغدادى ١ / ٥٧، ومعجم البلدان لياقوت ١/٤٦٠

(٢) لى سترينج ص ٢٩. ويقول فى ص ٢٨ إن أربعة من الأبواب الخمسة أقيمت على أبواب سور بغداد الكبير، ونصب الباب الخامس على باب قصر المنصور الكائن فى الرحبة المركزية.

فقيل : إن السلطان إذا رأى الفارس مستقبلا بعض الجهات مادًّا الرمح نحوها علم أن العدو قادم من تلك الجهة(١) .

وقد فنّد ياقوت(٢) هذه الخرافة وذكر أنها من المستحيل والكذب الفاحش وأشار إلى أن الصنم لا محالة يتوجه إلى جهة ماقى كل حين مما يدل على أنه لا يزال عدو يخرج على المدينة فى كل وقت. وقال: « فأما الملة الإسلامية فإنها تجلّ عن هذه الخرافات» .

وشبيه بهذه الخرافة ماقيل إن المنصور بنىالقبة الخضراء ليصرف الناس عن الكعبة الشريفة ، لأن من هو فى مركز المنصور كخليفة للمسلمين ودولته فى الأصل قامت على أساس الدين ، وفوق هذا فقد حج قبل الخلافة ، وحج بعد توليه الحكم أكثر من مرة ، وتوفى سنة ١٥٨ هـ ، وهو محرم بالقرب من مكة . كل ذلك يبعد هذه التهمة عن المنصور التى هى من صنع خصوم العباسيين .

وكانت القبة الخضراء تاج البلد وعلم بغداد ومأثرة من مآثر بنى العباس . وسقط رأس هذه القبة لسبع خلون من جمادى الثانية سنة ٣٢٩ هـ = ٩ آذار مارس ٩٤١ م بسبب مطر غزير ورعد هائل فى بغداد(٣) .

وكان قصر الذهب أول قصر بناه المنصور . وبعد بضع سنين

---

(١) الخطيب البغدادى ١ / ٧٣
(٢) معجم البلدان لياقوت ١ / ٤٦٠
(٣) الخطيب : ١ / ٧٣ ، معجم ياقوت : ١ / ٤٦٠

شرع في تشييد قصر الخلد(١) المشهور ، ويقع خارج باب خراسان على ضفة دجلة .

أما الجامع العظيم فقد جعله المنصور في مقابلة قصر الذهب ، وكان منحرفاً عن القبلة لأنه شيد بعد بناء القصر ، وكانت مساحته عند أول تصميمه تعادل ربع مساحة القصر ، وكان أول جامع بني في بغداد ، ولم يزل على حاله كما شيده المنصور مدة نصف قرن حتى زمن هرون الرشيد إذ أمر بنقضه وإعادة بنائه بالآجر والجص — وكان في الأصل من اللبن والطين — وكتب عليه إسم الخليفة الرشيد . وقد أدخلت على الجامع بعد ذلك زيادات وإصلاحات . والظاهر أن الجامع سلم من الخراب في أثناء حصار المغول لبغداد سنة ٦٥٦ ﻫ — ١٥٢٨ م لأن إسمه لم يرد في ثبت الجوامع والمساجد ومقامات الأئمة التي احترقت يومئذ والتي أمر هولاكو بتجديدها بعد ذلك . أما المدينة المدورة « بغداد » فلم يبق لها في هذه الأيام أثر يشير إليها .

وكان قطر المدينة من باب خراسان إلى باب الكوفة ٢٢٠٠ ذراع ومن باب البصرة إلى باب الشام مثلها(٢) .

ويعتبر قصر الذهب والجامع مركز الدائرة ، حيث تفرعت من ابواب السور الداخلي الذي يحيط بمركز المدينة أربعة شوارع رئيسية منتظمة متجهة إلى خارج المدينة على شكل محاور الدائرة حتى تنتهي إلى الخندق . وكانت أبواب القواد تشرف على رحبة

---

(١) سمي بالخلد تشبيها له بجنة الخلد ، وقد اندثر الآن فلا أثر له

(٢) الخطيب ١ / ٧٣

الجامع فشكا الناس ذلك إلى المنصور ، فأمرهم بتحويل أبوابهم حتى لا تطل على الجامع وجعلت فى طرف المدينة .

وكان على كل باب من أبواب المدينة قائد فى ألف جندى(١) . وكان لا يدخل أحد من هذه الأبواب إلا راجلا ماعدا دوادين على عم الخليفة فإنه كان به علّة .

وجاء وافد من قبل ملك الروم إلى المنصور فرأى المدينة بعد تشييدها فقال الرومى : إنك بنيت بناء لم يبنه أحد كان قبلك ، وفيه ثلاثة عيوب ، قال : وماهى ؟ قال : أما أول عيب فيه فبعده عن الماء ولا بدّ للناس من الماء لشفاههم ، وأما العيب الثانى فإن العين خضرة وتشتاق إلى الخضرة وليس فى بنائك هذا بستان ، وأما العيب الثالث فإن رعيتك معك فى بنائك ، وإذا كانت الرعية مع الملك فى بنائه فشا سرّه . وقف المنصور بذلك على عيوب المدينة ولكنه تجلد وقال لضيفه : أما قولك فى الماء ، فحسبنا من الماء ، مابلّ شفاهنا ، وأما العيب الثانى فإنا لم نخلق للعب واللهو ، وأما قولك فى سرى فمالى سر دون رعيتى . ولما خرج رسول ملك الروم بعث أبو جعفر فى طلب اثنين من رجاله ، وقال لهما مُدا لى قناتين من دجلة ، واغرسا لى العباسية ، وانقلا الناس إلى الكرخ وقد قام حاجبه الربيع ببناء الكرخ فى سنة ١٥٧هـ جنوبى بغداد من مال الخليفة الخاص ، وحولت إليها أسواق المدينة وأوسع المنصور طرق بغداد حتى غدا اتساع كل منها أربعين ذراعاً ، وأمر بهدم ماشخص من الدور عن ذلك المقدار(٢).

وبعد أن تم تشييد المبانى الرئيسية فى المدينة والمسجد الكبير

---

(١) ص ٧٧
(٢) انظر الطبرى ٧ / ٦٥٣ ، الخطيب ١ / ٧٨ - ٨٠

ودواوين العمل وغيرها مدّ المنصور قناة من نهر دُجَيْل أحد فروع دجلة ، قناة من نهر كرخايا الآخذ من الفرات وجرّهما إلى مدينته فى عقود وثيقة من أسفلها ، محكمة بالصاروج (وهو حجر الكلس) والآجر من أعلاها ، وكانت كل قناة منهما تدخل المدينة وتنفذ فى الشوارع والدروب والأرباض (الضواحى) وتجرى صيفاً وشتاء لا ينقطع ماؤها فى وقت وأقطع المنصور أصحابه القطائع فعمروها وسميت بأسمائهم(١) وجرّ لأهل الكرخ وما اتصل به عدة أنهر .

وعنى المنصور كذلك بتنظيم مدينته ونظافة شوارعها وطرقها ؛ فكانت الرحاب تكنس كل يوم ويحمل التراب خارج المدينة(٢) . وكانت الروايا تدخل على ظهور البغال ، فرأى الخليفة أن ذلك لايتفق وعظمة حاضرة الخلافة ، فأمر بتوصيل الماء إلى قصره . وذلك بعد حديث جرى بينه وبين عمه عبد الصمد بن على .

وبلغت نفقات بناء مدينة السلام وجامعها وقصر الذهب بها والأسواق والخنادق وقبابها وأبوابها أربعة ملايين وثمانمائة وثلاثة وثلاثين درهما ، ومبلغها من الفلوس النحاسية مائة ألف ألف فلس وثلاثة وعشرون ألف فلس على رواية الطبرى (٣) ويقول « لى سترينج » : إذا حولنا هذه المبالغ إلى العملة الحالية نجد قيمة الدراهم الفضية تعادل مائة وستين الف دينار ، بينما قيمة الفلوس النحاسية تعادل مائتى ألف دينار . ويقدر الخطيب البغدادى فى

---

(١) الطبرى ص ٧٩ ، ياقوت : معجم البلدان ١ / ٤٦٠

(٢)!

(٣) ويوافق الطبرى ابن الاثير (٥ ٢٧٢) والفخرى (ص ١١٤) فى مقدار ماأنفق من الدراهم .

رواية(١) وياقوت الحموى الذى جاء بعده(٢) مجموع ما أنفق ثمانية عشر ألف ألف دينار ذهباً (١٨ مليون) وتعادل تسعة ملايين دينار من عملتنا الحالية(٣) . وقد رجح المرحوم الدكتور حسن إبراهيم رواية الطبرى على رواية كل من الخطيب وياقوت المتقدمة والتى يميل إليها لى سترينج ويقول : أن فيها مبالغة ظاهرة ، لأن المنصور كان حريصاً على جمع المال ، كما كان أشد حرصاً فى إنفاقه،هذا مع رخص المعيشة فى ذلك العصر(٤) . وأرى أن ما ذهب إليه الناقد صحيح للاعتبارات التى ذكرها إلا أنى أرى من جهة أخرى أنه إذا كانت هناك مبالغة ظاهرة فيما ذكره الخطيب وغيره عن كثرة النفقات، فان رواية الطبرى كذلك فيها مبالغة فى قلة النفقات مهما تكن الأسعار

---

(١) تاريخ بغداد: ١ / ٦٩ وله رواية أخرى تقدر مجموع النفقات بأربعة آلاف ألف وثمانمائة وثلاثة وثمانين

(٢) معجم البلدان ١ / ٤٥٩

(٣) لى سترينج ص ٤٤

(٤) تاريخ الإسلام السياسى ٢ / ٢٨٤ . يقول الخطيب البغدادى عن رخص أسعار الحاجيات فى زمن المنصور : كان ينادى على لحم البقر ٩٠ رطلا بدرهم ، ولحم الغنم ٦٠ رطلا بدرهم ، والعسل ١٠ أرطال بدرهم والكبش بدرهم،والحمل بأربعة دوانق(الدانق يعادل سدس درهم والدرهم ٦٠ حبة والتمر ٦٠ رطلا بدرهم،والزيت ١٦ رطلا بدرهم ، والسمن ٨ أرطال بدرهم. وأن الأستاذ من الصناع كان يعمل يومه بقيراط إلى خمس حبات ، والروزجارى (العمل البسيط) بحبتين إلى ثلاث حبات . . . (تاريخ بغداد ١ / ٧٠ ، انظر البلدان لياقوت ١ / ٤٥٩)

رخيصة ، وبخاصة إذا علمنا أن المنصور جعل باب قصره من الذهب أضف إلى هذا أن المنصور كان يريد أن تكون حاضرة ملكه أم المدائن ولتحاكي الحواضر الكبيرة ، وخاصة القسطنطينية حاضرة الروم في العظمة والأبهة. لذلك أرى أن بين الروايتين تفاوتا كثيراً .

ولما تم بناء بغـــداد استقدم إليها المنصور العلماء من كل بلد وإقليم ، ولم تزل تتعاظم ويزداد عمرانها ولما يمض على إنشائها فترة طويلة حتى صارت أم الدنيا وسيدة البلاد ، ومهد الحضارة الإسلامية في عهد الدولة العباسية وأربى سكانها على مليونين ، وتطلعت لها أنظار المسلمين وقدر لها أن تصبح محط أنظار العالم كله ، واحتلت بسرعة مكان الصدارة في السياسة والنشاط العلمي والاجتماعي والتجاري في الشرق الاوسط كله ، واحتفظت طويلا بمكانتها هذه على الرغم مما أصابها من هزات ، وما حلّ بها من محن وخطوب .

وقد قيل في وصف بغداد كلام كثير ، فقال الجاحظ : قد رأيت المدن العظام والمذكورة بالاتقان والإحكام ، بالشامات وبلاد الروم وفي غيرها من البلدان . فلم أرَ مدينة قط أرفع سمكا ، ولا أجود استدارة ، ولا أنبل نبلا ، ولا أوسع أبوابا ، ولا أجود فصيلا من الزوراء(١) . وهي مدينة أبي جعفر المنصور كأنما صبّت في قالب

---

(١) سميت بالزوراء لانحراف في قبلتها ، وقيل لأن المنصور لما عمرها جعل الأبواب الداخلة مزورّة عن الأبواب الخارجة وقيل لازورار نهر دجلة عند مروره بها . ويقال لها دار السلام تشبيها لها بالجنة . وقيل إنما سميت مدينة السلام لأن السلام هو الله أو لأن نهر دجلة يقال له وادي السلام. وقيل إن هذه التسمية (مدينة السلام) =

وكأنما أفرغت إفراغاً(١). ومدحها الخطيب البغدادى بقوله: لم يكن لبغداد فى الدنيا نظير فى جلالة قدرها، وفخامة أمرها، وكثرة علمائها وأعلامها، وتميز خواصها وعوامها، وعظم أقطارها وسعة أطرارها(٢)، وكثرة دورها ومنازلها ودروبها وشعوبها ومحالها وأسواقها وسككها وأزقتها، ومساجدها وحماماتها، وطرقها وخاناتها، وطيب هوائها وعذوبة مائها، وبرد ظلالها وأفيائها، واعتدال صيفها وشتائها، وصحة ربيعها وخريفها، وزيادة ما حصر

= مأخوذة عن الفارسية، فقد ذكر ياقوت فى معجم البلدان أن بعض هذه المدينة كان أثراً لمدينة دارسة اختطها أحد ملوك الفرس ثم عرض فقالوا له ما الذى يأمر الملك أن تسمى به هذه المدينة فقال: « هيلدوه وروز » أى ادخلوها بسلام. فلما علم المنصور بذلك قال: سميتها مدينة السلام، أما بغداد ففيها لغات كثيرة منها بغداذ وبغدان ومغدان. وتختلف الروايات فى اشتقاق إسم بغداد وإن كانت تتفق فى أنه فارسى. ويرجح لى ستربنج أنه يتكون من كلمتين (بغ) أى الله، و (داذ) أى تأسست فيكون معنى بغداد أسسها الله (أنظر لى ستربنج ص ١٧ — ١٨، الخطيب البغدادى ١/٥٩ — ٦٠، ٧٨، معجم ياقوت مادة بغداد، مناقب بغداد لابن الجوزى ط بغداد سنة ١٣٤٢، البلدان لليعقوبى ط النجف وليدن، وأحسن التقاسيم للمقدسى ط ليدن، العصر العباسى الأول للدورى، تاريخ الإسلام لحسن إبراهيم ج ٢، التاريخ الإسلامى لأحمد شلبى، الدولة العباسية للخضرى.

(١) الخطيب البغدادى ١/٧٧.

(٢) أطرار جمع طر بضم الطاء طرف كل شىء وحرفه.

من عدة سكانها . وأكثر ما كانت عمارة وأهلا فى أيام الرشيد ، إذ الدنيا قارة المضاجع ، دارّة المراضع ، خصيبة المواقع ، موروبة المشارع(١) .

وسأل الشافعى رضى الله عنه يونس بن عبد الأعلى: هل دخلت بغداد ، فقال: لا ،قال الشافعى : يايونس مارأيت الدنيا ، ولارأيت الناس(٢) . وكان يقال من محاسن الإسلام يوم الجمعة ببغداد،وصلاة التراويح بمكة ، ويوم العيد بطرسوس(٣) . وقال بعض الفضلاء : بغداد جنة الأرض ، ومدينة السلام ، وقبة الاسلام ، ومجمع الرافدين، وغرة البلاد وعين العراق ، ودار الخلافة ، ومجمع المحاسن والطيبات ومعدن الطرائف واللطائف ، وبها أرباب الغايات فى كل فنّ ، وآحاد الدهر فى كل نوع . وكان الزجاج يقول : بغداد حاضرة الدنيا وما عداها بادية . وكان أبو الفرج الببّغا يقول : هى مدينة السلام بل مدينة الإسلام(٤) .

ولاية العهد : أحس المنصور بعد بناء عاصمة الخلافة أن ملكه قد دعمت أركانه فأخذ يفكر فى مشكلة الخلافة من بعده ، ولم يكن من المنتظر بعد الجهود الضخمة التى بذلها فى إخماد الثورات وتوطيد دعائم ملكه أن يترك وراثة الخلافة لأحد من غير أبنائه ، وبدأ يوجه سهمه الأخير فى التحلل من ولاية العهد بعده لابن عمه عيسى بن موسى كما أوصى أبو العباس السفاح وإعطائها لابنه المهدى .

---

(١) الخطيب ١ / ١١٩
(٢) ص ٤٥
(٣) ص ٤٧
(٤) معجم البلدان لياقوت ١ / ٤٦١

ولم يكن تنفيذ أمر ولاية العهد ونقلها إلى المهدى من السهولة بمكان ، لأن عيسى وقف بجانب المنصور فى مشكلات كثيرة كادت تذهب بخلافته ، لا سيما أنه صاحب الفضل فى القضاء على ثورة الأخوين محمد وإبراهيم ابنى عبد الله وقتلهما ، ومن جهة ثانية فإن عيسى ابن عم المنصور وليس غريباً عنه ، وأنه ولى العهد بعده بوصية من السفاح .

وكان أبو جعفر يعد المهدى للخلافة من بعده فنشأه نشأة طيبة وأخذ يدربه على الحرب والسياسة ، فلما بلغ المهدى من العمر ٢١عاما وذلك فى سنة ١٤٧ هـ عزم المنصور على أن يخرج مشروع ولاية العهد إلى حيز التنفيذ . وتحدث إلى عيسى بن موسى عن رغبته فى تقديم المهدى عليه فى ولاية العهد ، وصاغ رجاءه فى عبارات رقيقة : فقال عيسى : يا أمير المؤمنين ، فكيف بالأيمان والمواثيق التى على وعلى المسلمين لى من العتق والطلاق وغير ذلك من مؤكد الأيمان ! ليس إلى ذلك سبيل يا أمير المؤمنين(١) : فلما رأى أبو جعفر امتناعه تغير لونه وباعده بعض المباعدة ، وأخذ يأذن لابنه المهدى قبل عيسى خلاف ما يقضى به (البروتوكول) قاصداً بذلك الإساءة إليه ، وكان يُجلس المهدى إلى يمينه ، حتى إذا دخل عيسى جلس إلى جوار المهدى ورفض أن يجلس إلى يسار الخليفة مما اثار غضب المنصور عليه . ولم يكتف المنصور بهذا بل أصبح يأذن لكثير من الناس بالدخول عليه قبل أن يأذن لعيسى ثم يؤذن لعيسى من بعدهم ، وهو فى كل ذلك صامت لا يشكو من شيئاً ولا يستعتب . ثم صار إلى أغلظ

---

(١) الطبرى ٨ / ١٠ ، ابن الأثير ٥ / ٢٧٣ ، الفخرى ص١٤٩ ، العيون والحدائق ٣ / ٢٠٩ .

من ذلك فكان يتعمد إهمال عيسى قبل أن يأذن له بالدخول عليه فيطول انتظاره . كما أمر بعض غلمانه أن يحفروا حائط الغرفة التي ينتظر عيسى فيها حتى كان التراب يغطي ملابسه ثم يأتيه الإذن فيقوم فيدخل بهيئته والتراب عليه لا ينفضه ، فاذا رآه المنصور قال له : ياعيسى،مايدخل عليّ أحد بمثل هيئتك من كثرة الغبار عليك والتراب أفكل هذا من الشارع ؟ فيقول : أحسب ذلك يا أمير المؤمنين ! وكان المنصور يقصد من هذا حمل عيسى على الشكوى إليه مما يلقاه فلا يشكو .

وفطن بعض الجند إلى رغبة المنصور في خلع عيسى من ولاية العهد والاستهانة به فحذوا حذو الخليفة ، فكانوا إذا رأوا عيسى راكبا أسمعوه ما كره،فشكا ذلك إلى المنصور،فقال للجند: لاتؤذوا ابن أخي فإنه جِـلْدة بين عينيّ،ولو كنتُ تقدّمت إليكم لضربت أعناقكم ، فكانوا يكفون ثم يعودون . ومكث على ذلك مدة ، ثم كتب إلى عيسى كتاباً يطلب فيه أن يقبل تقديم المهدي عليه في ولاية العهد ، وذكر له أن ذلك من صالح الدولة العباسية التي تعاونوا جميعا من أجل إقامتها وتحقيقاً لوحدةالأسرة العباسية ضد أعدائهم وأعرب له أن رفضه يؤدي إلى الشقاق وتصدع الوحدة التي مآ لها إلى الفتنة وأضاف المنصور في رسالته الإشارة إلى ما بلغه المهدي من مجد وحب الناس له وخاصة أهل خراسان . وختم رسالته بقوله : فاقبل نصح أمير المؤمنين لك تصلح وترشد . وقد ردّ عيسى على رسالة الخليفة بكتاب شديد اللهجة وجاء فيه : « .. بلغني كتابك تذكر فيـــه ما أجمعتَ عليه من خلاف الحق وركوب الإثم في قطيعة الرحم ونقض ما أخذ الله عليه من الميثاق من العامة بالوفاء للخلافة والعهد لي من بعدك ، لتقطع بذلك ماوصل الله من حبله ، وتفرّق بين

ما ألّف الله جمعه ، وتجمع بين ما فرق الله أمره مكابرة لله فى سمائه وحولا على الله فى قضائه ومتابعة للشيطان فى هواه ، ومن كابر الله صرعه ، ومن نازعه قمعه ومن ماكره عن شيء خدعه ... إن الذى أسّس عليه البناء ، وخُطّ عليه الحذاء من الخليفة الماضى عهدٌ لى من الله وأمر نحن فيه سواء ، ليس لأحد من المسلمين فيه رخصة دون أحد .. فاقبل العاقبة وارض من الله بما صنع، وخذ ما أوتيت بقوة وكن من الشاكرين ... فمن راقب الله حفظه ، ومن أضمر خلافه خذله ، والله يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . ولسنا مع ذلك نأمن من حوادث الأمور وبغتات الموت قبل ما ابتدأت به من قطيعتى ، فان تعجّل بى أمرٌ كنت قد كفيت مؤونة ما اغتممت له ، وسترتَ قبح ما أردت إظهاره ، وإن بقيتُ بعدك لم تكن أوغرت صدرى وقطعت رحمى، ولا أظهرت أعدائى فى اتباع أثرك وقبول أدبك وعمل بمثالك ... فأعيذ أمير المؤمنين بالله من أن يكون نيته وضمير سريرته خلاف ما زيّن الله به جلّ وعزّ من كان قبله ، فانه قد سألتهم أبناؤهم ونازعتهم أهواؤهم إلى مثل الذى همّ به أمير المؤمنين ، فآثروا الحق على ما سواه ، وعرفوا أن الله غالب لقضائه ، ولا مانع لعطائه ، ولم يأمنوا مع ذلك تغيير النعم وتعجيل النقم، فآثروا الآجلة وقبلوا العاقبة، وكرهوا التغيير وخافوا التعديل ، فتمم الله لهم أمورهم وكفاهم ما أهمهم ، ومنع سلطانهم ، وأعزّ أنصارهم ، وكرّم أعوانهم وشرّف بنيانهم ، فتمّت النعم وتظاهرت المنن ، فاستوجبوا الشكر ، فتمّ أمــــر الله وهم كارهون(١) .

---

(١) تجد نص الكتابين فى الطبرى ٨/ ١٤ — ١٩

ولما بلغ الكتاب أبا جعفر غضب غضباً شديداً ، ولما علم الجند بذلك عادوا إلى ما كانوا عليه من إيذاء لعيسى ، فكانوا يأتون باب عيسى فيمنعون من يدخل إليه ، فإذا ركب مشوا خلفه وقالوا : أنت البقرة التي قال الله : « فذبحوها وما كادوا يفعلون » فعاد عيسى فشكاهم إلى المنصور فقال له : يا بن أخي ، أنا والله أخافهم عليك وعلى نفسي ، قد أشربوا حب هذا الفتى ، فلو قدمته بين يديك فيكون بيني وبينك لكفوا . فأجاب عيسى أن يفعل . وخلع نفسه وبايع المهدى . ولما رآه بعض أهل الكوفة ، وقد جعل المهدى قدامه في الخلافة وصار هو بعده ، قال : هذا الذي كان غداً فصار بعد غد .

وقيل في خلع عيسى غير ما ذكر وأن المنصور لما أعياه الأمر بعث إلى خالد بن برمك وأنبأه بفشل محاولاته مع عيسى في تقديم المهدى عليه ، وقال له : فهل عندك حيلة فيه ؟ .. فقال نعم ، تضم إليّ ثلاثين رجلا من كبار الشيعة (لعله يقصد شيعة بني العباس) ممن تختاره . فركب خالد وركبوا معه ، وساروا إلى عيسى بن موسى فأبلغوه رسالة المنصور ، فقال : ما كنت لأخلع نفسي وقد جعل الله عز وجل الأمر لي ، وحاول خالد بكل وجه من وجوه الحذر والطمع أن يقنع عيسى ولكنه أصر على الرفض . وخرج خالد مع هؤلاء القوم إلى المنصور ، وزعموا أن عيسى قد وافق على خلع نفسه ، فأخرج التوقيع بالبيعة للمهدى ، وكتب بذلك إلى الآفاق . ولما بلغ عيسى الخبر أتى أبا جعفر منكراً لما ادّعى عليه من الإجابة إلى تقديم المهدى على نفسه . فدعاهم أبو جعفر وسألهم ، فقالوا : نشهد عليه أنه قد أجاب وليس له أن يرجع ، فأمضى أبو جعفر

الأمر ، وشكر لخالد ما كان منه ، وأصبح خالد موضع تقدير المهدى .

وجاء فى رواية أخرى أن المنصور سقاه بعض ما يتلفه ، فمرض مدة ، ثم أفاق منه ، فلم يزل هذا الأذى يتكرر على عيسى ، حتى خلع نفسه وبايع .

وقد ذكر الطبرى(١) رواية عن بعض صحابة أبى جعفر ملخصها: أن رجلا من القواد قال له : ما كان خلعه إياها منه إلا برضاً من عيسى وركون منه إلى الدراهم ، وقلة علمه بقدر الخلافة ، وطلباً للخروج منها ، أنى يوم خرج للخلع نخلع نفسه وإنى لفى مقصورة مدينة السلام ، إذ خرج علينا أبو عبيد الله كاتب المهدى فى جماعة من أهل خراسان ، فتكلم عيسى ، فقال: إنى قد سلمت ولاية العهد لمحمد المهدى وقدمته على نفسى . فقال أبو عبيد الله : ليس هكذا — أعز الله الأمير — ولكن قل ذلك بحقه وصدقه وأخبر بما رغبت فيه فأعطيت ، قال : نعم ، قد بعت نصيبى من تقدمة ولاية العهد من عبد الله أمير المؤمنين لابنه محمد المهدى بعشرة آلاف ألف درهم وثلاثمائة ألف بين ولدى ... وسبعمائة ألف لامرأة من نسائه بطيب نفس منى وحب لتصييرها إليه ، لأنه أولى بها وأحق ، وأقوى عليها وعلى القيام بها وليس لى فيها حق .. ، فما ادعيته بعد يومى هذا فأنا فيه مبطل لا حق لى فيه ولا دعوى ولا طلبة ... وختم الكتاب وشهد عليه الشهود ... حتى وضع عليه عيسى خطه وخاتمه ... وكسا

---

(١) تاريخ الطبرى : ٨ / ٢٤ — ٢٥ ، انظر الجهشيارى : كتاب الوزراء ص ١٢٧

المنصور عيسى وابنه وغيره من ولده كُسوة بقيمة ألف ألف درهم ونيف ومائتى ألف درهم .

وهناك أساليب أخرى اتبعها المنصور مع عيسى وتحدثت عنها كتب التاريخ وجلها تدل على الضغط والقسر اللذين عومل بهما عيسى ليستجيب لرغبة الخليفة،وسواء أتم هذا من جهته أم أن جماعة شهدوا عليه أنه خلع نفسه وهو لم يخلعها فان الأمر على كل حال انتهى على النحو الذى تريده القوة الاستبدادية بخلع عيسى وتقديم المهدى عليه ومن سوء حظ عيسى أنه عانى الاضطهاد بسبب ولاية العهد مرتين وهذه كانت الأولى ، أما الثانية فكانت فى عهد المهدى الذى ورث عن أبيه حبه لبنيه ، وبغضه لهذا الدخيل الذى كان يطمع فى الخلافة وموعدنا بالكلام عنها فى خلافة المهدى .

وتنحية عيسى بن موسى عن ولاية العهد المنصور تركت فى نفسه جرحا لم يندمل وأسى لايزول ، فكان يرفه عن نفسه بنظم أبيات من الشعر ، من ذلك قوله(١) .

خيرت أمرين ضاع الحزم بينهما إما صغار وإما فتنة عمم
وقد هممت مراراً أن أساجلهم كأس المنية لولا الله والرحم

وقوله يذكر حسن بلائه فى دولة المنصور وقوده الكتائب واستهدافه للنوائب(٢) .

أينسى بنو العباس ذَبِّيَ عنهمُ بسيفى ونار الحرب زاد سعيرها

---

(١) الخضرى : الدولة العباسية ص ٦٨٤

(٢) على أدهم : أبو جعفر المنصور سلسلة أعلام العرب عدد ٨٢ ص ١٠٢

فتحت لهم شرق البلاد وغربها فذلّ معاديها وعزّ نصيرها
أقطع أرحاماً علىّ عزيزة وأبدى مكيدات لها وأثيرها

ومهما كان الدافع للمنصور على ما أقدم عليه من تقديم ابنه المهدى على ابن أخيه عيسى فى ولاية العهد ، ومهما كانت الطريقة التى اتبعها فى الحصول على تنازل عيسى عن حقه ، فإننا نرى ذلك زلة من زلات أبى جعفر المنصور ذلك السياسى الماهر ، وأنه سنّ بذلك سنة سيئة لمن أتى بعده من أبنائه وأحفاده ، ولايخفى مالهذه السياسة من آثار سيئة على الدولة بعد أن استقرت وتوطدت دعائمها ، أضف إلى ذلك أن العهود أصبحت فى نظر الخلفاء لا قيمة لها وأنهم إذا رأوها مخالفة لمصالحهم حاولوا التخلص منها، وإن كان بعضهم يحاول أن يلبس باطله ثوب الحق ، وبالأمس القريب لما كاتب المنصور محمد بن عبد الله بن الحسن وقال إنه يعطيه الأمان أجابه محمد بقوله: وأما أمانك الذى عرضت فأىّ الأمانات هو ؟ أمان ابن هبيرة ، أم أمان أبى مسلم ، أم أمان عمك عبد الله بن على ؟ ! وهذه إجابة شديدة الوقع سيئة التأثير ، لأنها وصمة عار كبيرة لمن هو قائم مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حراسة دينه وسياسة الأمة، وفضلا عما تقدم فإن عيسى كان على درجة عالية من الكفاية الحربية والسياسية عرفها عنه المنصور أكثر من مرة . ولم تكن فيه خصلة تباعد بينه وبين الخلافة أو تبرر تقديم المهدى عليه وبخاصة فإن هذا لم يزل شابا ولما يتجاوز الواحدة والعشرين من عمره .

والظاهر أن تلك التصرفات التى صدرت عن المنصور من النكث بالعهود وعدم الوفاء بالأمان جعلت الناس يصورونه بأن خلق القدر أصبح من مميزاته ونسبوا إليه أشياء بالحق وبالباطل حتى فى علاقاته

الزوجية فيروون أنه كان تزوج أروى بنت منصور الحميرى أم ولديه محمد المهدى وجعفر الاكبر ، وكان شرط لها أن لايتزوج عليها ولايتسرى ، وكتبت عليه بذلك كتاباً أكدته وأشهدت عليه شهوداً ، فعزب بها عشر سنين فى سلطانه، فكان يكتب إلى الفقيه بعد الفقيه من أهل الحجاز يستفتيه ، ويحمل إليه الفقيه من أهل الحجاز وأهل العراق فيعرض عليه الكتاب ليفتيه فيه برخصة ، حتى ماتت بعد عشر سنين من سلطانه ببغداد فأتته وفاتها بحلوان ، فأهديت له فى تلك الليلة مائة بكر(١) .

فانظر كيف كان يحاول الخلاص من عقد عقده على نفسه ويريد أن يلقى تبعته على غيره من الفقهاء ويعرضهم لمخالفة الضمائر والشرع .

ويعلق بعض الباحثين(٢) على نظام ولاية العهد فى العصر العباسى فيقول : « أما نظام الاستخلاف الذى وضع فى عهد الأمويين فقد روعى فى دور العباسيين فنجمت عنه العواقب الوخيمة نفسها . فقد كان الخليفة يعين لولاية العهد من أبنائه أو أهل قرابته من هو أحبهم إليه أو من يعتقد فيه الكفاءة لها » وعملا بهذا النظام أوصى السفاح بالأمر من بعده لأخيه المنصور ثم إلى ابن أخيه عيسى بن موسى . فلما تولى المنصور خلع عيسى بن موسى وبايع لابنه المهدى ثم لعيسى من بعده ، ولما تولى المهدى الخلافة خلع عيسى من ولاية العهد ، وولى ولديه موسى الهادى ثم هارون الرشيد . كذلك أراد الهادى خلع أخيه هارون والبيعة لابنه جعفر مثلما فعل المهدى مع عيسى ابن موسى لولا أن مات الهادى قبل أن يضع مشروعه حيز التنفيذ

---

(١) الطبرى : ٨ / ٨٦ — ٨٧

(٢) فيليب حتى : تاريخ العرب ٢ / ٣٩٣

وأوصى الرشيد بالخلافة للأمين على أن تكون من بعده للمأمون مع أنه أكبر من الأمين وأكثر كفاءة من أخيه . ثم إن الرشيد قسم الدولة بين ابنيه فنشب نزاع بين الاثنين انتهى بقتل الأمين واغتصاب المأمون للعرش ومن البديهى أن نقض أمثال هذه العهود لم تكن قاصرة على المتنازعين بل تتعداهم إلى القواد والأمراء ، فهؤلاء ينشقون أيضاً ويستسهلون الاقدام على فك تلك القيود التى حلفوا الأيمان المؤكدة والعهود الوثيقة على الوفاء بها . وكانت النتيجة ضعف الخلافة العباسية ثم سقوطها أخيراً .

وفاة المنصور : لم يعرف المنصور الراحة والاستقرار وينعم بها إلا فى فترات قليلة محدودة ، وقضى معظم أيامه فى كفاح متصل وجهد دائب ، وهذا اللون من الحياة من شأنه أن ينهك الجسم ويستنفد الحيوية . وفى النصف من خلافته بدأت تظهر آثار الجهود التى بذلها فى الآلام التى كانت تنتاب معدته وتجعله لا يستمرىء الطعام وعجز أطباء بغداد عن علاجه ، فاستقدم من نيسابور « جورجيس بن بختيشوع » ونجح الطبيب فى علاجه وتهدئة آلامه ، ونصحه بتناول الأطعمة السهلة الهضم ، وعدم إرهاق جسمه بالعمل ، ولكن طبيعة الحياة التى كان يحياها المنصور وما يستلزمه الإشراف على أمور الدولة لم تيسر له ذلك وكانت النتيجة أن عاوده المرض وعجز طبيبه عن شفائه ، فاستقدم طبيباً هندياً لمعالجته ، ونصحه كما نصحه غيره بضرورة تعاطى الأطعمة الخفيفة وإراحة نفسه من عناء الأسفار وفرط الانهماك فى أعمال الدولة ، ووصف له سفوفاً يابساً ، فكان يتعاطاه فيهضم طعامه فأعجبه ، وأوصاه بأن لا يفرط فى استعماله لأنه يضر بالمعدة ويحدث مضاعفات غير مأمونة العاقبة ، ولكنه لم يستطع الإمساك عنه لما كان يجده

من راحة فى تناوله . وكان رأى متطبى العراق أن أبا جعفر لا يموت إلا بالبطن(١) .

وعزم المنصور على الحج فى سنة ١٥٨ﻫ وشعر أنها قد تكون رحلته الأخيرة وأنه موشك على الوفاة . فأقام فى قصر عبدويه ببغداد واستدعى إليه ولى عهده ابنه المهدى ليوصيه وينصحه ، وأقام بهذا القصر أياما . فأوصاه بالمال والسلطان ، يفعل ذلك كل يوم من أيام مقامه بالغداة والعشى . فلما كان اليوم الذى أراد أن يرتحل فيه ، دعا المهدى فقال له : إنى لم أدع شيئا إلا قـــد تقدمت إليك فيه وسأوصيك بخصال والله ما أظنك تفعل واحدة منها ... وكان له سَفَط فيه دفاتر علمه وعليه قفل لا يأمن على فتحه ومفتاحه أحدا ، فأعطاه مفتاحه وقال له : انظر هذا السَفَط فاحتفظ به ، فإن فيه علم آبائك ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة ، فإن أحزنك أمر فانظر الدفتر الأكبر ، فإن أصبت فيه ما تريد ، وإلا فالثانى والثالث حتى بلغ سبعة ، فإن ثقل عليك فالكراسة الصغيرة ، فإنك واجد ما تريد ، وما أظنك تفعل. وإذا صحت هذه الرواية فربما كانت هذه الكراريس لون من ألوان المذكرات السياسية التى يضمنها بعض السياسيين تجارب حياتهم وآراءهم فى سياسة الدولة وطريقتهم فى معالجة المشكلات . ومضى المنصور ينصح ولى عهده فقال : وانظر هذه المدينة فإياك أن تستبدل بها ، فإنها بيتك وعزك : قد جمعت لك فيها من الأموال ما إن كسر عليك الخراج عشر سنين كان عندك كفاية لأرزاق الجند والنفقات وعطاء الذرية ومصلحة الثغور ، فاحتفظ بها فإنك لا تزال عزيزاً مادام بيت مالك عامراً ... وأوصيك

(١) انظر الطبري ٨ / ٥٩

بأهل بيتك أن تظهر كرامتهم وتقدمهم وتكثر الاحسان إليهم وتعظم أمرهم وتوطىء الناس أعقابهم وتوليهم المنابر ، فان عزك عزهم وذكرهم لك . وانظر مواليك ، فأحسن إليهم وقربهم واستكثر منهم فانهم مادتك لشدة إن نزلت بك .. وأوصيك بأهل خراسان خيراً فانهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم فى دولتك ودماءهم دونك ، ومن لاتخرج محبتك من قلوبهم أن تحسن إليهم وتتجاوز عن مسيئهم وتكافئهم على مــــا كان منهم وتخلف من مات منهم فى أهله وولده ... وإياك أن تستعين برجل من بنى سليم ، وأظنك ستفعل ، وإياك أن تدخل النساء فى مشورتك فى أمرك ، وأظنك ستفعل(١).

وفى وصية أخرى قال للمهدى : يا أبا عبد الله ، إنى سائر وإنى غير راجع ، فانا لله وإنا إليه راجعون ، فاسأل الله بركة ما أقدم عليه ، هذا كتاب وصيتى مختوما فاذا بلغك أنى قد مت وصار الأمر إليك فانظر فيه ، وعلى دين فأحب أن تقضيه وتضمنه ... فانه ثلاثمائة ألف درهم ونيف ، ولست أستحلها من بيت مال المسلمين ، فاضمنها عنى وما يفضى إليك من الأمر أعظم منها . قال : أفعل ، هو على ... ثم مضى فى وصيته فأوصاه بأن يترك نصيبه فى القصر لأخوته الأصاغر وكذا الخاصة من الرفيق ، وكذا الضياع إذا تنازل لهم عن نصيبه فيكون هذا أحب إليه ، والمتاع والثياب يسلمه إليهم . فكان المهدى يجيبه بقوله أفعل . وختم الوصية قائلا : أحسن الله عليك الخلافة ولك الصنع ! اتق الله فيما خولك وفيما خلفتك عليه .

---

(١) الطبرى ٨ / ١٠٣ — ١٠٤ ، بن الأثير ٦ / ٧ — ٨

وقال المنصور للمهدى عند وداعه إياه : إنى ولدت فى ذى الحجة، ووليت فى ذى الحجة ، وقد هجس فى نفسى أنى أموت فى ذى الحجة من هذه السنة ، وإنما حدانى على الحج ذلك ... ثم وصاه بتقوى الله فيما عهد إليه من أمور المسلمين ، وأن يحفظ محمداً (ص) فى أمته ، وحذره من الدم الحرام ، وأمره باقامة الحدود وعدم الاعتداء فيها. ثم قال له : فالسلطان يا بنى حبل الله المتين وعروته الوثقى ودين الله القيم ، فاحفظه وحطه وحصنه وذب عنه ، وأوقع بالملحدين فيه ، واقمع المارقين منه ، واقتل الخارجين عنه بالعقاب لهم والمثلات بهم ، ولا تجاوز ما أمر الله به فى محكم القرآن ، واحكم بالعدل ولا تشطط، فان ذلك أقطع للشغب ، وأحسم للعدو وأنجع فى الدواء . وعف عن الفىء .. وافتح عملك بصلة الرحم وبر القرابة ، وإياك والأثرة والتبذير لأموال الرعية . واشحن الثغور واضبط الأطراف وأمن السبل ، وخص الواسطة ، ووسع المعاش ، وسكن العامة ، وأدخل المرافق عليهم ، واصرف المكاره عنهم ، وأعد الأموال واخزنها . وإياك والتبذير ، فان النوائب غير مأمونة ، والحوادث غير مضمونة وهى من شيم الزمان ، وأعد الرجال والجند والكراع ما استطعت ، وإياك وتأخير عمل اليوم إلى غد ، فتتدارك عليك الأمور وتضيع . جد فى إحكام الأمور النازلات لأوقاتها أولا فأولا . . وأعدد رجالا بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار ، ورجالا بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل وباشر الأمور بنفسك ، ولا تضجر ولا تكسل ولا تفشل ، واستعمل حسن الظن بربك، وأسىء الظن بعمالك وكتابك. وخذ نفسك بالتيقظ ، وتفقد من يبيت على بابك ، وسهل إذنك للناس ، وانظر فى أمر النزاع إليك، ووكل بهم عيناً غير نائمة ونفساً

غير لاهية ، ولا تنم فإن أباك لم ينم منذ ولى الخلافة ، ولادخل عينه غمض إلا وقلبه مستيقظ .

حتى إذا أزفت ساعة الرحيل — وذلك لأيام خلت من ذى القعدة عام ١٥٨ هـ — شيعه المهدى فأوصاه المنصور وصيته الأخيرة وقال له : إنى قد جمعت لك من الأموال ما لم يجمعه خليفة قبلى ، وجمعت لك من الموالى ما لم يجمعه خليفة قبلى ، وبنيت لك مدينة لم يكن فى الإسلام مثلها ، ولست أخاف عليك إلا أحد رجلين : عيسى بن موسى وعيسى بن زيد ، فأما عيسى بن موسى فقد أعطانى من العهود والمواثيق ما قبلته .. فأخرجه من قلبك . وأما عيسى بن زيد ، فأنفق هذه الأموال واقتل هؤلاء الموالى ، واهدم هذه المدينة حتى تظفر به ثم لا ألومك(١) . ثم ودعه وبكى كل واحد منهما إلى صاحبه ، وعاد المهدى إلى بغداد ، وسار المنصور إلى الكوفة .

وقبل مسايرتنا للمنصور فى رحلته إلى مكة لا بد من الإشارة إلى ما يمكن استخلاصه من تلك الوصايا الكثيرة التى زود بها ابنه المهدى . وهى لا تخلو بطبيعة الحال من المبالغة والتزيد . ولكن مجموعها يستفاد منه شدة شغف المنصور بابنه المهدى فهو لذلك يرسم له السياسة الرشيدة التى ينتهجها بعده مقدما له خلاصة وثمرة مشاهداته ومعرفته لتكون له دستوراً يسترشد به فى حل المشكلات ، ويستضىء بنوره فى الأمور المدلهمات ، كما كان يقدر تبعته فى اختياره له ولياً للعهد وتمهيد السبيل له ليكون خليفة المسلمين وسائساً لدولتهم فى إبان مجدهم وقوتهم ، ويتحقق النجاح الذى يؤمله حينما ترفع يده القابضة على رقعة تلك الدولة والمسيرة لدفتها فى ذلك البحر اللجى المتلىء

---

(١) انظر ٨ / ١٠٥ — ١٠٧ ، ابن الأثير ٦ / ٧ — ٨

بالأعاصير والأنواء والصخور . كما تدل الوصايا على مدى ما كان يعانيه المنصور من تفكير فيما عسى أن يصيب دولته من التصدع واختلاط الأمور بعد وفاته .

غادر المنصور الكوفة وأحرم منها بالحج والعمرة ، فلما سار منازل من الكوفة عرض له وجعه وهو القيام (الهيضة) فلما اشتد وجعه جعل يقول لوزيره الربيع بن يونس : بادرني إلى حرم ربي وأمنه هاربا من ذنوبي. وإسرافي على نفسي(١). ولما وصل الركب بئر ميمون — على بعد ستة أميال من مكة — قال له الربيع : ها قد وصلنا وقد دخلنا الحرم. فقال المنصور:الحمد لله فهل لك أن توصلني الكعبة ؟ . ولحظ الربيع اشتداد العلة بالمنصور وأنه قد اقترب من النهاية فأمر بالنزول ، ولما أقبل الليل ازدادت حالته سوءاً . ومع السحر أو مع طلوع فجر ليـــلة السبت لست خلون من ذي الحجة سنة ١٥٨ هـ فاضت روحه إلى بارئها وعمره نحو ٦٣ عاما قضى منها في الخلافة ٢٢ سنة إلا أربعة أيام . وكان آخر ما صدر عنه من الكلمات قوله : اللهم إن كنت تعلم أني قد ارتكبت الأمور العظام جرأة مني عليك فإنك تعلم أني قد أطعتك في أحب الأشياء إليك ، شهادة أن لا إله إلا الله مخلصاً(٢) .

ولم يحضر المنصور عند وفاته إلا خدمه والربيع بن يونس وزيره وحاجبه وأدرك هذا خطورة الموقف بعد وفاة المنصور ، فقد مات بعيداً عن حاضرة خلافته ، وكان المهدي حينئذ في بغداد نائباً عن أبيه في حكم الدولة ودفعه إخلاصه للخليفة وولي عهده المهدي إلى

---

(١) الطبري ٨ / ١١٤، مروج الذهب ٣ / ٢٣٢ ،ابن الأثير ٦ / ٩
(٢) انظر ابن كثير ١٠ / ١٢٨

أن يكتم نبأ وفاة المنصور حتى يأخذ البيعة للخليفة الجديد ، فقد كان عيسى بن موسى لا يزال على قيد الحياة يترقب الفرصة للوثوب على الخلافة ، ولذا فقد منع الربيع نساء المنصور ومواليه من البكاء ، وأجلس الخليفة المتوفى وأسنده وجعل على وجهه كِلّة خفيفة (الستر الرقيق) يرى وجهه منها ، حتى لا يفطن أحد إلى موته . ثم أذن لوجوه بنى هاشم بالدخول على الخليفة ، فلما دخلوا وقفوا بين يديه وهم يحسبون أنه حىّ ، وتقدم الربيع إليه كأنه يشاوره ، ثم عاد إليهم وقال : أمير المؤمنين يأمركم بتجديد البيعة للمهدى ، فبايع الناس طراً (١) . ولم يبق أحد من خاصته والأولياء ورؤساء من حضره إلا بايع المهدى (٢) . ثم شاع نبأ وفاة المنصور بين الناس ، فقدم أهل البيت العباسى واتخذوا مجالسهم ، كما قدم بعض أبناء الأسرة العلوية واحتشدوا جميعا فى سرادق كبير نصبه الربيع بن يونس ، ثم خرج الربيع إليهم وفى يده قرطاس ، ففضه وقرأ ما فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله المنصور أمير المؤمنين إلى من خلّف بعده من بنى هاشم وشيعته من أهل خراسان وعامة المسلمين — ثم ألقى القرطاس من يده وبكى وبكى الناس ، فأخذ القرطاس وقال : قد أمكنكم البكاء ، ولكن هذا عهد عهده أمير المؤمنين لا بدّ من أن نقرأه عليكم ، فأنصتوا رحمكم الله ، فسكت الناس . ثم عاود القراءة — أما بعد : فإنى كتبت كتابى هذا وأنا حىّ فى آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من الآخرة ، وأنا أقرأ عليكم السلام وأسأل الله ألا يفتنكم بعدى ولا يلبسكم شيعا ولا يذيق بعضكم بأس بعض . يابنى هاشم ، ويا أهل خراسان ... ثم أخـــذ فى وصيتهم بالمهدى وإذ كارهم البيعة له ،

---

(١) الفخرى ص ١٠٦

(٢) الطبرى ٨ / ١١٤

وحضهم على القيام بدولته وتأييده ونصرته .

تقدم الهاشميون إلى الربيع بن يونس ببيعتهم للمهدى بالخلافة ، وأراد عيسى بن موسى الامتناع عن البيعة ، فنهض على بن عيسى ابن ماهان فاستلّ سيفه ، ثم جاء إليه فقال : والله لتبايعن أو لأضربن عنقك ! فلما رأى ذلك عيسى ، بايع وبايع الناس بعده(١) . فكانت البيعة للمهدى بالخلافة ولعيسى بن موسى بولاية العهد ، وخرج موسى بن المهدى إلى مجلس العامة فبايع من بقى من القواد والوجوه ، وتوجه العباس بن محمد ومحمد بن سليمان إلى مكة فبايع الناس للمهدى بين الركن والمقام وكانوا كثيرين من أهل مكة والمدينة ممن حضروا موسم الحج وبعث الربيع إلى المهدى رسولا ينبئه بموت أبيه المنصور ويهنئه بالخلافة .

وحمل جثمان المنصور حتى مكة وصلى عليه ، وحمل النعش إلى المقبرة وجعل رأسه مكشوفا لأجل إحرامه ، وحفر له مائة قبر ، ودفن فى ... لئلا يعرف موضع قبره الذى هو ظاهر للناس ، ودفن فى غيرها للخوف عليه ، وهكذا قبور الخلفاء العباسيين لا يعرف لأحد منهم قبر .

ولما دفن وقف الربيع على قبره فقال : رحمك الله يا أمير المؤمنين وغفر لك ، فقد كان لك حمى من العقل لا يطير به الجهل ، وكنت ترى باطن الأمر بمرآة من الرأى كما ترى ظاهره(٢) . ثم التفت إلى يحيى بن محمد أخى المنصور فقال : هذا كما قال الشاعر :

---

(١) الطبرى ٨ / ١١٢ — ١١٣
(٢) الحصرى : زهر الآداب ١ / ١٨٠ ، وأعلام العرب ٨٢ ص ٢٠٩

عقم النساء فما يلدن شبيهه   إن النساء بمثـــله عقم

وهكذا كانت خاتمة حياة أبى جعفر المنصور ماهل الدولة العباسية وواضع دعائمها وإرساء قواعدها حتى وصلت سفينتها برغم العواصف والصخور إلى شاطىء السلامة . ولم يبالغ الفضل بن سهل وزير المأمون حين قال : إن هـــذه الدولة لم تكن قط أعز منها فى أيام أبى جعفر(١). وكان ابن الطقطقى صادقاً فى تصويره إياه حيث قال: هو الذى أصّل الدولة وضبط المملكة ورتب القواعد(٢) .

ويقول (نولدكة) المستشرق الألمانى : لقد رأى الشرق حكاما كثيرين قاربوا المنصور أو فاقوه فى الخداع والأثرة ، ولكن قلّ أن يوجد بينهم من يوازن به فى قوة العقل المسيطر أو من كان له — إذا توسعنا وتبسطنا فى الحديث — مثل تأثيره فى إنماء الصالح العام لإمبراطوريته(٣) .

ولعل عبقرية المنصور تتضح فى مقدرته على ابتكار السياسة المناسبة التى تتطلبها الظروف الخاصة ، فبينما اتبع سياسة معينة ، نجده يوصى المهدى بأن يدخل عليها بعض التعديلات ، لأنه اعتقد أن الظروف الجديدة تتطلب ذلك . ونستطيع أن نقول إن دور البناء انتهى بوفاة المنصور ، وتقررت — تقريباً — سعة الدولة العباسية وأهمية المناطق التى تتكون منها . كما رسمت خطوط السياسة العباسية العامة ، فصار من خلفه من العباسيين يقتفى آثار من سبقه. والحق أن جزءاً كبيراً

---

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٧٧
(٢) الفخرى ص ١١٦
(٣) انظر الدورى العصر العباسى الأول ص ١٠٤ وأعلام العرب عدد ٨٢ ص ١٦٧

من رفاء البلاد فى عهدى المهدى والرشيد يرجع بالدرجة الأولى إلى المنصور .

وعلى الجملة فقد كان المنصور فقيها متمكناً وخطيباً مفوها وعالما أديبا ، حاضر البديهة ، سياسيا محنكا بعيد النظر ، قائداً بصيراً ، تغلب على الصعوبات التى اعترضت طريقه بالحكمة والحزم ورباطة الجأش واليقظة المستمرة ، وكان رجلا واقعيا لا يتعلل بالأمانى والأحلام ، وإنما يجيد مراقبة ما حوله ويواجه الحياة كالفارس الماهر الذى يعرف مواطن الضعف فى عدوه ، كما يعرف متى يضرب ضربته القاتلة . فهو من أجل ذلك جدير بأن يوضع اسمه فى الصف الأول بين أسماء العظماء الذين عرفهم التاريخ على مر العصور .

محمد المهدي

(١٥٨ - ١٦٩هـ = ٧٧٥ - ٧٨٥م)

هو محمد بن عبد الله المنصور ، وأمه أم موسى أروى بنت منصور ابن عبد الله الحميرى . كان مولده بالحميمة سنة ١٢٦ هـ قبل قيام الدولة العباسية بنحو ست سنوات ، ولما تولى المنصور الخلافة كان المهدى قد بلغ العاشرة من عمره . نشأ فى بيت الخلافة ، وعنى المنصور بتثقيفه وعهد به إلى الفضل الضبي فعلمه العربية وجمع له أمثال العرب ومختار شعرهم فمال إلى العلم والأدب ودراسة الأخبار والأشعار ، فنشأ فصيحاً ، يقول الشعر ويجيده ويحفظ كثيراً منه ومن أمثال العرب(١) وكان المهدى شهماً فطنا كريماً ، شديداً على أهل الإلحاد والزندقة ، لا تأخذه فى إهلاكهم لومة لائم . وكانت أيامه شبيهة بأيام أبيه فى الفتوق والحوادث والخوارج ، وكان يجلس فى كل وقت لرد المظالم(٢) محبباً إلى الخاص والعام لنظره فى المظالم والكف عن القتل وأمن الخائف ، وإنصاف المظلوم ، وبسط يده فى الإعطاء فأذهب جميع ما خلفه المنصور ، وهو ستمائة ألف ألف درهم وأربعة عشر ألف ألف دينار(٣) . حسن العفو ، كريم الظفر ، لا يدخله غفلة عند

---

(١) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ٥ / ٣١١

(٢) الفخرى ص ١٥٥

(٣) مروج الذهب ٣ / ٢٣٦

مخوفة ، ولا يتكل فى الأمور على غير ثقة ، وصولا لأرحامه ، براً بأهله ، لين الجانب(١) كما كان حسن الاعتقاد، تتبع الزنادقة، وأفنى منهم خلقاً كثيراً ، وهو أول من أمر بتصنيف كتب الجدل فى الرد على الزنادقة والملحدين(٢) .

ولما بلغ الخامسة عشرة من عمره بدأ المنصور يعده لولاية العهد ، فأشركه فى مجريات الأحداث السياسية والحربية فى الدولة ، حيث عينه المنصور فى سنة ١٤١ هـ قائداً للجيش الذى وجهه إلى خراسان للقضاء على الفتنة التى أثارها عبد الرحمن بن عبد الجبار والى خراسان وجعل على مقدمة الجيش قائداً من أمهر قواده وهو خازم بن خزيمة . وزحف المهدى بالجيش حتى نزل نيسابور ، ثم أنفذ قائده خازم على رأس فرقة من الجيش ، فتعاون وأهل مرو على إلحاق الهزيمة بابن عبد الجبار ، وحمله المهدى أسيراً إلى المنصور ، حيث أمر بقتله .

وبعد القضاء على ثورة خراسان أمره أبوه بغزو طبرستان للقضاء على ثورة الأصبهذ والى طبرستان ، ونجح المهدى وقائده خازم فى القضاء على الثورة ، وخرج الأصبهذ إلى جيلان فى بلاد الديلم حيث مات . وبعد هذه الانتصارات أقام المهدى فى خراسان حتى سنة ١٤٤هـ ثم انصرف عائداً إلى العراق فلقيه أبوه عند قرماسين ، وانصرفا معاً إلى إقليم الجزيرة لمراقبة ثغورها . وفى هذه السنة وبعد عودته إلى بغداد تزوج من ابنة عمه ريطة بنت أبى العباس السفاح .

ولما بلغ المهدى ٢١ سنة وذلك سنة ١٤٧هـ ولاه أبوه العهد وقدمه

---

(١) المسعودى : التنبية والاشراف ص ٢٩٧

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٧١

على عيسى بن موسى ، ثم عاد إلى الري فأقام إلى سنة ١٥١ هـ وفيها قدم على أبيه ببغداد فبنى له ولجنده الرصافة وهى الجانب الشرق من بغداد . وفى سنة ١٥٣ هـ ولاه أبوه إمارة الحج . ولم يزل المنصور يستعين به فى الأعمال الهامة حتى توفى .

بيعة المهدى :

بعد أن بويع المهدى بالخلافة بمكة والمدينة من بنى هاشم والقواد الذين كانوا يرافقون المنصور فى حجته وجه الربيع بن يونس إلى بغداد رسولا بخبر الوفاة وهو منارة مولى أبى جعفر ومعه وصية المنصور ، كما بعث معه بردة النبى (ص) والقضيب وهما مما كان يتوارثه الخلفاء وبخاتم الخلافة ، فسار منارة اثنى عشر يوما إلى بغداد والمهدى بها ، فأحضر القواد والهاشميين فبايعوا وذلك فى منتصف(١) ذى الحجة سنة ١٥٨هـ . وأخذ يتقبل عزاء الناس وتهنئتهم له باعتلائه العرش وقد وصف أحد المؤرخين(٢) يوم البيعة للمهدى وصفاً فى غاية الروعة والجمال . وتقدم الشاعر أبو دلامة فهنأ الخليفة وعزاه فى أبيه بقصيدة رقيقة نقتطف منها هذه الأبيات(٣) :

عيناى واحدة تُرَى مسرورةً ... بأميرها جذلى وأخرى تذرف
تبكى وتضحك تارة ، ويسوؤها ... ما أنكرت ويسرها ما تعرف
فيسوؤها موت الخليفة محرماً ... ويسرها أن قام هذا الأرأف

(١) روى الخطيب ٥ / ٣٩١ أن منارة وصل ١٦ ذى الحجة وكتم المهدى الخبر يومين ثم أظهره يوم الخميس ١٨ ذى الحجة حيث بويع البيعة العامة

(٢) جيل نخلة مدور : حضارة الإسلام ص ٨٤ وما بعدها

(٣) الخطيب البغدادى : ٥ / ٣٩٢ ، الخلفاء للسيوطى ص ٢٧٢

هلك الخليفة يا لدين(١) محمد وأتاكم من بعده من يخلف
اهدى لهذا الله فضلَ خلافة ولذاك جنات النعيم تزخرف

ولما تمت البيعة نادى المنادى : الصلاة جامعة ! وخطب المهدىّ خطبة عبر فيها عن عظم المسئولية التى ألقيت عليه ونعى أباه فى هذه الكلمات القصيرة فقال: إن أمير المؤمنين عبدٌ دعىَ فأجاب، وأمر فأطاع » . واغرورقت عيناه بالدموع ولكنه تملك نفسه ثم قال : « إن رسول الله (ص) قد بكى عند فراق الأحبة ، ولقد فارقت عظيما وقلدت جسيما ، وعند الله أحتسب أمير المؤمنين وبه عز وجل أستعين على خلافة المسلمين »(٢) .

ودخل عبد الله بن عمرو بن عتبة على المهدى معزيا فى أبيه المنصور فقال : آجر الله أمير المؤمنين على أمير المؤمنين قبله ، وبارك الله له فيما خلفه عليه ، ولا مصيبة أعظم من فقد إمام والد ، ولا عقبى أجلّ من خلافة الله على أولياء الله ، فاقبل يا أمير المؤمنين من الله أفضل العطية ، واحتسب عند الله أفضل الرزية(٣) .

وقرأ المهدى وصية أبى جعفر التى أمر بقراءتها بعد وفاته . وقد أوصاه بتقوى الله فى البلاد والعمل بطاعته فى العباد ، وذكره باليوم الآخر وما فيه من الحساب ، يوم تشخص فيه الأبصار لدى الحناجر كاظمين ماللظالمين من حميم ولاشفيع يطاع . ثم قال له: وواس بين الرعية فى الأحكام ، واطلب بجهدك رضا الرحمن ، وأهل الدين فليكونوا أعضادك ، وأعط حظ المسلمين من أموالهم ، ووفر لهم

---

(١) فى الخطيب البغدادى يال أمة أحمد بدل يالدين محمد
(٢) الخطيب البغدادى : ٥ ص ٣٠٢
(٣) مروج الذهب : ٢ / ٢٣٨ ـ ٢٣٩

فيأهم وتابع أعطياتهم عليهم ، وعجل بنفقاتهم إليهم سنة سنة وشهراً شهرا ، وعليك بعمارة البلاد بتخفيف الخراج ، واستصلح الناس بالسيرة الحسنة والسياسة الجميلة ، وليكن أهم أمورك إليك تحفظ أطرافك وسد ثغورك ، وإكباش بعوثك ، وارغب إلى الله عزّ وجل فى الجهاد والمحاماة عن دينه وإهلاك عدوه ، بما يفتح الله على المسلمين ويمكن لهم فى الدين ، وابذل فى ذلك مهجتك ونجدتك ومالك ، وتفقد جيوشك ليلك ونهارك ، واعرف مراكز خيلك ، ومواطن رحلك ، وبالله فليكن عصمتك وحولك وقوتك ، وعليه فليكن ثقتك واقتدارك وتوكلك ، فإنه يكفيك ويغنيك وينصرك ، وكفى به مؤيداً ونصيرا(١) . وفى هذه الوصية يرسم المنصور للمهدى الخطوط العريضة التى يسير عليها فى سياسة الدولة .

سياسته واصلاحاته :

يعتبر عهد المهدى فترة انتقال بين عهد الشدة والقمع الذى ساد فى عهد أبيه المنصور وعمه السفاح ، وعهد اللين والاعتدال الذى تميزت به أيامه وأيام من أتوا بعده . وبعبارة أخرى جاء المهدى إلى الحكم بعد انتهاء دور عنيف ، ضرب فيه الخصوم دون رحمة وأريقت الدماء ونكل بالناس على التهمة ، والأمة منهوكة والهدوء سائد على مضض ، وكان الناس كما وصفهم المنصور مخاطبا ابنه لما ودعه عند خروجه إلى مكة : « إنى تركت الناس ثلاثة أصناف : فقيراً لا يرجو إلا غناك وخائفا لا يرجو إلا أمنك ، ومسجونا لا يرجو الفرج

---

(١) راجع نص الوصية فى تاريخ اليعقوبى : ٣ / ١٤٠ - ١٣٢

إلا منك، فإذا وليت فأذقهم طعم الرفاهية ، لا تمدد لهم كل المد »(١). فكان من المحتم اتخاذ سياسة رفيقة وعادلة تداوى الجروح ويلتئم بها الشمل .

ونستطيع أن نشبه عصر المهدى فى العصر العباسى بعصر الوليد ابن عبد الملك فى العصر الأموى، فقد قام عبد الملك بنفس الدور الذى قام به أبو جعفر ، كان هذا يؤسس دولة ناشئة فى وسط ظروف حرجة وقلاقل وثورات فى الداخل والخارج ، وكان عبد الملك كذلك ، فقد آلت إليه الخلافة فى ظروف حرجة ودقيقة بين ثورات داخلية وخارجية، واستطاع عبد الملك أن يقابل هذه الأحداث بصبر وحزم وأن ينتصر عليها وينجح فى القضاء على الثورات ويوطد ملكه ولذا تفرغ الوليد بعده للفتوحات الخارجية فى المشرق والمغرب وفى أوروبا .

وهكذا جنى كل من الوليد والمهدى ثمار ما غرسه الأبوان ، فمهدا الطريق أمام ابنيهما، وأصبح عصر المهدى والوليد من العصور الوضاءة التى نعم فيها المسلمون بالاستقرار والرخاء .

بدأ المهدى بالعمل على استرضاء الساخطين، فأمر الربيع بن يونس بإحضار دفتر القبوض فأحضر ، ووجه إلى كل من كان أبو جعفر قبض شيئاً من ماله فأحضره وأقبل عليهم فقال : إن أمير المؤمنين المنصور كان بما حمله الله من أموركم وقلده من رعايتكم يدبر عليكم كما يدبر الوالد البر على ولده ، وقد كان أنظر لكم منكم لأنفسكم ، وكان يحفظ لكم مالا تحفظون على أنفسكم فحرس لكم من أموالكم مالم يأمن ذهابه ، وهذه أموالكم مبارك لكم فيها فحللوا أمير المؤمنين

---

(١) تاريخ اليعقوبى : ٣ / ١٣٣

من إبطائها عنكم »(١). وروى الطبرى وغيره(٢) أن المهدى فعل ذلك بوصية من أبيه إذ قال له : إنى قد هيأت لك شيئا ترضى به الخلق ولا تغرم من مالك شيئا ، فاذا أنا مت فادع هؤلاء الذين أخذت منهم هذه الأموال التى سميتها المظالم فاردد عليهم كل ما أخذ منهم ، فانك تستحمد إليهم وإلى العامة .

وأمر باطلاق كافة المسجونين إلا من كان قبله تباعة من دم أو قتل ومن كان معروفا بالسعى فى الأرض بالفساد أو من كان لأحد قبله مظلمة أو حق ، فأطلقوا(٣) . ولم يطلق أحدا إلا كساه ووصله على قدره حتى بلغ إلى عبد الله بن مروان بن محمد الأموى ، وكان فى الحبس منذ أيام أبى العباس السفاح ، فأمر بتخلية سبيله وأعطاه عشرة آلاف درهم(٤) . كما حاول استرضاء العلويين ، فأخرج من كان منهم فى المحابس ، وأمر لهم بجوائز وصلات وأرزاق دارة(٥). أى أن المهدى أفرج عما يسمى فى عصرنا بالمجرمين السياسيين ، وكان لوزيره يعقوب بن داود أثر حسن فى زيادة التفاهم والتقريب بينه وبين العلويين فرضى عن الحسن بن ابراهيم بن عبد الله الذى هرب من السجن ، واستأمن له يعقوب من المهدى ، فأحسن المهدى صلته وجائزته ، وأقطعه مالا من الصوافى بالحجاز(٦) . وأرسل يعقوب إلى الزيدية فجمعهم وولاهم أمر الخلافة فى المشرق والمغرب كل

---

(١) ص ١٣٢
(٢) الطبرى : ٨ / ٨١ ، ابن الأثير : ٦ / ١٣ ، الفخرى ص ١٣٦
(٣) الطبرى : ٨ / ١١٧ ، ابن الأثير : ٦ / ١٧
(٤) تاريخ اليعقوبى : ٣ / ١٣٢
(٥) ، ابن الأثير : ٦ / ٢٠
(٦) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ١١٥ ، الطبرى : ٨ / ١٣٣

جليل وعمل نفيس(١) وكان ذلك مما أخذ عليه(٢) .

ولما حج المهدى سنة ١٦٠ هـ وزع على أهل مكة مالا عظيما ،وفى أهل المدينة كذلك ، وكان مقدار ماقسم ثلاثين ألف درهم ،وخمسمائة ألف دينار ، وفرّق من الثياب مائة وخمسين ألف ثوب(٣) .

وأمر الخليفة أيام مقامه بالمدينة بإثبات خمسمائة رجل من الأنصار ليكونوا معه أنصاراً وحرساً له بالعراق ، وأجرى عليهم أرزاقا سوىأعطياتهم ،وأقطعهم عند قدومهم معه ببغداد قطيعة تعرف بهم(٤) وبهذه المعاملة الطيبة استرضى أهل الحجاز بعد أن عوملوا فى أيام أبيه معاملة قاسية بسبب ثورة آل الحسن . وكما اهتم المهدى بأهل الحرمين فقد وجه عنايته إلى الحرمين ، فوسع فى مسجد الرسول (ص) ، وأمر بنزع المقصورة التى فى مسجد الرسول فنزعت ،وأراد ان ينقص منبر الرسول فيعيده إلى ما كان عليه ، ويلقى منه ما كان معاوية زاد فيه ، ولما شاور الناس فى ذلك ، قيل له أن المسامير قد سلكت فى الخشب الذى أحدثه معاوية ، وفى الخشب الأول وهو عتيق ، فلا نأمن إن خرجت المسامير التى فيه أن يتكسر ، فتركه المهدى(٥) . ومما يعاب عليه أنه أمر بمحو اسم الوليد بن عبد الملك من حائط المسجد النبوى وكتابة اسمه مكانه(٦) . وقديما شغف الملوك بهذا السطو على آثار السابقين التى تجعل ثقتنا ضعيفة بما نراه منقوشا

(١) المصدر السابق ص ١٥٦ ، بن الأثير : ٦ / ٢٨
(٢) الجهشيارى ص ١١٨، ابن الأثير : ٦ / ٢٠
(٣) الطبرى : ٨ / ١٣٣
(٤ ، ٥) المصدر السابق ص ١٣٣ والعيون الحدائق ص ٢٧٢
(٦) الطبرى ص ١٧٩ ، ابن الأثير : ٦ / ٣٤ ـ ٣٥

على الآثار ، وهذا غش وتدليس لايحسن بالسوقة أن يفعلوه فضلا عن الخلفاء .

ومن آثار المهـــدى أمره بنزع كسوة الكعبة التى كانت عليها وكساها كسوة جديدة ، ثم طلى البيت كله بالطيب ، كما أمر بالزيادة فى المسجد الحرام فدخلت فيه دور كثيرة وصيرت الكعبة فى الوسط بعد أن كانت فى جانب منه ، وأمر عامله واضح على مصر فى حمل الأموال إلى مكة واتخاذ الآلات وما يحتاج إليه من الذهب وغيره من سلاسل القناديل والأساطين(١). وأمر ببناء القصور فى طريق مكة أوسع من القصور التى كان السفاح بناها من القادسية إلى زبالة وذلك لحراسة المسافرين وإيوائهم وأمر بالزيادة فى قصور عمه السفاح ، تاركا المنازل التى بناها المنصور على حالها . كما أمر باتخاذ المصانع فى كل منهل(٢) وهى حيضان تبنى وتملأ من مياه الآبار حتى يكون الاستقاء سهلا على رجال القوافل الذين لاينقطع مرورهم من تلك الجهات ، وأمر بتجديد الأميال والبرك ، وحفر الركايا مع المصانع ، وولى على ذلك عاملا خاصا يقوم به . وأقام البريد بين مدينة رسول الله (ص) ومكة واليمن ، بغالا وإبلا ، ولم يقم هناك بريد قبل ذلك(٣) وأمر بتوسعة المسجد الجامع بالبصرة .

وكان المهدى ميالا إلى السنة يحب ألا يخالف سنة الرسول ، فمن

---

(١) تاريخ اليعقوبى ٣ : / ١٣٣ - ١٣٤

(٢) ابن الأثير : ٦ / ٢٣ وبلغت النفقات فى هذا الحج على كسوة الكعبة وصلة الناس وبناء القصور بطريق مكة واتخاذ المصانع وتجديد الاميال وحفر الركايا وغير ذلك نحوا من ستة آلاف ألف دينار (الدور . حضارة الاسلام ص ١٠٨)

(٣) الطبرى : ١٦٢/٨

ذلك أنه أمر بنزع المقاصير من مساجد الجماعات ، وتصيير منابرها إلى المقـدار الذى عليه منبر الرسول (ص) ، وكتب بذلك إلى الآفاق فعمل به(١) .

وعنى بالمجذمين وأهل السجون فأمر بإجراء الأرزاق عليهم فى جميع الآفاق(٢) لئلا يحتاج المجذومون إلى المشى فى الطرق وسؤال الناس فيكونون سببا فى انتشار المرض ، وحتى يكون للمسجونين مايقوم بحاجتهم فلا يموتوا جوعا إلا من كان له أهل يسألون عنه. ورد المهدى على أهل بيته وغـيرهم وظائفهم التى كانت مقبوضة عنهم(٣) وعمل على تهدئة أهل الشام فزار دمشق وبيت المقدس ، كما حاول تسوية الخلاف بين القبائل فى بادية الشام وفرق عليهم الأموال(٤)

وكان المهدى قد وجد بتجوله فى البلاد اختلالاً غير مأمون من الفساد ، فصرف همه إلى النظر فى أمور العمال ، ورتب أناساً يؤدون إليهم رسائله ليسد عليهم باب الادعاء بفقدانها وسماهم الأمناء(٥) . ووجههم فى كافة الأقطار وجعل أمرهم إلى وزيره يعقوب بن داود فكان لاينفذ كتابا إلى عامل فيجوز حتى يكتب يعقوب إلى بعض الأمناء بإنفاذ ذلك(٦) .

ثم نظر فى أمر الرعية فوضع لهم ديوان الأزمـة أو الزمام وهى دواوين صغيرة للإشراف على دواوين الدولة (٧) ويشبه

---

(١) ص ١٣٦ ، ابن الاثير : ٦/٢٣
(٢) الطبرى : ٨ / ١٤٢ ، ابن الاثير : ٦ / ٢٤
(٣) ابن الاثير : ٦ / ٢١
(٤) الدور : حضارة الاسلام ص ١١٤
(٥ ، ٦) ابن الاثير : ٦ / ٢٠
(٧) حضارة الاسلام ص ١٠٩

ديوان الزمام ديوان المحاسبة أو الجهاز المركزى فى العصر الحديث وأصبح هذا الديوان من أهم دواوين الدولة العباسية . وكانت مهمة صاحب هذا الديوان جمع ضرائب بلادالعراق أغنى أقاليم الدولة العباسية ، وتقديم حساب للضرائب فى الأقاليم الأخرى . ومن اختصاص صاحب هذا الديوان جمع الضرائب النوعية المسماة بالمعاون . ويقصد بديوان الأزمة أو الزمام أن الدواوين تجمع لرجل يضبطها بزمام يكون له على كل ديوان ، فيتخذ دواوين الأزمة ويولى على كل منها رجلا(١) . وذكر الطبرى أن : أول من عمل ديوان الزمام عمر بن بزيع فى خلافة المهدى ، وذلك أنه لما جمعت له الدواوين تفكر فاذ هو لا يضبطها إلا بزمام يكون له على كل ديوان ، فاتخذ دواوين الازمة ، وولى كل ديوان رجلا . ولم يكن لبنى أمية دواوين أزمة »(٢) . وكان ذلك سنة ١٦٢ هـ (٣) .

ومن اصلاحات المهدى الإدارية أنه أقام على الشرطة من تبين فيه حسن النظر بأمور المسلمين(٤) . ومنها أنه جعل يوم الخميس عطلة للكتّاب لقضاء شئونهم وللراحة ، بينما كانت الجمعة إجازة للعبادة والصلاة وقد استمر هذا الوضع حتى خلافة المعتصم(٥) .

ومن إصلاحاته فى النظام المالى أنه رفع عن دافعى الضرائب المؤن والكسور ، فمن جهة المؤن أمر المهدى أن يتحمل بيت المال

---

(١) حسن ابراهيم ! تاريخ الاسلام السياسى : ٢ ٢٠٥ ؛ النظم الاسلامية ص ١٧٧

(٢) تاريخ الطبرى : ٨ / ١٦٧ وانظر الجهشيارى ص ١٤٦ ، ١٦٦

(٣) ، ص ١٤٢

(٤) حضارة الاسلام ص ١٠٩

(٥) الجهشيارى ص ١٦٦

نفقات جباة الأموال ، وكان الناس من قبل ملزمين بتحمل هذه النفقات ، وأما الكسور فإن الناس فى صدر الإسلام كانوا يؤدون ما فى أيديهم للخراج من دراهم ودنانير مضروبة على وزن كسرى وقيصر لايفرقون فى الأوزان ، فلما ساد فيهم العمران وأفسدهم التجار والصيارفة صاروا يؤدون الدينار الطبرى الذى هو أربعة دوانيق ويمسكون الوافى الذى هو مثقال، ووزنه أكثر من الطبرى ، فلما ولى زياد العراق صار يطلب الوافى، ثم ولى الحجاج فكان يطلبه كذلك ، فلما ولى أبو جعفر المنصور أزال الخراج عن الحنطة والحبوب وصيره على أهل الفلاحة مقاسمة من غير أن يسقط عنهم الكسور، فلما ولى المهدى قال: معاذ الله أن ألزم الناس ظلماً فى ذلك. فقيل له ولكن إن أسقط أمير المؤمنين هذا ذهب من أمواله فى السنة ١٢ ألف ألف درهم ، فقال : على أن أقرر حقاً وأزيل ظلماً ، وإن أجحف بيت المال(١) فما العدل إلا موفر للجباية ، وما الجور إلا آذن بخراب الأمصار(٢) .

وليس هذا كل ما فعله المهدى مع أهل الخراج ، بل إنه أمر أن يطالبوا باللين وكانوا من قبل يعذبون ، وتقدم إلى وزيره أبى عبيد الله معاوية بن يسار أن يكتب إلى جميع العمال برفع العذاب عن أهل الخراج(٣) .

ومما أحـــدثه فى نظام الخراج أنه أبدل الخراج النقدى

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٨٠ - ٨١

(٢) حضارة الاسلام ص ٨٨ - ٨٩

(٣) الجهشيارى ص ١٤٢ - ١٤٣ ، التاريخ الاسلامى والحضارة لشلبى ٣ / ٦٠ ، العصر العباسى الأول للدورى ص ١٢٣

على المساحة فى الغلات والزروع ونقله إلى نظام المقاسمة(١) بنسب متفاوتة تتراوح ما بين النصف والثلث والربع وذلك حسب سقى الأرض بالسيح وغيره من الدواليب . وأما خراج النخل والشجر فإنه بقى على النظام القديم ، ولكنه روعى فيه القرب من الاسواق والموانى بالإضافة إلى جودة المحصول ورداءته . ويرجع الفضل فى ذلك إلى وزيره أبى عبيد الله معاوية الذى ينسب إليه أنه أول من صنف كتاباً فى الخراج ، ذكر فيه أحكامه الشرعية ودقائقه وقواعده ، وتبعه الناس بعد ذلك فصنفوا كتب الخراج(٢)

ومما أحدثه المهدى من الضرائب فرضه ضريبة على الأسواق ببغـــداد ، فكان أول ماجبيت أسواق بغداد للمهدى(٣) وربما كان سبب فرض هذه الضريبة ما كانت تعانيه خزانة بيت المال من ضيق وعجز فى أواخر حكمه .

واهتم المهدى بإقامة العدل فكان يجلس للمظالم بنفسه فى كل وقت وبين يديه القضاة ، فينظر فى شكاوى رعاياه ولو كانت الشكوى منه شخصياً ويقول عند النظر فى المظالم والقضاة معه : لو لم يكن ردى للمظالم إلا للحياء منهم لكفى(٤) وفى بداية الأمر كان لا يسمح لأصحاب المظالم بالدخـول على المهدى والاكتفاء بعرض مطالبهم فى رقاع من الورق ، ولما علم المهدى أن بعض أتباعه يأخذون رشوة من أصحاب المظالم فى مقابل عرض مظالمهم على الخليفة إتخذ بيتاً له شباك حديد تطرح فيه القصص (عرائض الشكاوى) وكان

(١ ، ٢) انظر البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٨٠ — ٢٨١ ، الاحكام السلطانية للماوردى ص ١٧٦ ، الفخرى ص ١٥٨

(٣) تاريخ اليعقوبى ص ١٢٧

(٤) الفخرى ص ١٥٥

يدخله وحده فيأخذ ما يقع بيده من القصص أولا فأولا فينظر فيه.
وعلى هذا لا يبقى هناك مجال للتأخير والتقديم فى سماع الظلامات(١)
وكان المهدى يسمح بدخول المظلومين إلى مجلسه لعرض مظالمهم
والمهدى – فيما يروى – أول من جلس للمظالم من الخلفاء العباسيين .

وذكر المؤرخون قصصاً كثيرة تدل على عدل المهدى ، وأنه
أنصف الناس حتى من نفسه وقبل حكم القاضى عليه .

فمن ذلك أن المسوَر بن مساور تقدم بشكوى قال فيها :
ظلمنى وكيل المهدى وغصبنى ضيعة لى ، فأتيت سلاّماً صاحب
المظالم وأعطيته رقعة مكتوبة فأوصلها للمهدى ، وعنده عمه العباس
ابن محمد وابن علاثة وعافية القاضى ، فأمر المهدى بإدخاله وسأله عن
عن مظلمته فأخبره بها . فقال له المهدى : ترضى بأحد هذين؟ فقال :
نعم . فقال تكلم فقال مساور : أصلح الله القاضى: إن هذا ظلمنى
فى ضيعتى وأشار إلى المهدى — فقال القاضى : ما تقول يا أمير
المؤمنين ؟ قال : ضيعتى وفى يدى ، قال مسور : أصلح الله القاضى !
سله صارت الضيعة إليه قبل الخلافة أو بعدها؟ فقال المهدى: صارت
إلىّ بعد الخلافة . قال القاضى : فأطلقها له ، قال المهدى : قد فعلت،
فقال العباس بن محمد : والله يا أمير المومنين لهذا المجلس أحبّ إلىّ
من عشرين ألف ألف درهم(٢).

ومن أشهر المظالم التى نظر فيها المهدى مظلمة رفعها إليه رجل

---

(١) الخضرى : الدولة العباسية ص ١٢٠
(٢) الطبرى : ٨ / ١٧٣ — ١٧٤

من آل أبى بكرة مولى رسول الله (ص) — وكان أبو بكرة أخا لزياد ابن أبيه من أمه — طالباً فيها من المهدى ردّ نسبهم فى ثقيف إلى ولاء الرسول، فقال المهدى: إن هـذا نسب واعتزاء، ماتقرّون به إلا عند حاجة تعرض لكم، وعند اضطراركم إلى التقرب به إلينا. فقال صاحب المظلمة: ياأمير المؤمنين من جحد ذلك فإنا سنقر، أنا أسألك أن تردنى ومعشر آل أبى بكرة إلى نسبنا من ولاء رسول الله (ص)، وتأمر بآل زياد بن عبيد فيخرجوا من نسبهم الذى ألحقهم به معاوية رغبة عن قضاء رسول الله (ص): «إن الولد للفراش وللعاهر الحجَر» فيُردّون إلى نسبهم من عبيد فى موالى ثقيف. فأمر المهدى فى آل أبى بكرة وآل زياد أن يرد كل فريق منهم إلى نسبه، وكتب إلى محمد بن سليمان — فى البصرة — كتاباً وأمره أن يقرأ فى مسجد الجماعة على الناس، وأن يرد آل أبى بكرة إلى ولائهم من رسول الله ونسبهم إلى نفيع بن مسروح، وأن يرد على من أقرّ منهم ما أمر برده عليهم من أموالهم فى البصرة مع نظرائهم، ممن أمر برد ماله عليه، وألاّ يرد على من أنكر منهم ويصطفى ماله، فأقرو جميعاً بالولاء إلا ثلاثة نفر. فاصطفيت أموالهم وكتب المهدى إلى ابنه هارون الرشيد — وكان يحكم البصرة — يأمره بإخراج آل زياد من قريش وديوانهم والعرب(١).

ويروى أن آل زياد بعد ذلك رشَوا صاحب الديوان حتى ردهم إلى ما كانوا عليه.

---

(١) انظر الطبرى ٨ / ١٢٩ وما بعدها وتجد نص الكتاب المرسل من المهدى إلى والى البصرة.

المهدى والزنادقة اتجه الفرس في مقاومتهم للحكم الإسلامي إلى اتجاه جديد فقد تأكد لديهم أنهم لن ينتصروا على المسلمين عن طريق العنف والسلاح لذلك لجأوا إلى تحويل المسلمين إلى دينهم وذلك بتشكيكهم في الإسلام، ولما كان الفرس يتبعون أكثر من عقيدة فقد انتشر أكثر من محاولة أطلق المسلمون عليها حركة الزندقة وقد عين المهدي لها جميعاً صاحب الزندقة وتتلخص هذه الحركة في :

أ - وضع أحادث مكذوبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ب - نشر الماجوسية، وهي عبادة (النور والظلمة) .

جـ- حركة المقنع وفتنة الناس بإظهار قمر في السماء (وقد واجه

د - محاولة نشر الإلحاد (وقد طلب المهدي من العلماء وضع الكتب للرد على الملحدين، وهو ما نشأ عنه علم الكلام) .

ولما قامت الدولة العباسية انتعش الموالي وخاصة الفرس وأصبح فى أيديهم كثير من المناصب وغلبوا على العرب ، ولكنهم رأوا أن ذلك لايحقق مطالبهم ، فقد انتقلوا من يد عربية إلى يد أخرى هى يد العباسيين ، وهم يتطلعون إلى أن تكون الحكومة فارسية فى مظهرها وحقيقتها ورأوا أن ذلك لايتحقق والإسلام فى سلطانه ، فأخذوا يعملون لنشر دياناتهم من زرادشتية ومانوية ومزدكية ظاهراً إن أمكن ، وخفية إذا لم يمكن ، وللوصول إلى أهدافهم اعتنقوا الإسلام أولا . ولما نجحوا فى أن يتحرروا سياسيا وتخلصوا من الحكم الأموى بدءوا فى تنفيذ مخططهم فكانت الزندقة وكان كذلك انتشارها .

ولم تكن كلمة الزندقة ذات معنى واحد وإنما كانت تطلق على معان أربعة(١) :

(ا) التهتك والاستهتار والفجور مع تبجح فى القول يصل أحيانا إلى ما يمس الدين ، ولكن قائله لم يقله عن نظر وإنما قاله عن خلاعة ومجون ومن هؤلاء آدم حفيد عمر بن عبد العزيز ، اتهم بالزندقة ، لأنه كان خليعا ماجنا منهمكا فى الشراب ، وتجرى على لسانه أبيات فيها مساس بالدين . فأخذه المهدى وضربه ثلاثمائة سوط على أن يقر بالزندقة فيقول له : والله ما أشركت بالله طرفة عين ، ومتى رأيت قرشيا تزندق ؟ ولكنه طرب غلبنى وشعر طفح على قلبى ، وأنا فتى من فتيان قريش أشرب النبيذ وأقول ما قلت على سبيل المجون ، ثم هجر الشرب والمجون بعد ذلك .

(ب) أتباع دين المجوس وخاصة دين مانى(٢) مع التظاهر بالاسلام ، كالذى اتهم به بشار بن برد ، وحماد عجرد وابن المقفع ،

ويونس بن أبى فروة الذى عمل كتابا فى مثالب العرب ، وعيوب الإسلام بزعمه ، وصار به إلى ملك الروم فأخذ منه مالا ، ومطيع بن إياس ، وعبد الكريم بن أبى العوجاء الذى قتله المنصور بعد أن أقر بأنه وضع أربعة آلاف حديث مصنوع مكذوب على رسول الله ، وصالح بن عبد القدوس ، وعلى بن الخليل ، وابن مناذر .

---

(١) أحمد أمين : ضحى الإسلام ١/٤ ١٥٠

(٢) كانت شعائر المانوية قريبة الشبه بشعائر الاسلام : فكان على أتباعها من الصلوات فى اليوم والليلة أربع أوسبع . وفى كل صلاة عدة ركعات ، وكانت لهم طهارة قبل الصلاة تشبه الوضوء ، وكان عليهم أن يصوموا أيضاً .

(ج) أتباع دين المجوس وخاصة مانى من غير تظاهر بالإسلام، وكان لهذا الصنف من الزنادقة كتب لا تفيد علماً ولا حكمة، وكل ما فيها ذكر النور والظلمة وتناكح الشياطين(١).

(د) ملحدون لا دين لهم. وهم قوم جحدوا الأديان كلها، فالزندقة بهذا المعنى مرادفة للدهرية والإلحاد.

تلك هى معانى الزندقة وإطلاقاتها، ولكن يظهر أن الكلمة أكثر ما كانت تطلق على من اعتنق المانوية باطناً والإسلام ظاهراً، ثم توسعوا فى معناها فأطلقوها على الإباحى والملحد الذى لا دين له.

ويلاحظ أن معظم الزنادقة كانوا من الموالى الفرس، والقليل منهم كان عربياً بل من الهاشميين مثل: الحسين بن عبد الله بن عبيد الله ابن العباس، وعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب، وداود بن على، ويعقوب بن الفضل بن عبد الرحمن بن عباس من ذرية الحارث بن عبد المطلب قد اتهما بالزندقة وأقرا بذلك للمهدى ولكن كانت الزندقة فى العرب على العموم نادرة، وأكثر من اتهم بها كانت زندقته بمعنى التهتك والفجور، أو كان اتهامهم من أجل خصومة سياسية، إذ أن بعض الناس اتخذوا الزندقة ذريعة للانتقام من خصومهم سواء فى ذلك الشعراء والعلماء والأمراء والخلفاء والوزراء، فاتهم بها ابن المقفع(٢)، وعبيد الله بن معاوية بن يسار الذى كان أبوه معاوية وزيراً للمهدى، ولحقد الربيع بن يونس حاجب المهدى على الوزير وكان محمود السيرة فلم يتمكن من النيل منه

---

(١) الجاحظ: كتاب الحيوان ٣ / ٢٩، ضحى الإسلام ١ / ١٥٣
(٢) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٤٤

شخصياً ، فاتهم ابنه عبيد الله بالزندقة وأخبر المهدى بذلك ، فبعث المهدى إلى عبيد الله وسأله عن شىء من القرآن العزيز فلم يعرف ، فقال لأبيه — وكان حاضراً — ألم تخبرنى أن ابنك يحفظ القرآن ؟ قال : بلى يا أمير المؤمنين ، ولكن فارقنى منذ مدة فنسيه ، فقال له : قم فتقرب إلى الله بدمه ، فقام معاوية فعثر ووقع وارتعد ، فقال العباس بن محمد عم المهدى : يا أمير المؤمنين إن رأيت أن تعفى الشيخ من قتل ولده ويتولى ذلك غيره ؟! فأمر المهدى بعض من كان حاضراً بقتله ، فضربت عنقه ، ثم احتجب الوزير وانقطع بداره ، وبهذا تم للربيع ما أراده من إزالة نعمة أبى عبيد الله معاوية حتى مات فى سنة ١٧٠ هـ(١) :

وكان من أظهر أعمال المهدى التاريخية تنكيله بالزنادقة والبحث عنهم ، فقد عين شخصاً وكل إليه أمرهم سماه « صاحب الزنادقة » ويقول الأصفهانى : « لما نزل المهدى البصرة كان معه حمدويه صاحب الزنادقة فدفع إليه بشاراً، وقال: اضربه ضرب التلف(٢) » وهذه أول مرة نسمع فيها بتعيين رجل خاص يعهد إليه أمرهم ، يبحث عنهم وينكل بهم . ويتحدث صاحب الفخرى عن كراهية المهدى للزنادقة فيقول : « وكان المهدى شديداً على أهل الإلحاد والزندقة ، لا يزال يتطلع عليهم ويفتك بهم »(٣) . كما قال السيوطى « وجَدّ المهدى فى تتبع الزنادقة وإبادتهم، والبحث عنهم فى الآفاق والقتل على التهمة »(٤) . ويقول الطبرى(٥) فى حوادث سنة ١٦٧ هـ :

(١) انظر الفخرى ص ١٥٨ — ١٦٠
(٢) الأغانى ٣ / ٧٣
(٣) الفخرى ص ١٥٩
(٤) تاريخ الخلفاء ص ٢٧٣
(٥) ٨ / ١٦٥

« وفيها جدّ المهدى فى طلب الزنادقة والبحث عنهم فى الآفاق وقتلهم وولى أمرهم عمر الكلواذى » .

وكان المهدى أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب فى الرد على الملحدين من الجاحدين وغيرهم، وأقاموا البراهين على المعاندين ، وأزالوا شبه الملحدين فأوضحوا الحق للشاكّين( ) ... وبهذا يكون المهدى قد قام بأمرين نحو الزنادقة ، إنشاء ديوان للبحث عنهم ومحاكمتهم ، وإنشاء هيئة علمية لمناظرتهم وتأليف الكتب للرد عليهم .

وقد اعتبر المهدى الزنادقة كفاراً ملحدين عقابهم القتل(٢) . وعند رحيله إلى الشام مرّ بمدينة حلب، وكان قد علم بانتشار الزندقة بين بعض سكانها ، فأمر بقتلهم والتمثيل بجثثهم . ولما اتهم صالح ابن عبد القدوس بالزندقة وأراد المهدى قتله ، قال صالح : أتوب إلى الله . ثم أنشد :

ما يبلغ الأعداء من جاهل — ما يبلغ الجاهل من نفسه
والشيخ لا يترك أخلاقه — حتى يُوارى فى ثرى رمسه

وكاد المهدى أن يطلق سراحه، حتى إذا سمع البيت الأخير ،قال: ألم تقل والشيخ لايترك أخلاقه؟ قال : بلى . فقال المهدى فكذلك

---

(١) مروج الذهب : ٤ / ٢٤٢

(٢) كثير من الحنفية يرى أن المرتد إذا تاب قبلت توبته ولم يقتل ، أما الزنديق إذا تاب لم تقبل توبته وقتل ، وقال الشافعية لا يقتل من أظهر التوبة من الزنادقة .

أنت لا تدع أخلاقك حتى تموت . ثم أمر بقتله(١) .

وليس أدل على شدة اهتمام المهدى بأمر الزنادقة من وصيته ابنه موسى الهادى إذا قلد الأمر أن ينكل بهم . فيروى الطبرى وابن الأثير: « أن المهدى قال لموسى يوما — وقد قدم إليه زنديق فاستتابه ، فأبى أن يتوب ، فضرب عنقه وأمر بصلبه — : يا بنىّ ، إن صار لك هذا الأمر ، فتجرّد لهذه العصابة — يعنى أصحاب مانى — فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن ، كاجتناب الفواحش والزهد فى الدنيا والعمل للآخرة ، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومسّ الماء الطهور وترك قتل الهوام تحرجاً وتحوبا ، ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين . أحدهما النور والآخر الظلمة ، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات ، والاغتسال بالبول ، وسرقة الأطفال من الطرق لتنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور . فارفع فيها الخشب، وجرّد فيها السيف ، وتقرّب بأمرها إلى الله لا شريك له، فإنى رأيت جدك العباس فى المنام قلدنى بسيفين ، وأمرنى بقتل أصحاب الإثنين ... فقال موسى بعد أن مضت من أيامه عشرة أشهر . أما والله لئن عشت لأقتلن هذه الفرقة كلها حتى لا أترك منها عينا تطرف . ويقال إنه أمر أن يهيأ له ألف جذع ، فقال : هذا فى شهر كذا ، ومات بعد شهرين(٢) .

ومن هذا النص يظهر لنا عناية المهدى وابنه الهادى بأمر الزنادقة كما يتضح منه مفهوم الزندقة فى عهد المهدى وابنه . والسؤال الذى

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٥ ، الدكتور ع . حسن الخربوطلى : المهدى العباسى ص ١٢٣ — ١٧٤ (سلسلة أعلام العرب عدد ٥١)

(٢) الطبرى : ٨ / ٢٢٠ ، ابن الأثير : ٦ / ٤٣

يقفز من وراء محاربة المهدى للزنادقة هو : هل كانت هذه المطاردة لتلك الفئة لدافع دينى ، وهو القضاء على النزعات والمقالات التى تهدد الدين باعتباره خليفة المسلمين ليرضى بذلك العامة والعلماء ، أم كان لذلك هدف آخر ؟ لاشك أنه كان للعامل الدينى أثر فى ذلك، ولكن العامل السياسى كان له دخل كبير ، فقد رأى هؤلاء الزنادقة وعامتهم من الفرس أن السلطة لا زالت فى يد أسرة عربية وأنهم خاضعون لنفوذ أجنبى ، بينما هم يريدون أن تكون الدولة فارسية فى كل شىء وهذا لا يتحقق والإسلام قوى ، فحاولوا إضعافه بنشر الديانات الفارسية القديمة وسعوا من وراء ذلك لقلب النظام القائم، فإن أساس الخلافة دينى، واتحاد الدين بالسياسة وتآزرهما قوام الدولة العباسية. ومتى ضعف الدين الإسلامى ضعف سلطان الخليفة وتهدم أساس الدولة .

وتتبين نوايا هذا الفريق من الزنادقة من التهم التى اتهم بها الأفشين — فيما بعد — قائد الخليفة المعتصم، فقد حاول قلب الخلافة والقضاء على سلطان العرب وإعادة الملك الفارسى والديانة الفارسية(١) .

ولعل فيما ذكره الجاحظ(٢) ، يوضح هذه الفكرة عند الزنادقة من أن الكراهية للإسلام وللسلطان العربى هو الدافع لهؤلاء ، إذ يقول : « فإنما عامة من ارتاب بالإسلام إنما جاءه هذا عن طريق الشعوبية ، فإذا أبغض شيئا أبغض أهله ، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة ، فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام ، إذ كانت العرب هى التى جاءت به وكانوا السلف »(٢).

---

(١) انظر ابن الأثير : ٦ : ٢١٠ — ٢١١

(٢) البيان والتبيين : ٣ / ١٤ (طبعة السندوبى سنة ١٩٣٢) ، العصر العباسى للدورى ص١١٤

ثورة المقنع الخراسانى :

إسمه عطاء ، وقيل إسمه حكيم (١)، وقيل اسمه هاشم بن حكيم (٢). وأصله من قرية من قرى مرو تدعى (كاوه كميردان)(٣) وكان فى مبدأ أمره قصّارا فى مرو(٤) ، وقد لقب بالمقنّع لأنه تبرقع بحرير أخضر على بعض الروايات(٥) ، أو لأنه اتخذ وجها من ذهب وركبه على وجهه فى روايات أخرى ، لأنه كان قبيح الخلقة أعور ألكن قصيراً مما يدعو إلى نفور الناس منه، فصنع القناع لإخفاء هذا النفور وكان سبب تبرقعه فى زعمه أنه يشعّ من وجهه نور ساطع يبهر الأنظار وقد يحرق من يقع عليه .

وكان المقنع فى أول أمره يعتنق مذهب الرزّامية (أتباع رزام وكانوا كيسانية فى الأصل) وهم فرع من فروع حزب الشيعة الكيسانية الذين ساقوا الإمامة إلى محمد بن الحنفية بن علىّ ، ثم إلى ابنه أبى هاشم ، ثم إلى علىّ بن عبد الله بن عباس ثم إلى ابنه محمد ، ثم إلى إبنه إبراهيم الإمام ، ثم إلى أخيه أبى العباس السفاح ، ثم انتقلت إلى أبى مسلم الخراسانى ، وقد ظهروا بخراسان واتخذوا مرو مركزاً لنشر دعوتهم ، واعتقدوا أن روح الله قد حلّ فى أبى مسلم ، وأنه أيده وأعانه على بنى أمية فقتلهم عن آخرهم، كما قالوا بتناسخ الأرواح، واعتقدت طائفة منهم أن أبا مسلم صار إلها بحلول

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ١/٤٢٢

(٢) لامصر العباسى للدورى ص ١١٥ عن البيرونى . ص ٢١١

(٣) الدورى .

(٤) ابن خلكان، كتاب العاة من الناملين والتنبئين والتمهدين (تأليف وجيه فارس الكيلانى طبع القاهرة سنة ١٩٢٣ م) ص ١٢ — ١٤

(٥) الدوري ص ١١٥

روح الله فيه ، وأنه حيّ لم يمت ، وينتظرون عودته ، وقالوا إن الذى قتله المنصور كان شيطانا تصوّر للناس فى صورة أبى مسلم(١).

وإذاً كان المقنع فى ابتداء أمره يقول بالحلول والتناسخ وادعى الإلهيّة ، وكان يقول . إن الله خلق آدم فتحول فى صورته ، ثم فى صورة نوح ، ثم فى صورة إبراهيم ، ثم إلى صورة واحد فواحد وهكذا إلى محمد، ثم تحول بعده فى صورة على بن أبى طالب ثم انتقل فى صورة أولاده، حتى حصل فى صورة أبى مسلم الخراسانى ثم زعم أنه انتقل منه إليه ، وقال : إنى أنتقل فى الصور لأن عبادى لا يطيقون رؤيتى فى صورتى التى أنا عليها، ومن رآنى احترق بنورى، وأسقط الصلاة والزكاة والصوم والحج ، كما أباح لهم تعاليم مزدك التى تدعو إلى الإباحية والفوضى الاجتماعية، فهى تبيح المال والنساء للجميع . وبايع المقنع خلق من ضلال الناس ، وكانوا يسجدون إلى ناحيته أين كانوا من البلاد ، وكانوا يقولون فى الحرب : يا هاشم أعنّا . واجتمع إليه خلق كثير(٢) .

وأحس المقنع بضرورة إظهار أمر غريب كالمعجزة لإغراء الجهال باتباعه ، لذلك أظهر قمراً يطلع ويراه الناس من مسافة شهر من موضعه ثم يغيب(٣).

وقد ذكر أبو العلاء المعرى هذا القمر الطانف فى قوله :

---

(١) تاريخ الاسلام السياسى : ٢ / ٩٥ نقلا عن كتاب فرق الشيعة للنوبختى ص ٤٢ — ٤٣ ، الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٢٤١ — ٢٤٣ ، الملل والنحل للشهرستانى ١ / ٢٠٥ — ٢٠٧

(٢) الفخرى ص ١٥٦.

(٣) ابن خلكان ١ /٤٠٢

أرق إنما البدر المقنع رأسه   ضلال وغي مثل بدر المقنع

وقد علل بعض المؤرخين ظهور هذا القمر بأعمال من الشعوذة والسحر ، ولكن الحقيقة خلاف ذلك وأنه يمكن تعليله بطريقة علمية سبقه إليها رجل ادعى النبوة فى بلاد ما وراء النهر فى ناحية كش يسميه المؤرخون (المخرق) وتسمى أتباعه (المخرقين) وادعى أنه يطلع بدراً فى السماء فحفر بئراً واسعة فى بعض جبال تلك الناحية فطرح فيها الزئبق الكثير فوق الماء ، فكان شعاعه يظهر فى الجو كأنه البدر ، فلا مانع من أن المقنع لجأ إلى مثل هذه الحيلة .

ويقول القزويني : وعوام الناس يحسبونه سحراً ، وما كان إلا بطريق الهندسة وانعكاس شعاع القمر لأنهم وجدوا فى قعر البئر طاساً كبيراً مملوءاً زيبقا . وفى الجملة قد اهتدى إلى أمر عجيب سار فى الآفاق واشتهر حتى ذكره الناس فى الأشعار والأمثال وبقى ذكره بين الناس(١) .

وكانت ثورة المقنع امتداداً لثورة الراوندية أتباع أبى مسلم الخراسانى الذين خرجوا على المنصور واعتقدوا بإمامته بعد أبى العباس السفاح ، فهى بذلك لا تعترف بسلطان العباسيين ، كما أنها من جهة أخرى تدين بالولاء للديانة الفارسية وبخاصة أتباع مزدك . وإذاً فهى ثورة قومية شعوبية قصد بها القضاء على سلطان العرب وبالتالى تهديد سلامة المجتمع الإسلامى ونظم الدولة الإسلامية .

---

(١) آثار البلاد وأخبار العباد (طبع بيروت ١٣٨٠ هـ ١٩٦٠ م) ص ٤٦٦ ، انظر الدورى : العصر العباسى ص ١١٦ ، تاريخ الاسلام السياسى ٢ / ٩٥ ، المهدى سلسلة الأعلام العرب ص ١٦٨

وقد لقيت دعوة المقنع الزائفة هوى فى نفوس الساخطين على السلطان العباسى ، وانتشرت آراؤه ومبادئه فى بخارى وسمرقند والأتراك الذين كانوا حول بحر قزوين ، وآوى إلى الأعتصام بقلعة حصينة فى كش ّ وكانت محاطة بخندق عظيم ، وابتدأ بجمع الطعام عدة للحصار الذى قد يضرب حول القلعة .

ولما أدرك المهدى خطورة دعوة المقنع وجّه لقتاله عدة من قواده ، فيهم معاذ بن مسلم والى خراسان ، ومعه عقبة بن مسلم . وجبرائيل بن يحيى وليث مولى المهدى ، ثم أفرد المهدى لمحاربته سعيدا الحرشى وضمّ إليه القواد(١).

ولما طال الحصار على المقنع طلب أصحابه سراً من سعيد الحرشى الأمان فأجابهم إلى ذلك ، ونتيجة لذلك خرج من جيش المقنع نحو ثلاثين ألفا وبقى معه زهاء ألفين(٢) وحينما اشتد الحصار على المقنع وأيقن بالهلاك جمع نساءه وأهله وسقاهم السمّ وشرب هو أيضاً من السم ، ثمات وماتوا جميعاً ودخل المسلمون قلعته ، واحتزوا رأسه ووجّهوا به إلى المهدى وهو بحلب(٣) سنة ١٦٣ هـ وكان بدء الثورة سنة ١٦١ هـ .

وذكر ابن الأثير رواية ثانية عن مصير المقنع فقال إنه لم يشرب السم مع من شربه من أهله ، وإنما أحرق نفسه بالنار لئلا يقدر على جثته ، وقيل إنه أحرق كل ما فى القلعة ثم قال : من أحب أن يرتفع

---

(١) الطبرى ٨ / ١٣٥
(٢) ابن الأثير ٦ / ٢١
(٣) الطبرى ص ١٤٤

معى إلى السماء فليلق نفسه معى فى هذه النار ، وألقى بنفسه مع أهله ونسائه وخواصه فاحترقوا ، ودخل الجيش القلعة فوجدوها خالية خاوية ، وكان ذلك مما زاد فى افتتان من بقى من أصحابه والذين يسمون المبيضة بما وراء النهر من أصحابه إلا أنهم يسرون اعتقادهم(١) .

ولعل أقرب تلك الرويات من الصواب أن المقنع أحرق نفسه فى اللحظات الآخيرة حتى لا يظفر العباسيون بجثته ويزيدا فتنان الناس به ، وحدث فعلا أن أصحابه زعموا أنه صعد إلى السماء . ويذكر ابن العبرى أن المقنع وعد أصحابه أن تتحول روحه إلى قالب رجل أشمط على برذون أشهب وأنه يعود إليهم بعد كذا سنة ويملكهم الأرض فهم بعد ينتظرونه(٢) .

ومهما تكن الصورة التى قتل بها المقنع فقد قضى على ثورته واطمأن المهدى من ناحيته وأمن الناس من شر مبادئه .

ولم يضع موت المقنع حداً لتعاليمه التى اتبعها طائفة من سكان بلاد ما وراء النهر الذين أصبحوا يعرفون باسم «المقنعية المبيضة» وزعموا أن المقنع كان إلها وأنه تصور فى كل زمان بصورة خاصه(٣) ، وأصبح له أشياع فى بلاد ما وراء النهر والتركستان ، واتخذوا فى كل قرية مسجداً يصلون فيه ويستحلون الميتة والخنزير ، ويبيحون النساء ، وإن ظفروا بمسلم لم يره مؤذن مسجدهم قتلوه وأخفوا جثته(٤) .

---

(١) تاريخ الكامل : ٦ / ٢١ ، انظر الفخرى ص ١٥٦

(٢) مختصر أخبار الدول ص ٢١٨ طبع بيروت .

(٣) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٢١٥

(٤) الاسلام السياسى ٢ / ٩٦

ويفهم من كلام ابن العبرى (المتوفى ٦٨٥ هـ = ١٢٨٦ م) أن المبيضة كانوا موجودين فى بلاد ما وراء النهر فى القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى وأنهم ينتظرون عودة المقنع(١) .

ومن الفتن التى كانت فى عهد المهدى ثورة أهل الحوف فى مصر (بالقرب من بلبيس) وقتلوا عامل المهدى . فندب لقتالهم الفضل ابن صالح بن على العباسى، ولكنه وصل إلى مصر بعد وفاة المهدى وقضى على الثورة. كذلك ثار ببلاد الشام عبد الله بن مروان بن محمد ولكنه هزم فحبسه المهدى ، ثم عفا عنه ووسع عليه الأرزاق(٢) .

كما قامت ثورة أخرى فى الجزيرة بزعامة عبد السلام بن هشام اليشكرى ، ولكنه هزم وقتل فى قنّسرين (٣).

السياسة الخارجية : ١ - مع بلاد الأندلس. كانت العلاقات بين المهدى وعبد الرحمن الداخل سيئة وهذه العلاقات وضع أساسها من قبل أبو جعفر المنصور ، ونظراً لحالة الدولتين الداخلية لم يستطع أحد منهما أن يجرد جيشا للقضاء على الآخر ، واكتفى كل من الرجلين باضمار العداء للآخر ، ولكن حدثت مناوشات جانبية بين الدولتين كان البادىء بها المهدى ، فقد وجه المهدى عبد الرحمن بن حبيب الفهرى (المعروف بالصقلبى) إلى بلاد الأندلس ، فسار من إفريقية وعبر البحر ، وكتب إلى سليمان بن يقظان ببرشلونه يحثه على حرب عبد الرحمن الأموى ، والدعاء إلى طاعة المهدى ، فلم يجبه سليمان ،

---

(١) مختصر أخبار الدول ص ٢١٨

(٢) الطبرى : ٨ / ١٣٥

(٣) الطبرى ٨ / ١٤٢ ، ابن الأثير : ٦ / ٢٤

فعاد الصقلبي إلى تدمير وسار عبد الرحمن الأموي نحوه فى العدد والعدة وأحرق السفن تضييقا على الصقلبي فى الهرب . وإزاء ذلك قصدا الصقلبي إلى جبل منيع بناحية بلنسية وصمد الجيش الأموى ، ولما رأى ذلك عبد الرحمن بذل ألف دينار لمن يأتيه برأسه ، فاغتاله رجل من البربر فقتله وحمل رأسه إلى أمير الأندلس عبد الرحمن فأعطاه ألف دينار ، وكان مقتله سنة ١٦٢ هـ . (١) وهكذا لم تنجح سياسة المهدى فى إعادة هذه البلاد إلى العباسيين .

وتبادل المهدى وعبد الرحمن الأموى كتباً حوت ثلبا وشتما ، فقد روى الطبرى(٢) أن المهدى أرسل إلى هشام الكلبي فدخل عليه وهو جالس ليس عنده أحد وبين يديه كتاب ، فقال له المهدى . خذ الكتاب فاقرأه ، ولا يمنعك ما فيه مما تستفظعه أن تقرأه ، فنظر فى الكتاب ، فلما قرأ بعضه استفظعه فألقاه من يده ولعن كاتبه ، فقال له المهدى اقرأه بحقى عليك حتى تأتى على آخره ، فاستأنف هشام قراءة الكتاب حتى فرغ منه ، فإذا الكتاب مملوء ثلباً عجيبا ، لم يبق له فيه شيئا ، فسأل هشام المهدى : من هذا (الملعون) الكذاب ؟ قال : صاحب الأندلس . فقال هشام : الثلب فيه وفى آبائه وفى أمهاته . ثم اندفع هشام فى ذكر مثالبهم ، فسر بذلك المهدى وأقسم عليه أن يملى مثالبهم كلها على كاتب واستدعى كاتبا من كتاب سر المهدى ، فأملى عليه مثالب الأمويين لم يترك شيئا إلا ذكره ، ثم عرض الكتاب على المهدى فأظهر السرور وأمر بالكتاب فختم ، وجعل فى خريطة ، ودفع إلى صاحب البريد ، وأمر بتعجيله إلى الأندلس ،

(١) ابن الأثير : ٦ / ٢٢ — ٢٣
(٢) الطبرى ٨ / ١٧٣

وكافأ المهدى هشاماً فأعطاه عشرة أثواب من جياد الشباب وعشرة آلاف درهم وبغلة بسرجها ولجامها .

٢ — مع دولة الفرنجة : كان شرلمان ملك الفرنجة مهتما بإعادة الدولة الرومانية الغربية ، وقد فطن إلى الخلاف الذى بين العباسيين فى المشرق والأمويين فى الأندلس فأراد الاستفادة من هذا العداء، فتقرب إلى الخليفة المهدى ليكتسب بذلك شيئا من النفوذ فى بلاده ويهدد بذلك منافسه امبراطور الدولة البيزنطية عدو العباسيين والفرنجة، وقد جنى شارلمان ثمار هذه السياسة فيما بعد فى عهد الرشيد ، وهكذا كانت العلاقة بين العباسيين وملك الفرنجة ودية وقد اقتفى المهدى فى ذلك السياسة التى اتبعها أبوه المنصور إزاء الفرنجة والأندلس .

٣ — مع الدولة البيزنطية : لم تكن الإغارات تنقطع بين المسلمين والروم ، لذلك كانت العلاقة بين الطرفين سيئة ، وقد سار المهدى على خطة والده فى الاهتمام بتحصين الحدود ، فقد استتم ما كان بقى من المدن والحصون وزاد فى شحنها(١) وأبدى نشاطا ملحوظا فى إرسال الحملات ضد الروم، وأهم هذه الحملات ما كان فى سنة ١٦٣هـ، فقد أمر بإرسال جيش إلى بلاد الروم وولى قيادته ابنه هارون وفرض البعوث على جميع الأجناد من أهل خراسان وغيرهم، وخرج المهدى فعسكر بالبَرَدَان ، فأقام به نحوا من شهرين يتعبأ ويتهيأ ، ويعطى الجنود ، وأخرج صلات لأهل بيته الذين شخصوا معه ، وكانت هذه الغزوة أو الصائفة من أهم ما حدث فى عهد المهدى ، فتح الله عليهم فيها فتوحا كثيرة ، وأبلاهم فى ذلك الوجه بـــلاء

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٠

جميلا (١) ، ففتحوا قلعة « سمالو » بعد أن أقاموا عليها ثمانيا وثلاثين ليلة ، وقد نصب عليها المجانيق حتى فتحها الله بعد تخريب لها ، وكان فتحها على ثلاثة شروط : ألاّ يقتل أهلها ولا يرحلوا ولا يفرق بينهم ، فأعطوا ذلك فنزلوا ، وقفل هارون بالمسلمين إلا من كان أصيب منهم بها(٢) .

وفى سنة ١٦٥ هـ أعاد المهدى الكرة على بلاد الدولة البيزنطية (الروم) فجمع جيشاً يبلغ نحو ٩٥٧٩٣ جندى ، وحمل لهم من الدنانير ١٩٤٤٥٠ ، ومن الدراهم إحدى وعشرين مليوناً وأربعمائة وأربعة عشر ألفاً وثمانمائة ، ثم ولى هارون أمر قيادة الجيش ، وسار الجيش حتى بلغ سواحل البسفور ، وكان الذى يقوم بأمر الروم الملكة إيرينى (أغسطه) أرملة ليو الرابع وكانت وصية على ابنها قسطنطين السادس ، فجرت بينها وبين هارون الرسل والسفراء فى طلب الصلح والموادعة وإعطائه الفدية ، فقبل ذلك هارون ، وشرط عليها الوفاء بما أعطت له ، وأن تقيم له الأسواق والأدلاء فى طريقه ، لأنه دخل مدخلا صعبا مخوفا على المسلمين ، والذى وقع عليه الصلح بينه وبينها : تسعون أو سبعون ألف دينار فى السنة تؤدى على دفعتين : الأولى فى نيسان (أبريل) والثانية فى حزيران (يونيه) فقبل ذلك منها ، وأقامت له الأسواق فى منصرفه ووجهت معه رسولا إلى المهدى بما بذلت على أن تؤدى ما تيسر من الذهب والفضة والعروض ، وكتبوا كتاب الهدنة إلى ثلاث سنين ، وسلمت الأسارى ، وكان عدد الأسرى من الروم خمسة آلاف وستمائة وثلاثة وأربعين (٥٦٤٣) رأساً ، وقتل من الروم

---

(١) الطبرى : ١٤٦/٨
(٢) شرحه ص ١٤٨

أربعة وخمسون ألفا ، وقد غنم المسلمون سوى ذلك مغانم كثيرة حتى بيع البرذَوْن بدرهم ، والبغل بأقل من عشرة دراهم ، والدِّرْع بأقل من درهم وعشرين سيفا بدرهم ، وقد سجل هذا الانتصار العظيم مروان بن أبي حفصة شاعر المهدي في قوله مخاطبا هارون الرشيد(١):

أطفتَ بِقسْطنْطينَةِ الروم مُسْنِداً
إليها القَنا حتى اكتسى الذلَّ(٢) سورها

وما رمْتَها حتى أتتك مُلوكُها
بجزيتها ، والحَربُ تَغلي قدورُها

وهذه الجملة زادت في رفعة هارون ، مما جعل أباه يلقبه بالرشيد ويعينه وليا ثانيا للعهد بعد أخيه الأكبر موسى الهادي .

وفي شهر رمضان من سنة ١٦٨ هـ أي قبل انقضاء مدة الهدنة بأربعة أشهر نقض الروم الصلح ، فوَجه علي بن سليمان والي الجزيرة وقنّسرين يزيدَ بن بدر بن البَطال في سرية إلى الروم فغنموا وظفروا .

وكان من أثر هذه الانتصارات التي أحرزها المهدي على الروم أن هابه الملوك ، فدخل أكثرها في طاعته ، ومنهم ملك كابل وملك طبرستان وملك السغد وملك طخارستان وملك فرغانة وملك أشروسنة وملك سجستان وخاقان الترك وملك التبت وملك الصين وملك السند وملك الهند(٣) . كما كانت جهود المهدي في هزيمة البيزنطيين

---

(١) الطبري : ٨/ ١٥٢ — ١٥٣ ، ابن الأثير : ٦/ ٢٧ .
(٢) الذل بكر الذال : اللين
(٣) تاريخ اليعقوبي ٣ / ١٣٥ ـ ١٣٦

عاملا على بداية سلسلة طويلة من الانتصارات فى عهد الرشيد .

الوزارة والوزراء :

فى أيام المهدى ظهرت أبهة الوزارة وكان مظهرها أوضح مما كانت عليه فى عهد أبيه المنصور، وذلك لاختلاف ظروف العهدين، فإن ظروف الدولة فى العهد الأول حتمت على المنصور أن يدبر الأمور بنفسه، فكان الوزراء بجواره قوة تنفيذية فقط تعمل بوحيه وإرشاده أما فى خلافة المهدى وقد استقرت الأمور فإنه لجأ إلى شىء من الراحة ووكل كثيراً من الأمور للوزراء يديرونها حسبما يشاءون ولعل من أسباب ذلك ما رآه من كفاءة أول وزرائه أبى عبد الله معاوية بن يسار مولى الأشعريين الذى كان مثالا نادراً فى النزاهة والأمانة، فاطمأن له المهدى وترك له أمور الدولة .

وكان معاوية كاتب المهدى ونائبه قبل الخلافة، ضمه المنصور إليه، وكان قد عزم على أن يستوزره لنفسه، لكنه آثر به المهدى، فكان غالباً على أموره لا يعصى له قولا، وكان يوصى المهدى بامتثال مشورته .

فلما مات المنصور استوزره المهدى، وفوض إليه تدبير المملكة فجمع له حاصل المملكة، ورتب الديوان وقرر القواعد، وكان كما يقول الفخرى(١) : كاتب الدنيا وأوحد الناس حذقاً وعلماً وخبرة . ومن مبتكراته أنه نقل الخراج إلى المقاسمة بعد أن كان السلطان يأخذ على الغلات خراجا مقرراً ولا يقاسم وجعل الخراج

---

(١) الفخري ص ١٠٧

على النخل والشجر. وقد أشرنا إلى هذا عند الكلام على الإصلاحات في عهد المهدى. وصنف كتابا فى الخراج كان أول مصنف فى هذا الموضوع، وتبعه الناس بعد ذلك فصنفوا كتب الخراج.

وقد لعبت الدسائس والسعايات دوراً هاما فى تعيين الوزراء وعزلهم، حيث دبّر له الربيع بن يونس الحاجب مؤامرة للتخلص منه حسداً منه لمعاوية. ولما كان معاوية مشهوداً له بالفضل والتقدم والحذق فى صناعته، فقد لجأ الربيع إلى مكيدة دبرها لعبيد الله ابن معاوية، وهى تهمة ترضى هوى المهدى، فقد كان أمر الزنادقة والزندقة محل اهتمام المهدى، ورأى الربيع أن خير وسيلة للإفساد بين الخليفة ووزيره اتهام ابنه بالزندقة، وأمر المهدى بإحضار عبيد الله فى حضرة أبيه وامتحنه فى القرآن، فلم يوفق فى الامتحان وعندئذ وجه الخليفة لوما شديداً إلى الوزير، فاعتذر الوزير للخليفة بما لم يقبـــله منه، وقال له: قم فتقرّب إلى الله بدمه، فقام الوزير لتنفيذ أمر الخليفة، لكنه عثر ووقع، فقال العباس ابن محمد عم المهدى: يا أمير المؤمنين، إن رأيت أن تعفى الشيخ من قتل ولده ويتولى ذلك غيره، فأمر المهدى بعض الحاضرين بقتله فضربت عنقه(١). وكان بعد ذلك من السهل أن يتخوف المهدى من أبى عبيد الله لأنه قتل ابنه فاستوحش منه وعزله ولزم داره. وبذلك تم للربيع ما أراده من إزالة نعمة الوزير، وبقى هكذا حتى مات سنة ١٧٠ هـ.

إستوزر المهدى بعد معاوية أبا عبد الله يعقوب بن داود مولى

---

(١) الفخرى ١٠٨ - ١٥٩، انظر الطبرى ٨ / ١٣٧ وما بعدها.

بنى سليم . كان داود أبوه وإخوته كتابا لنصر بن سيار والى بنى أمية على خراسان . وكان يعقوب فى ابتداء أمره متشيعا مائلا إلى بنى عبد الله بن الحسن بن الحسن،مؤملا أن تكون لهم دولة فيصبح ذا مكانة فيها ، ولما ظهر محمد النفس الزكية وأخوه إبراهيم كان على بن داود كاتبا لإبراهيم ، وكان يعقوب ممن خرج مع إبراهيم على المنصور ، فلما قتل إبراهيم اختفى يعقوب وعلى وإخوتهما من المنصور ، ولما ظفر بهم المنصور أخذ عليا ويعقوب وحبسهما فى المَطْبَق - وهو سجن مظلم تحت الأرض ، ويسميه الفخرى حبس التجليد(١) — فلما مات المنصور واستخلف المهدى منّ عليهما فيمن منّ عليه من المسجونين . ثم إن المهدى كان يخشى على دولته من العلويين وأن يحدثوا أمراً لا يتدارك ، فطلب رجلا له معرفة بهم ليستعين به على أمرهم ، فدله حاجبه الربيع على يعقوب بن داود لصداقة كانت بين الربيع وبينه ، فاستحضره المهدى وكلمه فوجده من أكمل الناس عقلا وأفضلهم سيرة فاستخلصه لنفسه ، وكتب كتابا بأنه أخوه فى الله واستوزره وفوض إليه الأمور كلها ، وسلم إليه الدواوين وقدمه على الجميع مما كان سببا فى حسد موالى المهدى ليعقوب فسعوا عليه وساعدهم الشعراء حتى قال بشّار بن برد:

بنى أمية هُبّوا طالَ نَومكمُ
إن الخليفة يعقوبُ بنُ داود
ضاعتْ خلافتكم ياقوم فالتمسوا
خلافةَ الله بين النايِ والعود(٢) .

---

(١) الفخرى ص ١٦١

(٢) شرحه ص ١٦١ ، الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ١١٥ . وروى الطبرى (٨/ ١٥٠) البيت الثانى هكذا :

ضاعت خلافتكم ياقوم فاطلبوا   خليفة الله بين الدف والعود

ثم إن الوشاة ما زالوا يسعون بيعقوب إلى المهدى حتى قيل له: إن المشرق والمغرب فى يد يعقوب وأصحابه ، وقد كاتبهم ، وإنما يكفيه أن يكتب إليهم فيثوروا فى يوم واحد على ميعاد فيأخذوا الدنيا لإسحاق بن الفضل (من ذرية الحارث بن عبد المطلب) وكان يعقوب قد أرسل إلى الزيدية وولاهم من أمور الخلافة فى المشرق والمغرب كل جليل وتفيس . فملأ ذلك قلب المهدى ، وصادف أن طلب يعقوب من الخليفة ولاية مصر لإسحاق بن الفضل فتغير وجه المهدى، وزيادة فى التأكد من نوايا يعقوب ، فقد دفع إليه المهدى علويا ليقتله ودس إليه جارية من جواريه وهبها له تنقل إليه أخباره ، وكان يعقوب قد أطلق سراح العلوى ، فأرسلت الجارية بالخبر إلى المهدى، فأرسل من أتى بالعلوى من الطريق وجعله فى بيت قريب من مجلسه. ثم بعث إلى يعقوب فحضر وسأله عن أمر العلوى ، فقال : أراح الله منه أمير المؤمنين . قال مات : فقال نعم وحلف بالله وبرأس المهدى على ذلك : فأمر المهدى بعض الخدم بإخراج العلوى من البيت الذى حبسه فيه ، فأخرج العلوى ، ولما رآه يعقوب سقط فى يده ، فقال المهدى : يايعقوب قد حل لى دمك ، احملوه إلى المطبق ، فحبس ولم يزل محبوسا حتى أخرجه الرشيد من سجنه . ولما سأله عما يريده أجابه بأنه يريد المجاورة بمكة ، فأمر له الرشيد بما يصلحه وتوجه يعقوب إلى مكة ، وبقى بها حتى مات سنة ١٨٦ ﻫ وأمر المهدى بعزل أصحاب يعقوب عن الولايات فى الشرق والغرب ، وبأخذ أهل بيته وحبسهم(١) ، وكان ذلك سنة ١٦٦ ﻫ فكانت وزارته خمس سنوات.

---

(١) راجع الطبرى ١٠/١٥٦ — ١٦٢ ، الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ١١٩ — ١٢١ ، الفخرى ص ١٦٠ — ١٦٢

ولاية العهد :

اقتدى المهدى بأبيه المنصور فى خلع عيسى بن موسى وتولية ابنه موسى الهادى ، فطلب من عيسى أن يخلع نفسه من ولاية العهد فأبى فأرغبه وأرهبه ، ولكى ينجح المهدى فى تحقيق غرضه حرض الشيعة العباسية بخراسان على المطالبة بخلع عيسى والبيعة لموسى، فطلبت الشيعة العباسية ذلك ولما تم له هذا كتب إلى عيسى بن موسى — وكان بالكوفة — يستدعيه إلى حاضرة الخلافة ، ولكنه أحس بما يراد له فامتنع من القدوم عليه ، فأمر المهدى روح بن حاتم بن المهلب والى الكوفة بالتضييق عليه ، ولما لم يفد ذلك كتب إليه كتابا يقول فيه : إنك إن لم تجبنى إلى أن تنخلع منها حتى أبايع لموسى وهارون استحللت منك بمعصيتك ما يستحل من المعاصى ، وإن أجبتنى عوضتك منها ما هو أجدى عليك . وأعجل نفعا . فأجابه ، فبايع لهما وأمر له بعشرة آلاف ألف درهم - أو عشرين ألف ألف - وقطائع كثيرة(١) . وكان ذلك فى شهر المحرم سنة ١٦٠ هـ .

ولم يكتف المهدى بذلك بل كتب على عيسى كتابا بالخلع أشهد عليه فيه جماعة أهل بيته وصحابته وجميع شيعته وكتابه وجنده ليكون حجة على عيسى وقطعا لقوله ودعواه فيما خرج منه ، وكتب فى صفر سنة ١٦٠ هـ وشهد على الكتاب أربعمائة وثلاثون من بنى هاشم ومن الموالى والصحابة من قريش والوزراء والكتاب والقضاة .

والغريب فى هذا الأمر أن يلزم عيسى بالاقرار على نفسه بأن ذلك من فعله وأنه طائع غير ساخط ، محب غير مجبر ! فاذا لم يكن ذلك إكراها فكيف يكون الاكراه ؟ ! وأعجب من ذلك أن يتضمن الكتاب من الشروط مالا يتصور القيام به ، فقد جاء فيه : «فإن أنا نكثت أو غيرت أو بدلت . . أو نويت غير ما أعطيت

(١) الطبرى : ١٢٢/٨ ، ابن الأثير ١٨/٦

عليه هذه الأيمان ، أو دعوت إلى خلاف شيء مما حملت على نفسي في هذا الكتاب لأمير المؤمنين محمد المهدي ولولي عهده موسى ولعامة المسلمين أو لم أفِ بذلك ، فكل زوجة عندي يوم كتبت هـذا الكتاب — أو أتزوجها إلى ثلاثين سنة — طالق ثلاثا ألبتة ، وكل مملوك عندي اليوم أو أملكه إلى ثلاثين سنة أحرار لوجه الله ، وكل مال لي نقد أو عرض أو قرض أو أرض ، أو قليل أو كثير ، تالد أو طارف أو أستفيده فيما بعد اليوم إلى ثلاثين سنة صدقة على المساكين . . . وعليّ من مدينة السلام المشي حافيا إلى بيت الله العتيق الذي بمكة نذراً واجبا ثلاثين سنة ، لا كفارة لي ولا مخرج منه إلا الوفاء به . . . »(١)

هذا ما فعله المهدي مع عيسى بن موسى ، ومع هذا فعامة المؤرخين ينعتونه بالصلاح والتقوى واتباع سنة الرسول ، فماذا أبقى للظالمين بعده ؟ ! وعلى كل حال فقد تم الخلع وبويع لموسى في التاريخ المتقدم . وبايع لابنه الثاني هارون بعد موسى سنة ١٦٦ هـ ولقبه الرشيد . ولئن نجح المهدي فيما أراد إلا أنه أكد أخطاء نظام ولاية العهد لاثنين ، وإذا كان هناك عذر لأبي العباس السفاح والمنصور في ولاية العهد لاثنين حيث كانت الدولة في بدء أمرها ، فإنه لا عذر للمهدي بعد أن توطدت دعائم الدولة وثبتت أركانها . وكان المهدي أول الخلفاء العباسيين الذي بايع لاثنين من أبنائه ، ولا حاجة بنا إلى الكلام عن مساوىء هذا النظام فقد سبق أن أشرنا إليه غير مرة ، ويكفي أن نقول إجمالا أنه كان أحد العوامل الهامة في ضعف الدولة العباسية .

---

(١) الطبري ٨/١٢٦ — ١٢٨ .

نهاية خلافة المهدى :

ذكر المؤرخون روايات مختلفة عن سبب وفاة المهدى ، هل كان موته فى حادث خلال رحلة صيد بعد اصطدام رأسه فى باب خربة ، أو أنه مات مسموماً بطريق الخطأ ، لأن بعض جواريه جعلت سماً فى بعض المآكل لجارية أخرى ، فأكل المهدى منه وهو لا يعلم(١) . أو كان عقب أكله لحماً بارداً(٢) . وأيا كان السبب فى الوفاة فقد مات بقرية يقال لها الرُّذبما سَبَذان — وكان فى طريقه إلى جرجان لمقابلة الهادى — وهو فى ريعان شبابه ، وعمره ثلاث وأربعون سنة بعد أن مكث فى الخلافة زهاء عشر سنوات وذلك ليلة الخميس لثمان بقين من المحرم سنة ١٦٩ هـ . وصلى عليه إبنه هارون ، ودفن تحت شجرة جوز كان يجلس تحتها(٣) .

---

(١) أنظر الطبرى ٨/١٦٥ - ١٧٠ ، الفخرى ص ١٥٧
(٢) الطبرى ص ١٧٠ ، ومروج الذهب ٣/٢٤٥
(٣) الطبرى ص ١٧١

موسى الهادى (١٦٩ — ١٧٠ هـ = ١٨٥ — ١٨٦ م)

هو أبو محمد موسى بن المهدى بن المنصور ، وأمه أم ولد بربرية (أو جُرشية يمنية) اسمها الخيزران، ولد بالرى سنة سبع وأربعين ومائة وقيل سنة ١٤٤ هـ كان الهادى أكبر من أخيه هارون ، فولاه أبوه العهد سنة ١٦٠ هـ ، وبايع من بعده لهارون سنة ١٦٦ هـ . ولم يل الخلافة قبله أحد فى سنه فأقام فيها سنة وأشهراً . وفكر المهدى فى آخر أيامه فى تقديم الرشيد على الهادى بسبب ايثاره إياه مشاركة أمه الخيزران له فى محبته ، لولا أن عاجلته المنية . وكان الهادى حين وفاة أبيه يقود الجنود فى المشرق لمحاربة المخالفين والخارجين بجرجان ، وكان هارون مع أبيه بماسبذان لما حضرته الوفاة ، وكان من العقـــل بحيث لم يتردد فى البيعة لأخيه ويهنئ ، وأخذ له البيعة على الجند ، وأرسل إليه بخاتم الخلافة وبالقضيب والبردة والتعزية والهنئة ، وذلك فى ٢٢ من المحرم سنة ١٦٩ هـ (٤ / ٨ / ٧٨٥ م) وعاد الهادى من فوره إلى بغداد بعد عشرين يوما من وفاة أبيه المهدى فوصلها لعشر بقين من صفر عام ١٦٩ هـ وعلى أبواب بغداد استقبله وجوه بنى هاشم وكبار رجال الدولة ، ونزل قصر الخلد فأقام به شهرا ، ثم انتقل إلى بستان أبى جعفر ثم انتقل إلى قصر عيسا باذ الذى أنشأه أبوه المهدى .

أخلاقه وصفاته :

وصفه المسعودى فقال : كان موسى قاسى القلب ، شرسَ الأخلاق ، صعبَ المرام ، كثير الأدب محباله ، وكان شديداً شجاعا

جواداً سخيا(١) . ويقول أيضا : إنه كان شجاعا بطلا ، أشدالناس بدنا ، وأجرأه مقدما فى تسرع وجبرية ينسب بهما إلى الهوج(٢) . ويصفه ابن طباطبا بأنه : كان متيقظا غيورا كريما شهما أيّداً ، شديد البطش جرئ القلب ، مجتمع الحس ، ذا إقدام وعزم وحزم(٣).

وقال الطبرى : إن الهادى كان يثب على الدابة وعليه درعان ، وكان المهدى يسميه رَيحانتى(٤) وكان جبارا وهو أول من مشت الرجال بين يديه بالسيوف المرهفة ، والأعمدة المشهورة ، والقسى الموتورة ، فسلكت عماله طريقته ، ويمموا منهجه ، وكثر السلاح فى عصره(٥) .

ويقول الجاحظ : كان الهادى شكسَ الأخلاق ، صعب المرام قليل الإغضاء سيئ الظن ، قلّ من توقاه وعرف أخلاقه إلا أغناه ، وما كان شئ أبغض إليه من ابتدائه بسؤال وكان يأمر للمغنى بالمال الخطير الجزيل ، فيقول : لايعطينى بعدها شيئا ، فيعطيه بعد أيام مثل تلك العطية(٦) .

وكان الهادى فصيحا ، ومن كلامه ما قاله لإبرهيم بن سلم بن قتيبة وقد مات له ولد فجاء الهادى يعزيه وكان عنده بمنزلة عظيمة ،

---

(١) مروج الذهب ٣/٢٤٦
(٢) التنبيه والإشراف ص ٢٩٧
(٣) الفخرى ص ١٦٥
(٤) ٨/٢١٩
(٥) محمد كرد على : الادارة الاسلامية فى عز العرب (مطبعة مصر ١٩٣٤ م) ص ١٣٨
(٦) التاج فى أخلاق الملوك ص ٣٥

فقال له: «ياإبراهيم، سَرك ابنُك وهوعدو وفتنة، وحزَنك وهو صلاة ورحمة ؟» فقال إبراهيم : يا أمير المؤمنين ، ما بقى منى جزء فيه حزن إلا وقد امتلأ عزاء(١)

وإذاً كان الهادى يتصف بالقوة وشدة البطش والفصاحة ، وهذه الصفات كانت نتيجة التربية العربية وقضاء أكثر أيامه فى الحرب والغزو مما كان له الأثر فى أخلاقه وآدابه .

ويدل على ما كان يتمتع به الهادى من حصافة فى الرأى ما رواه الطبرى وغيره(٢) عن عبد الله بن مالك قال : كنت أتولى شرطة المهدى فكان الخليفة يأمرنى بضرب ندماء الهادى ومغنيه وحبسهم صيانة له منهم ، فكنت أفعل ، وكان الهادى يرسل إلى بالتخفيف عنهم فلا أقبل ، فلما مات المهدى وولى الهادى أيقنت بالتلف ، فاستحضرنى يوما ، فدخلت عليه وهو جالس على كرسى والسيف والنطع بين يديه ، فسلمت ، فقال: لا سلم الله عليك،أتذكر يوم بعثت إليك فى أمر الحرانى وضربه فلم تقبل قولى؟ وكذلك فعلت فى فلان وفلان — وعدد ندماءه — فلم تلتفت إلى قولى؟ قلت : نعم، أفتأذن لى فى ذكر الحجة ؟ قال : نعم قلت : ناشدتك الله ، لو أنك قلدتنى ما قلدنى المهدى ، وأمرتنى بما أمر ، فبعث إلىّ بعض بنيك بما يخالف أمرك واتبعت قوله وتركت قولك ، أكان يسرك ذلك ؟ قال : لا . قلت : فكذلك أنا لك ، وكذلك كنت لأبيك ، فاستدنانى فقبلت يده ، ثم أمر لى بالخلع ، وقال : وليتك ما كنت تتولاه ، فامض راشداً .

---

(١) الفخرى ص ١٦٦

(٢) الطبرى ٨/٢١٦ ، ابن الاثير ٦/٤٢ ، الفخرى ص ١٦٥

ومن فطنة الهادى وحضور بديهته عند الشدائد ما يروى من أنه كان فى بستانه ببغداد يوماً راكباً حماراً فبلغه أن رجاله ظفروا برجل من أبطال الخوارج ، فأمر بإدخاله ، فلما قرب الخارجى منه نزع سيفا من أحد الحرس وتأهب للاعتداء ، فهرب الحرس خوفا ، وأقبل الخارجى يريد قتل الهادى ، ولكن الهادى ظل رابط الجأش حتى قرب منه الخارجى ، فصاح الهادى : أضربا عنقه ، فتوهم الخارجى أن خلفه أحد أتباع الهادى فاستدار إليه ، وحينئذ انقض الهادى عليه ورمى به إلى الأرض فأخذ السيف منه وضرب عنقه . ولم يركب حماراً بعد ذلك اليوم ولا فارقه سيفه(١) .

الهادى والغناء والشراب: كان يحب الغناء فقرب إبراهيم الموصلى وابنه إسحاق ، وأعطى إبراهيم خمسين ألف دينار لأنه غناه أبياتا أطربته(٢) ، وكان إسحاق يقول : والله لو عاش لنا الهادى لبنينا حيطان دورنا بالذهب(٣) .

---

(١) مروج الذهب ٣/٢٤٦ـ ٢٤٧
(٢) الجهشيارى ص ١٧٣
(٣) الأغانى ٥/٦ ، حضارة الإسلام للمدور ص ١١٦

سياسة الهادى :

كان حكم الهادى قصيرا ، لذلك لا يمكن إصدار حكم عام على أثره فى الدولة العباسية ، ومع ذلك فنستطيع أن نرى فى مدة خلافته القصيرة بعض الاتجاهات فى سياسته . نراه فى موقفه من الزنادقة يقتدى بسياسة أبيه فى تتبعهم ، فوكل بمطاردتهم رجلا يقال له عبد الجبار . وفى سنة ١٦٩ ﻫ اشتد فى طلبهم فقتل من بينهم جماعة كانوا يهزأون بالناس فى الطواف، منهم يزدان بن باذان كاتب يقطين ، ذكر عنه أنه حج فنظر إلى الناس فى الطواف يهرولون ، فقال : ما أشبههم إلا ببقر تدوس فى البيدر : وله يقول العلاء بن الحداد الأعمى :

أيا أمينَ الله فى خلقِهِ
ووارثَ الكعبة والمنبرْ

ماذا ترى فى رجل كافر
يشبِّه الكعبة بالبيدرْ

ويجعل الناسَ إذا ما سعَوْا
حُمْراً تدوس البُرَّ والدوسرْ

فقتله موسى ثم صلبه(١) . وكانت هذه الشدة مع الزنادقة تنفيذاً لوصية أبيه المهدى التى أشرنا إليها فيما مضى(٢) . وفى ذلك الاجراء تثبيت لمركز الخلافة .

معاملته للعلويين : اشتد الهادى فى طلب العلويين، وأخافهم خوفاً شديداً ، وقطع ما كان المهدى يجرى لهم من الأرزاق والأعطية ، وكتب إلى الآفاق فى طلبهم وحملهم(٣) . وربما كانت هذه السياسة نتيجة لفشل سياسة المهدى فى خطب ودّ العلويين باللين ، ولكن التطرف فيها يدل على شىء من الهوج(٤) فلما اشتد خوفهم وكثر من يطلبهم ويحث عليهم اضطروا إلى القيام ضد الهادى بثورة فى المدينة تزعمها الحسين بن على بن الحسن المثلث فى موسم الحج سنة ١٦٩هـ . وكان السبب المباشر للثورة أن والى المدينة عمر بن عبد العزيز — من ولد عبد الله بن عمر بن الخطاب — أخذ الحسن بن محمد النفس الزكية وجماعة كانوا على شراب لهم فأمر بهم فضربوا جميعاً، ثم أمر بهم فجعل فى أعناقهم حبال وطيف بهم فى المدينة ، فصار إليه الحسين بن على فكلمه فيهم وقال : ليس هذا عليهم وقد ضربتهم ، ولم يكن لك أن تضربهم، لأن أهل العراق لا يرون به بأساً فلم تطوف بهم ، فبعث إليهم فردهم ، وأمر بهم إلى الحبس فحبسوا يوماً وليلة ، ثم كلّم فيهم فأطلقهم جميعاً ، وكانوا يعرضون (يراقبون) ففقد الحسن بن محمد ، وكان الحسين بن على ويحيى بن عبد الله بن الحسن قد كفلا الحسن بن محمد فطالبهما العمرى بإحضاره واشتد فى الطلب

(١) الطبرى ٨/١٩٠
(٢) راجع ص ٢١٧ من هذا الجزء
(٣) تاريخ اليعقوبى ٣/١٤٢
(٤) العصر العباسى الأول ص ١٢٩

فثار آل أبي طالب واجتمع إليهم ناس كثيرون، وبايعوا الحسين ابن علي بالخلافة بالمدينة، وقصدوا دار الإمارة، فتحصن عنهم عاملها العمرى، فكسروا السجون وأخرجوا من فيها وأقام الحسين بعد خروجه بالمدينة أحد عشر يوماً ثم قصد مكة، فلما كان بفخّ(١) لقيته جيوش بني العباس وعليهم العباس بن محمد بن علي وغيره فالتقوا يوم التروية، وفي هذا المكان تقرر مصير العلويين، حيث قتل الحسين ابن علي بعد أن أبلى أحسن البلاء، وحمل رأسه إلى الهادى، وقتلوا جماعة من عسكره وأهل بيته، فبقى قتلاهم ثلاثة أيام حتى أكلتهم السباع، بعد قطع رءوسهم التي بلغت مائة رأس ونيفا. ولما بلغ العمرى والى المدينة قتل الحسين بن علي بفخّ عمد إلى داره ودور أهله فحرقها وقبض أموالهم ونخلهم فجعلها في الصوافى المقبوضة(٢). ولهذا يقال: لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشدّ وأفجع من فخّ(٣) ويقال إن الهادى سخط على موسى بن عيسى لقتل الحسين بن علي ابن الحسن المثلث وترك المصير به إليه ليحكم فيه بما يرى، وقبض أموال موسى، وأظهر الذين أتوا بالرأس الاستبشار، فبكى الهادى وزجرهم وقال: أتيتمونى مستبشرين كأنكم أتيتمونى برأس رجل من الترك أو الديلم(٤)، أو برأس طاغوت من الطواغيت(٥)! إنه رأس رجل من عترة رسول الله (ص)(٦)، إن أقل ما أجزيكم به

---

(١) فخ: بفتح أوله وتشديد ثانيه واد بمكة على ستة أميال منها.

(٢) الأصفهانى: مقاتل الطالبيين ص ٤٥٥، انظر الطبرى ٨/٢٠٠

(٣) ياقوت! معجم البلدان مادة فخ

(٤) مروج الذهب ٣/٢٤٨

(٥) الطبرى ٨/٢٠٣، ابن الأثير ٦/٣٨، الفخرى ص ١٦٧

(٦) مروج الذهب ص ٢٤٨

أن أحرمكم جوائزكم ، فحرمهم ولم يعطهم شيئاً .

وكانت تلك الموقعة بعيدة الأثر مهمة بنتائجها ، فقد هرب منها رجلان كان لهما شأن كبير فيما بعد على عهد الرشيد وهما : إدريس ابن عبد الله بن الحسن الذى فر إلى بلاد المغرب وأسس دولة الأدارسة ، والثانى أخوه يحيى بن عبد الله الذى سار إلى بلاد الديلم . وبذلك قضت قسوة الهادى على سياسة اللين التى اتبعها المهدى مع العلويين .

ومن أهم الأعمال التى قام بها الهادى وضع حدّ لتدخل الحرم فى سياسة الدولة ، فمنع أمه الخيزران من التدخل فى أمور السلطان لقضاء حوائج الناس ، وكانت أمه فى أول خلافته تفتات عليه فى أموره ، وتسلك به مسلك أبيه من قبله فى الاستبداد بالأمر والنهى مجيبا لها فيما تسأل من الحوائج للناس ، فكانت المواكب لا تخلو من بابها ، فكلمته ذات يوم فى أمر فلم يجد إلى إجابتها فيه سبيلا ... فقالت: لابدّ من إجابتى ، قال : لا أفعل ، قالت : فإنى قد ضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك ، فغضب الهادى ... وقال : لا قضيتها لك ، قالت : إذا والله لا أسألك حاجة أبداً ، قال : إذاً والله لا أبالى ، وقامت مغضبة ، فقال : مكانك فاستوعبى كلامى والله وإلا فأنا نفىّ من قرابتى من رسول الله (ص) ، لئن بلغنى أنه وقف ببابك أحد من قوادى أو من خاصتى أو من خدمى لأضربنّ عنقه ، ولأقبضن ماله ، فمن شاء فليلزم ذلك ، ما هذه المواكب التى تغدو إلى بابك كل يوم ؟ أما لك مغزل يشغلك ، أو مصحف يذكرك ، أو

بيت يصونك ؟ إياك ثم إياك أن تفتحى فاكِ — أو بابك — فى حاجة لمسلم أو ذمى ، فانصرفت وما تعقل ما تطأ ، فلم تنطق بحُلو ولا مُر بعدها (١) .

ثم قال لأصحابه : أيما خير أنا وأمى أم أنتم وأمهاتكم؟ قالوا : بل أنت وأمك ، قال : فأيكم يحب أن يتحدث الرجال بخبر أمه ، فيقال فعلتْ أم فلان ، وصنعت أمّ فلان ؟ قالوا : لا نحب ذلك . قال : فما بالكم تأتون أمى فتحدثوا بحديثها ؟ فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها(٢) .

فكان من رأيه أنه: ليس من قدر النساء الاعتراض فى أمر الملك وكان يقول : ما للنساء والكلام فى أمر الرجال(٣) . ولما مرض واشتدت به العلة استدعاها وقال لها : قد كنت أمرتك بأشياء ، ونهيتك عن أخرى ، مما أوجبته سياسة الملك ، لا موجبات الشرع من برّك ، ولم أكن بك عاقا ، بل كنت لك صائنا ، وباراً واصلا ، ثم قضى قابضا على يدها واضعا لها على صدره(٤) .

وبإبعاد الهادى النساء عن الوساطات والشفاعات عمل بوصية جده المنصور للمهدى ، وجعل أمور الدولة تسير فى قواعدها المرعية على ما تقضى به أحكام الشرع والعقل ، وبراه الوزراء والأمراء

---

(١) أنظر الطبرى ٢٠٥/٨ — ٢٠٧ ، مروج الذهب ٣ /٢٤٩ ، الفخرى ص ١٦٧ — ١٦٨

(٢) الطبرى ص ٢٠٧ ، الفخرى ص ١٦٧ — ١٦٨

(٣) الطبرى ص ٢٠٥ ، ٧

(٤) مروج الذهب ٢٥٤/٣

والقضاة .

الهادى وولاية العهد :

عزم الهادى على خلع أخيه هارون من ولاية العهد والبيعة لابنه الطفل جعفر ، وقد سبق الهادى إلى ذلك التقليد السيء المهدى بما فعله مع عيسى بن موسى ، وشجعه على ذلك القواد حتى إن بعضهم خلع هارون وبايع لجعفر ، ودسّوا إلى الشيعة (من العباسية) فتكلموا فى أمر هارون ، وتنقّصوه فى مجلس الجماعة ، وقالوا لانرضى به ... وأمر الهادى ألا يسار قدّام الرشيد بحربة ، فاجتنبه الناس وتركوه ، فلم يكن أحد يجترىء أن يسلم عليه ولا يقربه ، وكان يحيى بن خالد البرمكى يقوم بإنزال الرشيد . ولا يفارقه هو وولده . وسُعىَ إلى الهادى . بيحيى وقيل له . إنه ليس عليك من هارون خلاف وإنما يفسده يحيى بن خالد . وقد كان هارون طاب نفسا بالخلع ، فقال له يحيى : لا تفعل ، فقال : أليس يترك لى الهنىء والمرىء ، فهما يسعانى وأعيش مع إبنة عمى أم جعفر ! فقال له يحيى : وأين هذا من الخلافة ! ولعلك لا يُترَك هذا فى يدك حتى يخرج أجمع ، ومنعه من الإجابة. وهنا أدرك الهادى مدى أثر يحيى على القضية فاستدعاه وكلمه فى خلع الرشيد ، فرد عليه يحيى بكلام يجلى فيه ما كان عليه من دهاء ، وقال له : يا أمير المؤمنين ، إنك إن حملت الناس على نكث الأيمان هانت عليهم أيمانهم ، وإن تركتهم على بيعة أخيك ثم بايعت لجعفر من بعده كان ذلك أوكد لبيعته ، فقال : صدقتَ ونصحت ولى فى هذا تدبير . وكان من أثر هذه

النصيحة أن عدل الهادى عن رأيه فترة من الوقت ، ثم غلب عليه حبه لإبنه جعفر وإيثاره على أخيه، فأحضر يحيى مرة أخرى وفاوضه فى خلع هارون ، فقال له: يا أمير المؤمنين،أرأيت إن كان ما أسأل الله أن يعيذنا منه وألا يبلغناه وينسأ فى أجل أمير المؤمنين (يشير إلى موت الهادى) وقد خلعت أخاك وبايعت لابنك جعفر أتظن أن الناس يسلمون الخلافة لجعفر وهو لم يبلغ الحلم ، ويَرضَون به لصلاتهم وحجّهم وغزوهم ؟ قال : والله ما أظن ذلك ، قال يحيى: أفتظن أن يسمو إليها أهلك مثل فلان وفلان ويطمع فيها غيرهم فتخرج من ولد أبيك ... وقال له :لو أن هذا الأمر لم يعقد لأخيك ، أما كان ينبغى أن تعقده له ! فكيف بأن تحله عنه وقد عقده المهدى له ! ولكن أرى أن تقر هذا الأمر على حاله ، فإذا بلغ جعفر أتيتَه بالرشيد فخلع نفسه وكان أول من يبايعه ويعطيه صفقة يده . فقبل الهادى قوله ورأيه وأمر بإطلاق يحيى من الحبس(١). وكان الرشيد بعد ذلك يرى هذه من أعظم أيادى يحيى بن خالد عنده(٢) .

إلا أن الهادى لم يحفل بنصيحة خالد إلى النهاية فسرعان مارجع إلى رأيه الأول،وألح عليه بعض القواد ورجال الحاشية بخلع هارون ومبايعة جعفر . ولما بلغت الأزمة هذا الحدّ من الشدة أشار يحيى على هارون بأن يستأذن الهادى فى الخروج إلى الصيد ، فأذن له ، ولما طال غيابه أخذ الهادى يلح عليه فى العودة والرشيد يتعلل حتى تفاقم الأمر ، وأظهر شتمه ، وبسط مواليه وقوادُه ألسنتَهم فيه،وتدخل

---

(١) الطبرى ٢٠٩/٨ — ١٠ ، انظر المسعودى ٢٥٣/٣ _ ٥٤ ، الفخرى ص ١٧٤ .

(٢) الفخرى

القدر فى حسم النزاع بين الهادى والرشيد ، حيث مرض الهادى ثلاثة أيام وأتاه نعيه والبيعة له وهو فى رحلة الصيد .

وفاة الهادى :

لم تكن وفاة الهادى عادية كوفاة غيره من الخلفاء ، وإنما يحيطها بعض الغموض ، وقد ذكر المؤرخون عنها روايتين .

الأولى أن الهادى اعتل ومات من قرحة كانت فى جوفه ، ولم يعلق الطبرى وابن الأثير(١) أهمية على هذه الرواية . والأخرى — وهى رواية أغلب المؤرخين — أن الهـــادى مات قتيلا نتيجة مؤامرة دبرتها أمه الخيزران وقام بتنفيذها بعض الجوارى لأمه . ويستبعد بعض المؤرخين المحدثين التسليم بهذه المؤامرة ، لمنافاتها الطبيعة الإنسانية التى تأبى أن ترتكب أم هذا الجرم مع ابنها ، وقد فات هؤلاء المعترضين أن الطبيعة الإنسانية نفسها تقرر أن نفس الإنسان أعز عليه من كل نفس، وأن حق الدفاع عن النفس مشروع(٢). ذلك أن الهادى لما رأى من أمه التدخل فى شئون الدولة ، ووقوفها إلى جانب هارون وتحريضه على عدم إجابة الهادى إلى خلعه من ولاية العهد، بعث إلى أمه بطعام مسموم ، ولكن جاريتها « خالصة » أشارت عليها أن تمسك عن تناول الطعام حتى تختبره ، وجاءت بكلب فأكل منها فتساقط لحمه، فأرسل إليها بعد ذلك كيف رأيت الأرزة ؟ فقالت: وجدتها طيبة، فقال : لم تأكلى ولو أكلت لكنت قد استرحت منك ،

(١) الطبرى ٢٠٥/٨ ، ابن الأثير ٤٠/٦

(٢) تاريخ الإسلامى والحضارة ٧٤/٣

متى أفلح خليفة له أم(١) ! وإذاً يكون الهادى هو البادى وتكون الخيزران فى موقف الدفاع عن النفس . ويروى أن سبب موت الهادى أنه لما جدّ فى خلع هارون والبيعة لابنه جعفر وخافت الخيزران على هارون منه وهو الأمل الباقى لها الذى يرجى أن يكون صورة من أبيه تستعيد فى كنفه نفوذها ومكانتها ، دسّت إليه من جواريها لما مرض من قتله بالغمّ والجلوس على وجهه ووجهت إلى يحيى بن خالد : إن الرجل قد توفى ، فاجدد فى أمرك ولا تقصر(٢) . وفى رواية أخرى(٣) أنها بعثت إلى يحيى تعلمه أن الرجل لما به ، وتأمره بالاستعداد لما ينبغى . . . فأحضر الكتّاب فكتبوا لليلتهم كتبا من الرشيد إلى العمال بوفاة الهادى ، وأنهم قد ولاهم الرشيد ما كانوا يلون ، فلما مات الهادى أنفذوها على خيل البريد . فتصرفات الخيزران فى تلك الليلة تقوى اشتراكها فى تدبير المؤامرة . وسواء صحت أخبار المؤامرة أم لم تصح فقد استراحت الخيزران من مضايقاته وتحقق لها ما كانت تتمناه من استعادة سلطانها فى ظل خلافة الرشيد الذى يعتبر عهده واسطة العقد بالنسبة للخلافة العباسية، واستمرت هكذا حتى توفيت على المشهور سنة ١٧٣هـ. وكانت وفاة الهادى بغداد بعيساباذ للنصف من شهر ربيع الأول سنة ١٧٠ هـ . (١٤/٩/٧٨٦ م) وكانت ولايته سنة وشهراً واثنين وعشرين يوماً(٤) . وصلى عليه أخوه

---

(١) الطبرى ص٦٠٢ ، ابن الأثير ٤١/٦ ، العيون والحدائق ٢٨٩/٣
(٢) الطبرى ٢٠٦/٨ ، ابن الأثير ٤١/٦
(٣) الطبرى ٢١٢/٨ ، انظر اليعقوبى ١٤٣/٣ ، وانظر العيون والحدائق ص ٢٨٩ ، وماعلق به على رواية الطبرى هذه .
(٤) تاريخ خليفة بن خياط ٤٧٨/٢ ، الطبرى ٢١٣/٨ عن الواقدى .

هارون الرشيد ودفن بعيساباذ الكبرى فى بستانه . والليلة التى مات فيها هى ليلة مات فيها خليفة ، وجلس خليفة، وولد خليفة ، فالخليفة الذى مات فيها هو الهادى ، والذى جلس فيها على سرير الخلافة هو الرشيد ، والذى ولد فيها هو المأمون(١) .

* * *

(١) الفخري ص ١٦٨

هارون الرشيد

(١٧٠ - ١٩٣هـ = ٧٨٦ - ٨٠٩م)

هارون الرشيد من مواليد سنة ١٤٥هـ، أي أنه ولد سنة البدء في بناء بغداد، وهو ابن الخليفة المهدي، وأمه الخيزران، وهو أشهر خلفاء الدولة العباسية، وقد يرجع ذلك لعدة أسباب منها

أولاً: أنه حينما تولى الخلافة سنة ١٧٠هـ كان عمره خمس وعشرون سنة، أي أنه أصبح عمر بغداد ٢٥ سنة وهي فترة كفيلة بنضج حاضرة دولة مثل الدولة العباسية، وطبيعي أن يشتهر بشهرة بغداد التي بدأت في الشهرة مع توليه الخلافة.

ثانياً: أدى نضج مدينة بغداد أن أصبحت كعبة رجال العلم والأدب والفن، وأكبر مركز تجارى، وقد أدى ذلك كله أن يرتبط اسم هارون الرشيد بأعلام العلم والأدب والفن سواء بحياة هؤلاء الأعلام، أو تناولهم له في أعمالهم وأشعارهم. لذلك ربط الشاعر بين بغداد والرشيد حيث يقول:

بغداد يا بلد الرشيد ... ومنارة العلم التليد

ولنا في قاهرة أسرة محمد علي المثل الواضح وخاصة في عصر الملك فؤاد والملك فاروق، حيث كان قد اكتمل نضج القاهرة في ظل أسرة محمد علي. واحتشدت القاهرة بعباقرة العلم والفن والأدب.

ثالثاً: ص ١٤٢

خروج العلويين:

تابع العلويون ثوراتهم فى عهد الرشيد كما ثاروا من قبل فى عهد المنصور والهادى، رغم أن الرشيد أراد أن يستميلهم إليه حتى أطلق سراح كثير ممن كان منهم فى بغداد، فقاموا بزعامة رجلين: أحدهما يحيى بن عبد الله بن الحسن ،

وثانيهما إدريس أخو يحيى بن عبد الله الذى فر إلى بلاد المغرب .

كان يحيى بن عبد الله قد اتخذ إقليم طبرستان حصناً منيعاً يتحصن فيه ولما استفحل أمر يحيى أرسل إليه الرشيد قائده الفضل بن يحيى على رأس جيش بلغ نحو خمسين ألف جندى ، وهذا القائد لم يحارب يحيى بن عبد الله بل فاوضه فى التسليم دون قتال ، فرضى بذلك إذا كتب له الرشيد يؤمنه على حياته ، فكتب الرشيد الأمان بخطه ، ولكنه مالبث أن نقضه وحبس يحيى وظل فى حبسه حتى مات(١) .

أما إدريس بن عبد الله أخو يحيى ، فقد فر إلى مصر سنة ١٧٢هـ ، ثم توجه إلى بلاد المغرب الأقصى ، حيث التف حوله البربر ، وقد عجز الرشيد عن إخضاعه بحد السيف ، ففكر فى بلوغ غايته عن طريق المكائد والخدع ، فأرسل إليه رجلا عرف بالمكر والدهاء وأمره بأن يتقرب إليه وأن يظهر أمامه بمظهر السخط على العباسيين وعلى حكمهم ، ولما وصل هذا الرجل إلى بلاد المغرب ، تقرب من إدريس حتى صار من خواصه ، ثم دس له السم فمات سنة ١٧٧ هـ دون أن يترك ولداً يؤول إليه الأمر من بعد ، فانتظر أتباعه أمه وكانت حاملا ، فوضعت ولداً سموه إدريس وبايعوه بالخلافة . وبذلك ازداد خطر الأدارسة ، فأصبح الرشيد يخاف العلويين كافة ويعمل على إستئصال شأفتهم(٢) .

وما عمله الرشيد مع يحيى وإدريس ، سبق أن عمله الخلفاء العباسيون الذين سبقوه مع المعارضين لسياستهم ومع من حاولوا تعريض دولتهم للخطر .

---

(١) ابن طباطبا : الفخرى ص ١٧٦ — ١٨٧ .
(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ١٢٦ — ١٢٧ .

ثورات فى المغرب والمشرق :

نازعت قبائل البربر فى إفريقية بين سنتى ١٨٧ و ١٨١ هـ سلطان العباسيين ، فأرسل إليهم الرشيد جيشاً بقيادة هرثمة بن أعين ، فهزمهم ، ولكن هذا القائد ما لبث أن تخلى عن القيادة وعاد إلى المشرق . ثم قامت فى هذه البلاد دولة الأغالبة على يد إبراهيم بن الأغلب ، الذى عين أميراً على هذه البلاد من قِبَل الخليفة العباسى ، لتأديب البربر والوقوف فى وجه الأدارسة إذا ما أرادوا الإغارة على أراضى الدولة العباسية ، على أن دولة الأغالبة استقلت بعد قليل عن الخلافة العباسية فى بغداد ، ولم يصبح للعباسيين سوى السيادة الإسمية على هذه الدولة ، واتخذت مدينة القيروان الواقعة فى الجنوب الغربى من تونس الحالية حاضرة لها ، وظلت على ذلك إلى أن استولى الفاطميون سنة ٢٩٧ هـ على بلاد المغرب .

أما فى المشرق فقد ثارت خراسان على علىّ بن عيسى الوالى المعين عليها من قِبَل الرشيد ، لسياسة الظلم ، والعسف التى اتبعها . وأرسل كبار رجال خراسان إلى الرشيد يشكون إليه من تصرفات هذا الوالى ، فخرج إليه الرشيد بجيش كثيف ، عسكر به فى الرى ، ولكن الوالى قابل الرشيد بهدايا ثمينة ووزع مثلها على من صحبه من رجال دولته . فعاد الرشيد إلى بغداد ، واستمر هذا الوالى فى ظلمه وجبروته ، حتى انتهى الحال بقيام ثورة عنيفة ضده فى خراسان ، هجم الأهالى خلالها على قصره واستولوا على ما فيه ، ولما بلغ ذلك الرشيد ، تحقق من استبداده ، وأنبه على سياسته العقيمة ، وتحديه شعور الأهالى ، وقرر عزله[١] . وأرسل إليه القائد هرثمة بن أعين ، فقبض عليه هو وأتباعه وصادر أموالهم ، وبعث بهم إلى الرشيد ، وهدأت الفتنة فى خراسان واستقرت الأحوال[٢] .

---

(١) راجع خطاب هارون الرشيد لعلى بن عيسى فى الطبرى جـ ١٠ ص ١٠٢ .
(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى جـ ٢ ص ٥٨ .

البرامكة :

ينتمى البرامكة إلى أسرة فارسية ، دفعت النهضة العلمية إلى الأمام ، وشجعت الفنون ، وصار لها اليد الطولى فى إدارة شئون الدولة العباسية ، وما لبثت أن سقطت فى ظروف خاطفة غامضة . وجد هذه الأسرة هو « برمك »(١) وكان رجلا فارسياً عالماً بالطب والتنجيم ، قدم إلى دمشق فى عهد بنى أمية سنة ٨٦ هـ حيث داوى مسلمة ثم هشام ابنى عبد الملك بن مروان .

ويُعد خالد بن برمك ممن شاركوا فى بناء الدولة العباسية ، عيَّنه السفاح وزيراً له ثم ولاه المنصور على طبرستان ثم الموصل ، وكان حسن التدبير يصرف الأمور بحكمة وروية .

وظهر من بعده يحيى بن برمك الذى تولى فى زمن المهدى تربية ابنه هارون . وقويت الصلة بين هارون ويحيى حتى كان الرشيد يناديه وهو خليفة « يا أبتى » ، ولما اعتزم الهادى نقل ولاية العهد عن الرشيد إلى ابنه جعفر نهاه يحيى عن عمل ذلك(٢) ، وتولى الوزارة(٣) فى عهد الرشيد . واستعان فى تصرف شئون الدولة بأبنائه الأربعة : الفضل ، وجعفر ، ومحمد ، وموسى ، وإن كانت مكانة الفضل وجعفر ومقدرتهما الإدارية قد فاقت مكانة ومقدرة محمد وموسى : وحين قلد الخليفة الوزارة ليحيى البرمكى ، قال لوزيره : « قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقى إليك فاحكم فى ذلك بما ترى من الصواب واستعمل من رأيت واعزل من رأيت ، وامض الأمور على ما ترى » . ثم دفع إليه خاتمه الخاص وسلمه خاتم الخلافة ، حتى صار بيده الحل والعقد فى كل شئون الدولة ،

---

(١) صفة تطلق على كل من كان يلى فى الزمن القديم سدانة معبد قريب من مدينة بلخ يقال له النوبهار ، والسدانة عبارة عن الكاهن الأول فى المعبد . وهذا المعبد من المؤسسات الدينية الكبيرة التى أنشئت فى الزمن السابق للاسلام ، ويظهر أنه كان يتخذ فى الأصل للعبادة البوذية أى الديانة الهندية القديمة ، ولكن الفرس حولوه بيتا من بيوت النار للتعبد فيها حسب الديانة الزرادشتية القديمة .

(٢) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ٢ ص ٦١ .

(٣) كان يحيى وزير تفويض ، أى وزير تام السلطة ممثل للخليفة فى كل شيء .

فانصرف الناس إليهم ، ونظموا القصائد الرائعة فى مدحهم والتغنى بكرمهم والإشادة بجودهم .

وفى عهد جعفر بن يحيى قبض البرامكة على أمور الحكم ، وصار بيدهم المدخل والمخرج . حتى كأن هارون يطلب اليسيط من المال فلا يصل إليه إلا عن طريق البرامكة ، فغلبوه على أمره وشاركوه فى سلطانه ، فعظمت آثارهم وبعد صيتهم ، وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم ، واحتازوها لأنفسهم عمن سواهم من وزارة وقيادة وكتابة ، وانصرفت نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب وتخطت إليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك ، وأفاضوا على رجال الشيعة العطاء » .

بذلك سيطرت الأسرة البرمكية على الدولة العباسية ، سياسياً واقتصادياً وإدارياً وأدبياً ، وأصبحت مقصد العلماء والشعراء والأدباء ، وتجمعت الوفود على أبوابهم أكثر من وقوفهم على باب الخليفة ، لما عرف عنهم من الجود والكرم والحماسة فى النهوض بالعلوم وترقية المعارف ، وعظم ثراء البرامكة إذ كان الخليفة يغدق عليهم الأموال الوفيرة فوق ما كانوا يستحوذون عليه من مال . وزاد سلطان الأسرة البرمكية فى أيام الرشيد . حتى أن صاحب الفخرى روى : « أن عبد الملك بن صالح العباسى طلب إلى جعفر البرمكى أن يخاطب الرشيد فى ثلاث حوائج هى : أن يقضى عنه ديناً مقداره ألف ألف درهم ، وأن يولى ابنه إحدى الولايات ليرفع بذلك قدره ، وأن يزوج هذا الإبن من ابنة الخليفة ، فقضى له جعفر هذه الحوائج الثلاث من فوره »[1] .

---

(١) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٨٥ — ١٨٦ .

نكبة البرامكة :

اختلف المؤرخون فى العوامل التى دفعت الخليفة هارون الرشيد إلى التنكيل بالبرامكة : قيل إنه غضب عليهم لأن جعفراً البرمكى أطلق سراح يحيى بن عبدالله العلوى بعد أن كان الرشيد قد أمره بحبسه . وقيل إن استبداد البرامكة بالملك وجمعهم الأموال استمال الناس إليهم مما أوغر صدر الرشيد عليهم وحمله على الإيقاع بهم ، وساعد على إشعال نار العداوة والبغضاء سعاية الفضل بن الربيع وكراهية زبيدة أم الأمين للبرامكة ، أضف إلى ذلك ما اتصل بعلم الرشيد من أن عبد الملك ابن صالح العباسى كان يدعو لنفسه وأن البرامكة يساعدونه ، كذلك أظهر البرامكة الدالة على الرشيد مما لم تحتمله نفسه ، كما أنهم عاشوا عيشة البذخ والإسراف وأغدقوا الأموال على الشعراء والعلماء مما أثار عوامل الغيرة فى نفوس أعدائهم وحسادهم .

على أن أهم عامل أفاض المؤرخون فى القول عن أهميته فى حدوث نكبة البرامكة ، ما قيل عن وجود علاقات بين جعفر بن يحيى وبين العباسة أخت الرشيد . فإن العباسة يقترن اسمها باسم رجل من أقطاب أسرة البرامكة ، هو جعفر بن يحيى بن خالد البرمكى الذى كان مقربا من نفس الرشيد ، لما عرف عنه من رجاحة العقل والحزم وحسن تصريف أمور الدولة ، وكان الرشيد لا يبت فى أمر دون مشورته ، حتى لازمه جعفر فى غدواته وروحاته ، ولم يستطع الرشيد أن يجتمع فى مجلس من غير وجوده فيه . وكان الرشيد يعمل فى نفس الوقت بمشورة أخته العباسة . فقد كانت ذات ثقافة عالية ، وذكاء نادر ، كما كانت حلوة الحديث ، لطيفة المعشر ، ولذا كانت دائماً تحضر مجلس الرشيد ، شأنها فى ذلك شأن جعفر البرمكى .

وكان حرص الرشيد على أن تحضر العباسة مجالسه كما يحضرها جعفر ، داعيا إلى تفكيره فى طريقة شرعية تبيح لجعفر أن يجلس فى حضرة الرشيد مع

وجود العباسة . وللوصول إلى ذلك ، اجتمع الرشيد يوما بجعفر البرمكي وقال له : ويحك ياجعفر ! ليس في الأرض طلعة آنس إليّ وإليها أميل سوى رؤيتك ، وإن للعباسة أختي مني موقعا ليس أقل من ذلك ، وقد نظرت في أمري معكما ، فوجدتني لا أصبر عنك ولا عنها ، ورأيتني ناقص الحظ والسرور يوم أكون وحدي معها وكذلك يوم وجودي معك دونها ، وقد رأيت رأيا يجتمع لي به السرور ويزداد به الأنس ، فرد عليه جعفر : وفقك الله ياأمير المؤمنين . وأخذ الرشيد عليه عبد الله أن لا يظله وإياها سقف بيت إلا والرشيد ثالثهما ، فحلف له جعفر على ذلك ، ورضى به ، وظلوا يجتمعون على هذه الحالة وجعفر صارف بصره عنها ، هيبة لأمير المؤمنين ووفاء بعهده له . وتضاربت الروايات بعد ذلك في حقيقة ما روى عن العباسة وجعفر وما ذاع عن عقد قرانهما .

على أن بعض المؤرخين الذين يعتد برواياتهم قد نفى حدوث ذلك ، على اعتبار أنه أمر يستبعد حدوثه كل البعد ، لما هو معروف عن نسب العباسة وحسبها ودينها : فهي بنت الخليفة المهدي بن المنصور وهي قريبة عهد ببداوة العرب وسذاجة الدين[1] ، إذ كيف يقبل الرشيد مع ما عرف عنه من بعد النظر وعلو الهمة والإباء والشمم وأن يزوج أخته مولى من موالي دولته . وأين قدر العباسة ابنة المهدي ، وحفيدة المنصور ، وأخت الهادي ، وأخت الرشيد ، وسليلة الخلفاء ، من جعفر ! كما أن مسألة قبول الرشيد أن تجتمع أخته مع رجل في مجلس واحد لا تصدر عنه : لأن حرص العربي على عرضه أبقى لديه من كل ما يملك من متاع وسلطان ، وكان الرشيد فقيها يعلم المدى الذي يصل إليه في الأمور التي تتصل بشرف الأسرة ومكانتها .

ويمكن القول أن مثل هذه الحادثة لا يمكن أن تؤدي إلى الفتك بالأسرة كلها ومنع الشعراء من رثائها ومصادرة أموالها . فقد كان السبب الرئيسي في نكبة البرامكة هو نفوذهم الذي بلغوه في الدولة وتحدث عنه الشعراء والكتاب ،

(١) ابن خلدون : مقدمة ص ١٤ .

فقد كان نفوذا غير محدود واستئثارا بالأموال إلى درجة أخافت الخليفة[١] . ولذا أعرض عنهم الرشيد ، وقسا فى معاملتهم : وتتبعهم بالتشريد والتقتيل ، فقضى عليهم بعد العز ونضرة الأيام وتشردوا بعد اجتماع الشمل وعظمة الملك . أما ما قيل عن مسألة العباسة أخت الرشيد وزواجها سراً من الوزير جعفر البرمكى ، فلا يوجد فى التاريخ ما يؤيدها ولا تنهض مبررا لإيقاع الرشيد بوزرائه من البرامكة[٢] .

ويظهر أن نكبة البرامكة أصبحت منذ تجمع هذه العوامل محتملة الوقوع ، بدليل ما رواه صاحب الفخرى عن بختيشوع الطبيب ، قال : « دخلت يوما على الرشيد وهو جالس فى قصر الخلد ، وكان البرامكة يسكنون بحذائه من الجانب الآخر وبينه وبينهم عرض دجلة . قال فنظر الرشيد فرأى اعتراك الخيول وازدحام الناس على جانب باب يحيى بن خالد ، فقال أجزى الله يحيى خيراً ، تصدى للأمر وأراحنى من الكد ووفر أوقاتى على اللذة . ثم دخلت عليه بعد أوقات وقد شرع يتغير عليهم ، فنظر فرأى الخيول كما رآها تلك المرة ، فقال : استبد يحيى بالأمور دونى ، فالخلافة على الحقيقة له وليس لى منها إلا إسمها ، فقلت إنه سينكبهم ، فنكبهم عقب ذلك »[٣] .

ويمكن القول أن سقوط أسرة البرامكة كان نتيجة حوادث متتابعة ، دفعت الرشيد ، لا إلى الحد من نفوذ هذه الأسرة فحسب ، بل إلى القضاء عليها ومحو آثارها والقسوة فى معاملة رجالها : فأمر بقتل جعفر وحبس يحيى وبقية أولاده . ومات يحيى والفضل فى السجن ، وظل به الباقون حتى عفا عنهم الأمين . وهذه النكبة كانت ضربة موجهة إلى الأمة الفارسية .

---

(١) ابن خلدون مقدمة ص ١٤ .

(٢) على إبراهيم حسن : نساء لهن فى التاريخ الإسلامى نصيب ص ٨٥ — ٨٦ .

(٣) ابن طباطبا : الفخرى ص ١٩٠ .

وعقد الرشيد الخلافة من بعده لأولاده الثلاثة ، وذلك سنة ١٨٦ هـ :
فقد كان للرشيد أربعة أولاد ذكور : محمد الملقب بالأمين ، وعبد الله الملقب بالمأمون ، والقاسم الملقب بالمؤتمن ، ثم المعتصم . وعهد الرشيد إلى الثلاثة الأول بولاية العهد من بعده ، الواحد بعد الآخر : أولا الأمين ، وثانيا المأمون ، وثالثا المؤتمن إذا قبل المأمون أن يوليه من بعده . وهذا الترتيب فى ولاية العهد تصرف غير طبيعى ، لأن ترتيب الرشيد الخلافة لأولاده من بعده على هذا النظام لا يكفى لإقراره والسير بمقتضاه تنظيم الخليفة له ، بل لابد لنفاذه من رضاء الإخوة وموافقة الأمة . وخرج الرشيد سنة ١٨٦ هـ حاجا ومعه أولاده إلى مكة ، وهناك أعلن البيعة لأبنائه على الحجاج فى ثلاث وثائق رسمية[1] ، هى عهد مأخوذ على الأمة كلها بأن تكون عندما اشترط الرشيد لأولاده . ولم يكتف بذلك ، بل قسم الدولة إلى ثلاثة أقسام ، القسم الشرقى وهو خراسان يعهد به إلى المأمون ويعتبر واليا لأخيه الأمين ، ويعهد بإقليم الجزيرة والعواصم إلى المؤتمن ، وتصبح سلطة الأمين مطلقة على ما يلى ذلك من الأقاليم كالعراق والشام وغيرهما .
ولما حصل ذلك التقسيم وأعلن على الناس توقعوا من وراء ذلك شراً .

ثالثاً : هارون الرشيد هو أطول العباسيين حكماً فقد حكم الدولة ٢٣ سنة، وهو بذلك أطول سنة واحدة من جده الخليفة المنصور حيث حكم ٢٢ سنة فقط.

صفات هارون الرشيد :

قالوا عن هارون الرشيد أنه شخصية تتحكم فيه العاطفة (فهل كان هارون الرشيد شخصية غير متوازنة رغم شهرته الكبيرة هذه) ؟

كان يحج عاماً ويغزو في سبيل الله عاماً، وهو أول من حج ماشياً من خلفاء بني العباس.

ينقل إلى ص ٢٠٦

(١) تجد نصوص هذه البيعة فى الطبرى ج ٩ ص ٧٦ — ٧٧ .

على أن تلك الصفات التي اتصف بها الرشيد وكان لها أثرها على بعض أعماله، لا تمنع من وصفه بأنه كان حاكماً نشيطاً شجاعاً إذا أحس بالخطر كما يتجلى في نكبة البرامكة وقضائه على البيزنطيين، وأنه كان حاكماً محباً للآداب والفنون، أجزل العطاء للعلماء والشعراء مما أطلق ألسنتهم بمدحه والثناء عليه والتغني بجميل خصاله وجليل أعماله. وكان حبه للغزو ونجاحه ضد البيزنطيين وجوده وكرمه وإقباله على العلم وتشجيعه العلماء مصدر ذيوع شهرته.

وتوفي الرشيد في طوس بعد مرض انتابه ثلاثة أيام، أثناء خروجه إلى خراسان لقتال رافع بن الليث. وذلك في جمادى الآخرة سنة ١٩٣ هـ، ودفن بها ولم تنقل جثته إلى بغداد.

الأمين

(١٩٣ – ١٩٨هـ – ٨٠٨ – ٨١٣م)

الأمين أصغر من المأمون، وكان المفروض أن يتولى المأمون الخلافة قبل الأمين، ولكن يبدو أن إنقلاب هارون الرشيد على البرامكة جعله يقدم ابنه الأمين بسبب أمه العربية على ابنه المأمون بسبب أمه الفارسية، لكن كتب التاريخ لم تذكر ذلك وإنما الذي ذكر هو أن زبيدة أم الأمين هي التي كانت وراء هذا الموقف من هارون الرشيد، وربما كان ذلك أيضاً السبب في أن هارون الرشيد لم يأخذ رأي الرعية فيما قرره خشية الفتنة وعدم موافقة الرعية على تقديم الأصغر على الأكبر.

ولما آلت الخلافة إلى الأمين، عول على خلع أخيه المأمون من ولاية العهد. وشجعه على ذلك وزيره الفضل بن الربيع وحثه على تولية ابنه موسى العهد من بعده، فولاه وسماه «الناطق بالحق». ومن ذلك الحين بدأت الفتنة بين الأمين والمأمون، وسببها في الواقع نكث الأمين العهد والميثاق الذى أخذه على نفسه فى حياة أبيه، مما أغضب الخراسانيين وغيرهم من أهالى الأمصار الإسلامية، وتطورت الفتنة حتى أصبحت نزاعا بين الفرس أنصار المأمون والعرب أنصار الأمين.

الفتنة بين أنصار الأمين والمأمون:

ظل الأمين خليفة بالاسم دون الفعل مدة خمس سنوات، لأن سلطته لم تكن تامة على جميع أقاليم الدولة الإسلامية. ووقع منذ اعتلائه العرش، الخلاف بينه وبين أخيه المأمون، ووجدت الدولة نفسها أمام فتنة داخلية صدعت وحدة الخلافة، وكشفت عن دور من أدوار النزاع بين العرب والفرس. وفيما سبق هذه الفتنة وما لحقها، بذلت جهود جبارة من ناحية العنصر الفارسى فى سبيل استرداد نفوذ الفرس، الذى كاد أن يتلاشى ويمحى، وكافح العنصر العربى فى الوقت نفسه فى سبيل الاحتفاظ بالمكانة التى كانت له وعدم إتاحة الفرصة لعودة النفوذ والسلطان للفرس.

كان الأمين شابا مولعا بالصيد والموسيقى والشراب، ووقف إلى جانبه فى نزاعه مع الفرس وزيره الفضل بن الربيع[1] وأشهر قواده على بن عيسى ابن ماهان وعبد الرحمن بن جبلة، ولم يكن لهؤلاء ذكر فى التاريخ. أما المأمون

---

(١) كان الفضل ممن دبر لدى الرشيد نكبة البرامكة.

فقد شغف بالعلم وتعمق فى الفلسفة ، واعتبر فى عداد أساطين علماء العصر أكثر من وضعه فى صفوف الدهاة السياسيين . ووقف إلى جانبه وزيره الفضل بن سهل السرخسى[١] ، وأطلق عليه لقب ذى الرياستين[٢] ؛ وعرف بالدهاء والكفاية فيما يتولاه من الأعمال . ومن قواد المأمون هرثمة بن أعين وطاهر بن الحسين[٣] وهما فارسيا الأصل .

بدأ النزاع بين الأخوين ، حين حاول الأمين خلع المأمون عن الخلافة ، فقد أمر بأن يدعى لموسى بن الأمين كى يلى الخلافة قبل المأمون والمؤتمن . ولما بلغ ذلك المأمون قطع صلته بأخيه ، فبعث الأمين رسلا تطلب إلى المأمون الرجوع إلى بغداد وأن يتقدم موسى بن الأمين على نفسه فى الخلافة ، ولكن المأمون رفض العودة إلى بغداد أو تقديم موسى على نفسه . فبايع الأمين لولده موسى فى صفر سنة ١٩٥ هـ ولقبه « الناطق بالحق » . ونهى عن ذكر المأمون والمؤتمن على المنابر ، وأحضر الوثائق الرسمية التى كتبها الرشيد وأودعها الكعبة بترتيب ولاية العهد من بعده ومزقها .

ولما تحرجت الأمور بين الأمين والمأمون على هذا النحو ، عهد المأمون إلى قائديه : هرثمة بن أعين وطاهر بن الحسين ، بالدفاع عن خراسان ، وتدفقت جموع الخراسانيين للعمل تحت إمرتهما ، وعهد الأمين إلى قائده على بن عيسى[٤] فى غزو خراسان . ودارت الحرب بين على بن عيسى قائد الأمين وطاهر بن

---

(١) نسبة إلى بلدة سرخس ، وهى مدينة قديمة من نواحى خراسان بين نيسابور ومرو سميت باسم رجل من الدعار وزمن كيكاوس ، سكن هذا الوضع وعمره ثم تم عمارته ذو القرنين الإسكندر ، وقالت الفرس إن كيكاوس أقطع سرخس أرضا فبنى بها مدينة سماها باسمه وهى سرخس » . ياقوت : معجم البلدان .

(٢) رياسة القلم ورياسة السيف .

(٣) لقب طاهر باسم « ذى اليمينين » : لأنه كان يعمل بكلتا يديه .

(٤) كان على بن عيسى مبغضا لدى أهل خراسان ، منذ كان واليا عليهم .

الحسين قائد المأمون ، فانتصر جيش المأمون فى وقعة الرى وهزم جيش الأمين وقتل على بن عيسى ، وبعث طاهر إلى المأمون كتاباً قال فيه : « كتابى إلى أمير المؤمنين ، ورأس على بن عيسى بين يدى وخاتمه فى أصبعى ، وجنده مصرفون تحت أمرى والسلام » . وهزمت جيوش الأمين التى كان قد وجهها إلى خراسان وأخذت البيعة للمأمون فى ذلك الإقليم ، واستولى طاهر على الأقاليم الخاضعة للأمين إقليماً بعد إقليم : فاستولى على إقليم الجبال جنوب بحر قزوين ، ثم سار إلى الأهواز فواسط والمدائن . حتى أصبح على مقربة من بغداد ، وأقيمت الخطبة للمأمون على منابر الحجاز فى مكة والمدينة . وعقب ذلك بدأت استعدادات المأمون لحصار بغداد .

الخليفة المأمون

(١٩٧ - ٢١٨هـ - ٨١٣ - ٨٣٣م)

تولى الأمين الخلافة بعد أبيه هارون الرشيد رغم أنه كان أصغر من أخيه المأمون والسبب في ذلك يرجع إلى أن أم الأمين عربية، بينما أم المأمون فارسية وعلمنا كيف حاول الخليفة الأمين خلع أخيه المأمون من ولاية العهد ليحل محله ابنه موسى. وقد أدى ذلك إلى أنه أصبح نزاعا بين العرب والفرس، أو بتعبير أدق أن النزاع بين الفرس والعرب هو الذي كان وراء صراع الأخوين الأمين والمأمون. وعلمنا كيف انتهى هذا الصراع بتنازل الأمين عن الخلافة لأخيه المأمون.

وطبيعي أن يقع الخليفة المأمون تحت سيطرة الفرس لسببين :

أولاً : لأنهم أخواله.

ثانياً : أنهم هم الذين حاربوا الخليفة الأمين ومكنوا المأمون من الوصول إلى كرسي الخلافة.

ورغم أن المؤرخين ذكروا أن الخليفة المأمون لم يكن شخصية سياسية بقدر ما هو شخصية أدبية وعلمية، ويدلون على ذلك بأنه في سنة ٢٠٨ أعلن أنه يريد أن يكون على الرضا ولياً للعهد وبذلك فإنه كان يريد أن يحول الخلافة العباسية إلى خلافة علوية، وأنا أعتقد أن ذلك كان تحت تأثير الفرس، الذين يئسوا من العباسيين وأرادوا أن يجربوا حظهم مع العلويين، كما أنني أرى أن ظهور العلويين في عهد

المأمون كان بتأثير من الفرس أيضاً، والدليل على صحة ما انتهيت إليه هو أن الخليفة المأمون لما أدرك المخطط الفارسي قام المأمون بقتل هرثمة قائده الفارسي الذي مكنه من اعتلاء الخلافة، كما قتل الفضل بن سهل، وعلي الرضا . أي أنه قتل كل أطراف المؤامرة.

قرر المأمون بعد ذلك العودة إلى بغداد بعد أن ظل في خراسان السنوات الأولى لحكمه، وعاد إلى بغداد سنة ٢٠٤هـ، وقد عين طاهر بن الحسين والياً على خراسان بعد أن قتل الفضل بن سهل لكن طاهر استبد بالأمر في خراسان وحذف اسم المأمون من على المنابر في خراسان، ولما علم الخليفة المأمون بذلك من صاحب البريد دبر لقتل طاهر بن الحسين، لكن طاهر يموت بالحمى قبل تنفيذ مؤامرة قتله - وقد تولى ولاية خراسان طلحة بن طاهر بن الحسين حيث أقام دولة وراثية عرفت (بالدولة الطاهرية)، وهكذا استقل إقليم خراسان عن بغداد استقلالاً ذاتياً .

كان المأمون قد عين عبد الله بن طاهر الابن الأخير لطاهر بن الحسين والياً على مصر والشام، حيث كانت في مصر ثورة من العرب على حكم الفرس، فقد استطاع عبد الله بن طاهر من القبض على زعيم عرب مصر (اسمه نصر) وأرسله إلى المأمون لكن الثورة عادت إلى مصر بعد رحيل عبد الله بن طاهر إلى خراسان عقب تعيينه والياً على خراسان. الأمر الذي اضطر أن يحضر المعتصم بنفسه إلى

ومن الغريب أن المأمون هو الذى أمر فى سنة ٢٠٠هـ بأن يحصى بنو العباس جميعاً كى يتبين أجدرهم بالخلافة من بعده ، فيسند إليه ولاية العهد ، فلم يجد هذا الشخص ، فأعلن فى سنة ٢٠١ هـ أنه تمثل فى العلويين فى شخص على الرضا ، الإمام الثامن من أئمة الشيعة الإثنى عشرية ، ابن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسن بن على ابن أبى طالب .

وقد صدق حدس الحسن بن سهل ، فإن المأمون مالبث أن توجس خيفة من تولية على الرضا عهده ، حتى « أن الخليفة المأمون وجد فى يوم عيد انحراف مزاج أحدث عنده ثقلا عن الخروج إلى الصلاة بالناس ، فانتدب أبا الحسن عليا الرضا للصلاة بالناس ، فخرج وعليه قميص أبيض ، وعمامة بيضاء وهى من قطن وفى يده قضيب . فأقبل ماشياً يوم المصلى وهو يقول : السلام على أبوى آدم ونوح ، السلام على أبوى إسماعيل وإبراهيم ، السلام على أبوى محمد وعلى ، السلام على عباد الله الصالحين : فلما رآه الناس هرعوا إليه وانثالوا عليه لتقبيل يده . فأسرع بعض الحاشية إلى الخليفة المأمون وقال : ياأمير المؤمنين تدارك الناس واخرج وصل بهم ، وإلا خرجت الخلافة منك الآن ، فحمله هذا الأمر على الخروج بنفسه ، وجاء مسرعا والرضا لم يخلص إلى المصلى ، لكثرة ازدحام الناس عليه ، فتقدم المأمون وصلى بالناس » .

ولكن المأمون عدل نهائياً عن فكرة تحويل الخلافة إلى العلويين ، بعد أن ثار عليه أهل بغداد وبايعوا إبراهيم ابن الخليفة المهدى بولاية العهد ، وما لبث المأمون أن صمم على الرحيل إلى بغداد .

وقبل رحيل المأمون إلى بغداد ، قضى على قائده هرثمة بن أعين . وتفصيل

ذلك أن هرثمة رأى أن يطلع المأمون على حقيقة أحوال البلاد واستبداد الفضل وأخيه الحسن بن سهل ، ولذا رأى الحسن أن يوغر صدر المأمون على هرثمة ، بالقول بأنه يتشيع للعلويين ، وأنه لهذا لم يقض على كل أتباع أبى السرايا زعيم العلويين فى ثورتهم ضد الخلافة العباسية رغم تمكنه من ذلك ، واستمع الخليفة لهذه الوشايات فأمر بحبسه ثم قتل . وبذلك يكون المأمون قد فتك برجل خدم الدولة العباسية أجل الخدمات ، كما ظل نفوذ الفضل بن سهل وأخيه الحسن على ما كان عليه . وزاد الحالة شدة ، أن البلاد كانت إذ ذاك تغلى كالمرجل نتيجة محاولة المأمون نقل الخلافة العباسية للعلويين ، وجاء مقتل هرثمة على هذا النحو ، دافعاً لتحفز أتباعه ، وأصبحت بغداد مسرحاً للفوضى مرة أخرى ، وانتهز العامة تلك الفرصة وقاموا بنهب الأموال والفتك بالسكان .

المأمون فى بغداد :

سار المأمون فى سنة ٢٠٢ هـ من مرو حاضرة خراسان قاصداً العراق ، ولو أن المأمون انتقل إلى بغداد بعد اعتلائه العرش ، لتفادى ماجره بقاؤه فى خراسان من نكبات حلت بالخلافة . وقبل رحيله عين غسان والياً على خراسان .

اعتزم المأمون القضاء على من أقلقوا خلافته بالتخلص من الفضل بن سهل وعلى الرضا : أما الفضل فقد قتل فى الحمام فى مدينة سرخس على يد أربعة رجال . وتوفى على الرضا فى مدينة طوس سنة ٢٠٣ هـ وصلى المأمون عليه ، وأثارت وفاته هواجس الناس ، وقيل إنها لم تكن طبيعية لأنها جاءت فى وقت كان فيه العباسيون ثائرين فى العراق على المأمون لمحاولته نقل الخلافة إلى العلويين ، وردد الناس القول بأن المأمون قد دس له السم عندتناوله بعض العنب ، وكتب المأمون إلى الحسن بن سهل وإلى العباسيين فى العراق يعلمهم بوفاة على الرضا ويدعوهم للرجوع إلى طاعته .

وزاد من طمأنينة المأمون عند ما اقترب من بغداد ، اختفاء إبراهيم بن الخليفة المهدى ، لأن أهل بغداد كانوا قد بايعوه بالخلافة بدلا من المأمون عند ماحول ولاية العهد إلى على الرضا العلوى ، وظل إبراهيم مختفياً ثمانى سنوات ثم شفع فيه لدى المأمون وعاد إلى الظهور . وكذلك اختفت شخصية من الشخصيات التى أوقدت نيران الفتن ضد المأمون ، وهى شخصية الفضل بن الربيع ، وظل مختفيا مدة ثم صفح عنه المأمون ، ولكنه لم يظهر له الرضاء عنه ولم يعمر طويلا ثم مات .

وهكذا خدم الحظ الخليفة المأمون ، لأنه قبيل دخوله بغداد ، كان الفضل ابن سهل وعلى الرضا قد توفيا ، واختفى أيضاً إبراهيم بن المهدى والفضل ابن الربيع . وكلهم من الشخصيات التى سببت الثورة والفتنة فى العراق وأقلقت خلافة المأمون .

دخل المأمون بغداد سنة ٢٠٤هـ ، وبمجرد وصوله إليها عمل على إرجاع الحال إلى ما كان عليه : فبدأ بإقرار الخلافة للعباسيين ومنعها عن العلويين ، وزاد على ذلك أن أمر بلبس الملابس السوداء شعار العباسيين . وتقدم المأمون إلى الأمام خطوة أخرى ، ظنها تؤدى إلى إعادة سلطانه على الدولة ، إذ أمر سنة ٢٠٥ هـ بتولية طاهر بن الحسين على خراسان . وكان الفضل بن سهل قد استبد بأهالى هذا الإقليم ، وأضعف شأن المأمون حتى أصبح إشراف الخليفة على هذا الإقليم إسمياً ، وثار الأهالى على خلافة المأمون وإمارة الفضل . ولكن خاب ظن الخليفة فى الوالى الجديد ، فإنه فعل ما يفعله الفضل فى عنفوان سطوته ، إذا أنه لم يجعل نفوذ الخليفة إسمياً فحسب كما كانت الحال أيام ولاية الفضل ، بل إنه عمد إلى حذف اسم المأمون من على المنابر فى خراسان . وتفصيل ذلك أن كلثوم بن ثابت صاحب البريد العباسى[1] فى خراسان ، لاحظ أنه حين حضرت صلاة الجمعة ، صعد الم...

(١) مهمة صاحب البريد : التجسس على كبار الموظفين وإنهاء أحوالهم إلى الخليفة .

وقطع اسم الخليفة المأمون[١] ، فأبلغ كلثوم ما حدث للخليفة ، ولكن طاهراً توفى سنة ٢٠٧ هـ بالحمى ، قبل أن يصل أمر الخليفة بتدبير قتله ، ومن ذلك يتضح أهمية صاحب البريد فى إقليمه ، وولى على خراسان من بعده طلحة بن طاهر ابن الحسين .

وبذلك تأسست فى خراسان دولة وراثية ، عرفت باسم «الدولة الطاهرية» ، وابتدأت عملية تجزىء الدولة العباسية فى الظهور فى المشرق ، كما ظهرت من قبل فى المغرب ، وتسبب عن ذلك استحالة الدولة العباسية إلى دويلات عديدة لاتتبع بغداد إلا فى الإسم ، إذ أن كلا من أمراء هذه الدويلات تشبه بالخلفاء ، وتقلص بذلك نفوذ الخليفة العباسى على الولايات التابعة للدولة وضعفت السلطة المركزية .

توفى الخليفة المأمون بمرض الحمى في طوس أثناء رحيله لمعركة مع الدولة البيزنطية (أي توفى في نفس المدينة التي توفى فيها والده هارون الرشيد) بسبب إيواء الدولة البيزنطية الخارجين على حكم المأمون خاصة من الفرس. كان عمر الخليفة المأمون ٤٨ سنة حينما توفى.

(١) عدم ذكر اسم الخليفة فى خطبة الجمعة معناه : استقلال الوالى بإقليمه وخروجه على الخليفة .

المعتصم

٢١٨ – ٢٢٧ = ٨٣٣ – ٨٤٢ م

بويع المعتصم بن الرشيد يوم وفاة أخيه المأمون فى ١٩ رجب سنة ٢١٨ ﻫ وهو فى غزوته الأخيرة لبلاد الروم ، ورفض الجند أن يقدموا له الطاعة فى مبدأ الأمر وأرادوا تولية العباس بن المأمون ، ولكن العباس أسرع إلى مبايعة عمه بالخلافة احتراماً لوصية أبيه فحذا الجيش حذوه بعد ذلك .

سار المعتصم على سياسة أخيه المأمون ، فى حمل الناس على القول بخلق القرآن ، فقد أوصاه المأمون قبل وفاته بقوله : يا أبا إسحق (المعتصم) أدن منى ، واتعظ بما ترى ، وخذ بسيرة أخيك فى القرآن[1] وزاد على ذلك أن ألحق الأذى بكل من يعترف بغير ذلك من العلماء وأهل الرأى ، فأهان أحمد بن حنبل إهانة بالغة وسجنه[2] وأصبح كل عالم أو قاض هدفاً لأن يضرب بالسياط والتعذيب إذا لم يأخذ برأى المعتزلة فى القول بخلق القرآن .

سياسته إزاء العلويين :

تابع المعتصم إزاء العلويين نفس سياسة الشدة ، التى تبعها الخلفاء العباسيون قبله عدا المأمون . فقد تخلص المعتصم من محمد الجواد بن على الرضا الذى كان المأمون قد زوجه ابنته أم الفضل ، حتى لا تحدثه نفسه بالمطالبة بالخلافة على

---

(١) الطبرى ج ١٠ ص ٢٩٤

(٢) كان لتمسك ابن حنبل أحد كبار المحدثين برأيه فى القرآن ، وقوله إنه كلام الله ، فلا هو قديم ولا هو مخلوق ، أكبر الأثر فى علو شأنه بين الناس واحترام العلماء والمحدثين له ، واضطر المعتصم بعد أن كان قد أمر بحبسه أن يفرج عنه ويسترضيه فى الرأى العام .

أساس : أن أولاده من سلالة المأمون ، وأن أباه عليا الرضا قد ولاه الخليفة المأمون العهد قبل وفاته وبذلك تؤول الخلافة إليه بعد وفاة أبيه[1] . كذلك خرج محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب على المعتصم ، وكان قد علم أن الخليفة يضمر له الشر ، ورحل عن الكوفة إلى خراسان ، حيث انضم إليه خلق كثير وحارب جيوش الخليفة في عدة مواقع ، إلا أن عبد الله بن طاهر والي خراسان قبض عليه وأرسله إلى المعتصم فحبسه في سامرا حتى مات ، ويزعم أتباعه أنه حي لم يمت وأنه المهدي المنتظر ، وأكثر هؤلاء بناحية الكوفة وبلاد طبرستان وجبال الديلم[2] .

اعتماده على الأتراك :

اعتمد المعتصم لأول مرة في تاريخ العباسيين ، اعتماداً كلياً على الأتراك ، بعد أن كان اعتماد من سبقه من الخلفاء على الفرس ، ولا عجب في ذلك إذ كانت أمه تركية : فأسقط العرب من ديوان العطاء ، وأهمل العنصر العربي والفارسي معاً ، وأسند إلى الأتراك مناصب الدولة ، وكان المعتصم يرى أن دولته الواسعة لابد أن يقوم بحراستها جيش قوي ، فاستكثر من الأتراك ، وكانوا يجلبون من أسواق الرقيق في بلاد ماوراء النهر . واتخذ من حسن هندامهم وجمال منظرهم وشجاعتهم وتمسكهم بأهداب الإسلام ، سبباً للاعتماد عليهم : فولاهم حراسة قصره ، وأسند إليهم أعلى المناصب ، وقلدهم الولايات الكبيرة ، وخلع عليهم الهبات والأرزاق وآثرهم على الفرس والعرب في كل شيء[3] .

أخذ هؤلاء الأتراك ، الذين كانوا بعيدين عن الحضارة والعلم ، يندمجون

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٤٨ .

(٢) الطبري ج ١٠ ص ٣٠٥ ، المسعودي : نفس المصدر والجزء ص ٣٤٨ — ٣٤٩ .

(٣) حسن إبراهيم وعلي إبراهيم : النظم الإسلامية ص ٢٩٩ .

فى طبقات الأمراء والمثقفين : فتعلموا العربية ، ووقفوا على أحكام القرآن، ودانوا بالإسلام ، ودرسوا العلوم والآداب ، وكان كل من يصل منهم إلى مرتبة خاصة من التهذيب والتثقيف يتولى المنصب الذى يتناسب مع كفايته ومواهبه ، ومن ثم تمكن كثير منهم من الوصول إلى أعلى المراتب ، فاندمجوا فى سلك البلاط وتقلدوا ولاية الإمارات . وعظم نفوذهم واشتد ، حتى أصبح فى أيديهم تولية الخليفة وعزله أو حبسه ونفيه أو قتله ، ومالبث عددهم أن زاد حتى أربى على الخمسين ألفا[1] ، فقويت شوكتهم ، وتدللوا على الخليفة حتى ألبسهم حلل الديباج والمناطق المذهبة والحلى . فداخلهم الغرور وارتكبوا كثير من أعمال العسف والشدة ، حتى أنهم كثيراً ما آذوا السكان وداسوهم بخيولهم فى الأسواق والطرقات ، مما أثار غضب العامة وحنقهم عليهم .

وكانت النتيجة إهمال المعتصم للعرب واستعانته بالأتراك وإجزاله العطايا لهم دون غيرهم ، أن دب فى نفوس العرب دبيب الغيرة والحسد ، وقام عجيف القائد العربى بثورة على قواد الترك الذين أساءوا معاملة العرب ، بل عزم على التخلص من المعتصم نفسه ، وأغرى العباس بن المأمون بالخروج على عمه والمطالبة بعرشه ، واشترك قواد العرب فى هذه المؤامرة واتفقوا على قتل المعتصم ، إلا أن خبر هذه المؤامرة قد تسرب إلى المعتصم ، فمنع الماء عن العباس حتى مات ولحق به عجيف[2] . وثار العرب على المعتصم فى بلاد الشام ، كما أثار الأكراد الفتنة ضده فى الموصل ، ولكن هذه الثورات باءت بالفشل فى مهدها . على أن المعتصم بعد أن تمكن من إقصاء قواد العرب والفرس تدريجياً وأسقطهم من ديوان العطاء وقع فى أيدى الأتراك ، وهؤلاء كانت الرغبة فى انتزاع السلطة من الخليفة قد

---

(١) Gibbon : Decline and Fall of the Roman Empire,. Vol. IV, p. 47.

(٢) الطبرى ج ١٠ ص ٣٤٤ ، حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ٢ ص ٧ .

تغلبت على نفوسهم ، إذ لم يكونوا جادين فى إخلاصهم للخليفة ، وفى سبيل ذلك عملوا على حصر السلطة فى أيديهم . وعد عهد خلافة المعتصم وخلافة الواثق من بعده ، فترة انتقال إلى حكم الأتراك الفعلى فى بغداد ، وسلطان الخلفاء الإسمى منذ وفاة الواثق ، واتضح بجلاء فى العصر العباسى الثانى خطر اعتماد العباسيين على الأتراك .

سامرا :

لم يكن بد من أن يعمل المعتصم على تلافى الشر قبل وقوعه ، بعد أن استفحل خطر الارتزاق، وأثاروا سخط العامة وآذوا أهل بغداد . لذلك عول على اتخاذ موضع يبنى فيه مدينة جديدة ، تسع جنده من الأتراك ، فبنى فى سنة **٢٢١ هـ** مدينة سامرا التى عاشت حوالى الستين عاما .

وهكذا بنيت سامرا شرقى نهر دجلة ، على مسيرة ثلاثة أيام من بغداد، وتبعد عنها ستين ميلا من الشمال ، وتقع فى مكان طيب الهواء جيد التربة . يسهل منه الوصول إلى بغداد براً وبحراً ، وشيد فى طرفها مسجداً جامعا للمسلمين ، وأفرد سوقا لأرباب الحرف والصناعات ، ونقل إلى حاضرته الجديدة الأشجار والثمار وغرس الحدائق والبساتين ، وشيد المتنزهات ، وأقام المبانى الشاهقة والقصور الفخمة التى قيل إن عددها بلغ سبعة عشر قصراً[1] .

أصبحت سامرا مدينة عامرة زاهرة ، حتى سميت « سر من رأى » . وصفها ابن المعتز بقوله : « إنها معشوقة السكنى ، حبيبة المثوى ، كوكبها يقظان وجوها عريان ، حصاها جوهر ، ونسيمها معطر ، وترابها مسك أذفر ، يومها غداة ، وليلها سحر ، طعامها هنىء وشرابها مرىء ، تاجرها مالك ، وفقيرها فاتك » . ووصفها الحسين بن الضحاك فقال :

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ، لفظ سامرا .

الواثق

٢٢٧ — ٢٣٢ هـ = ٨٤٢ — ٨٤٧ م

ولى الواثق الخلافة بعد أبيه المعتصم ، وكانت أمه رومية . وشارك أباه فى ميوله وآرائه الفلسفية وزاد عليه . وكانت تشوب إدارته مظاهر الضعف أحياناً والاستبداد أخرى ، فقد اشتد على كتاب الدواوين حين تبين له تفشى الرشوة والفساد بينهم ، واستولى منهم على مبالغ تتراوح بين أربعة عشر ألف دينار ومليون دينار .

وفى عهد الواثق ، استمرت الحروب بين العباسيين والبيزنطيين ، وسببها وجود جماعة من النصارى المتحنفين فى آسيا الصغرى لا يرون عبادة الصور ، فكانوا لذلك محل اضطهاد الحكومة البيزنطية مما دفعهم إلى الاحتماء بالخليفة الواثق والهجرة للالتجاء إليه ومعهم زعيمهم قربياس Karbeas ، وهؤلاء قاتلوا مع جند العباسيين ضد الروم،وانتهى الأمر بهزيمة البيزنطيين والإمبراطور البيزنطى ميشيل الرابع هزيمة شائنة فى سنة ٢٤٥هـ ، فى عهد المتوكل الذى خلف الواثق على عرش الخلافة العباسية .

سياسته إزاء مسألة خلق القرآن :

غلا الواثق فى نشر آرائه الدينية الخاصة بمسألة خلق القرآن ، جرياً على السياسة التى سار عليها أبوه . فأثار خواطر أهل بغداد مما دعاهم إلى

التآمر على حياته وعلى حكومته وكان أحمد بن نصر رأس هؤلاء الساخطين الذين أنكروا القول بخلق القرآن ، وحملوا على الواثق حملة شعواء ودعوا إلى عزله ، والتف حوله كثير من أنصاره ، وعينوا يوما ينفذون فيه مؤامرتهم على أن يضربوا الطبل فى الليلة السابقة لذلك اليوم . إلا أن الرجلين اللذين عهد إليهما تنفيذ هذا الأمر أكثرا من شرب الخمر فى تلك الليلة ، وأخذ الفريق الذى رابط على الجانب الشرقى يدق الطبل ، فلم يجبهم أصحابهم الذين فى الجانب الغربى ، وكشف المؤامرة قبل أن يستفحل خطرها .

وعقب ذلك ، قبض على أحمد بن نصر وأعوانه وسيقوا إلى الواثق فى سامرا قاعدة خلافته . وهناك عقد لهم الخليفة مجلساً للمناظرة ، ولم يكترث لمسألة الشغب الذى أحدثوه وخروجهم على الخلافة ، بل اهتم بمناظره أحمد ابن نصر فى مسألة خلق القرآن ، فقال له : يا أحمد ! ما تقول فى القرآن . قال : كلام الله ، قال : أمخلوق هو ؟ قال : هو كلام الله . قال : فما تقول فى ربك ، أتراه يوم القيامة ؟ قال : يا أمير المؤمنين ! جاءت الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر . فقال الواثق لمن حوله : فما تقولون فيه ! فقال القاضى عبد الرحمن بن اسحق : هو حلال الدم ، وقال غيره : اسقنى دمه يا أمير المؤمنين . ووافقه الحاضرون إلا ابن أبى داؤد قاضى القضاة ، فإنه قال : يا أمير المؤمنين ، كافر يستتاب لعل به عاهة أو تغير عقل . ولكن الواثق دعا بالصمصامة — وهو سيف عمرو بن معدى كرب الزبيدى[1] — وضربه به على عنقه وحز رأسه وحمله إلى بغداد وصلب ، ووضعت فى أذنه رقعة فيها : هذا رأس الكافر المشرك الضال أحمد بن نصر بن مالك ممن قتله الله على يدى عبد الله هارون الإمام الواثق بالله أمير المؤمنين ، بعد أن قام عليه الحجة فى خلق القرآن ، ونفى

(١) عمرو بن معدى كرب الزبيدى : هو ذلك الفارس العربى الذى ذاع صيت سيفه واشتراه الخليفة المهدى العباسى وورثه خلفاؤه .

التشبيه ، وعرض عليه التوبة ، ومكنه من الرجوع إلى الحق فأبى ، والحمد لله الذى عجل به إلى ناره وأليم عقابه[1] .

تقدير الواثق :

كان الواثق يعطف على أهل بيته ، ويتفقد أحوال الرعية ، أفرد فى قصره مكانا للمناظرة والجدل ، ولذا أطلق عليه « المأمون الأصغر » ، وشغف بالوقوف على آراء العلماء ، حتى أنه طلب من حنين بن اسحق أن يؤلف كتابا يذكر فيه الفرق بين الغذاء والدواء ، فأتمه وسماه « كتاب المسائل الطبيعية » ، وعاش فى أيامه الشاعر أبو تمام صاحب ديوان الحماسة ، الذى أجزل الواثق العطاء له ولكثير غيره من الشعراء الذين زخر بهم عصره ، فقد كان الواثق نفسه شاعراً يقول الشعر . ونبغ فى عهده الكندى فيلسوف العرب ، وحنين ابن اسحق فى الطب ، واليعقوبى والبلاذرى وأبو حنيفة الدينورى وهم من فطاحل المؤرخين . وكان الواثق يتقن فن الغناء والموسيقى إتقاناً لم يسبقه إليه خليفة أو ابن خليفة ، وقد وضع بعض الأصوات والأنغام الجديدة . على أنه ينبغى أن نشير إلى أن حكم الواثق كان فترة ركود فى تاريخ العصر العباسى إذ جعل الترك يشعرون بأهميتهم ويتدخلون فى شئون السياسة ، حتى فتح لهم باب التدخل فى آخر مراحل السلطة وهى اختيار الخليفة ، فكانت هذه سابقة جرت الويلات على العباسيين .

حكم الواثق الدولة العباسية أقل من ست سنين ، ولم يول عهده أحدا ، وسئل فى مرض الموت أن يوصى بالخلافة لولده فلم يقبل ، وقال : لا أتحمل أمركم حياً وميتاً ، وتوفى سنة ٢٣٢ ﻫ ، بعد أن أثار خواطر الأهالى : لتمسكه بهذه البدع الدينية . وتوغل العنصر التركى فى الإدارة الحكومية ، وكان ذلك من أقوى عوامل انحطاط الدولة العباسية وسقوطها فى النهاية .

---

(١) الطبرى ج ٢ ص ١٧ — ١٨ .

العصر العباسي الثاني

٢٣٢ — ٦٥٦هـ = ٨٤٧ — ١٢٥٨ م

خلفاء العصر العباسي الثاني :

عدد	السنوات الهجرية	أسماء الخلفاء	السنوات الميلادية
١	٢٣٢	المتوكل	٨٤٧
٢	٢٤٧	المنتصر	٨٦١
٣	٢٤٨	المستعين	٨٦٢
٤	٢٥٢	المعتز	٨٦٦
٥	٢٥٥	المهتدى	٨٦٩
٦	٢٥٦	المعتمد	٨٧٠
٧	٢٧٩	المعتضد	٨٩٢
٨	٢٨٩	المكتفى	٩٠٢
٩	١٩٥	المقتدر	٩٠٨
١٠	٣٢٠	القاهر	٩٣٢
١١	٣٢٢	الراضى	٩٣٤
١٢	٣٢٩	المتقى	٩٤٠
١٣	٣٣٣	المستكفى	٩٤٤
١٤	٣٣٤	المطيع	٩٤٦
١٥	٣٦٣	الطائع	٩٧٤
١٦	٣٨١	القادر	٩٩١

عدد	السنوات الهجرية	أسماء الخلفاء	السنوات الميلادية
١٧	٤٢٢	القائم	١٠٣١
١٨	٤٦٧	المقتدى	١٠٧٤
١٩	٤٨٧	المستظهر	١٠٩٥
٢٠	٥١٢	المسترشد	١١١٨
٢١	٥٢٩	الراشد	١١٣٥
٢٢	٥٣٠	المقتفى	١١٣٦
٢٣	٥٥٥	المستنجد	١١٦٠
٢٤	٥٦٦	المستضىء	١١٧٠
٢٥	٥٧٥	الناصر	١١٨٠
٢٦	٦٢٢	الظاهر	١٢٢٥
٢٧	٦١٣	المستنصر	١٢٢٦
٢٨	٦٤٠ — ٦٥٨	المستعصم	١٢٤٢ -- ١٢٥٨

* * *

يُعد العصر العباسى الثانى فى بغداد والذى يمتد أكثر من أربعة قرون ، عصر ضعف وانحلال ، كان فيه الخلفاء العباسيون تحت سيطرة الأتراك وبنى بويه ثانياً ثم السلاجقة أخيراً . وكان الخلفاء بذلك كالريشة فى مهب الرياح ، يتوقف بقاء كل منهم على العرش حسب رغبة المسيطرين عليهم من الأتراك وسلاطين البويهين والسلاجقة . وكثر التغيير والتبديل فى وظائف الحكومة ، وانتشرت الرشوة فى سبيل الوصول إلى المناصب الكبرى ، وشمل الضعف معظم مظاهر الحياة فى بغداد ، وزال بقيامه سنة ٢٣٢ هـ ، العصر الزاهر فى الدولة العباسية .

الغزنوية ، إلى أن ألبكتكين حين أقصى عن مناصبه الكبرى فى الدولة السامانية عاد إلى غزنة (شمال غرب الهند) حيث خلف أباه فى حكمها ، واستطاع أن يناوىء سادته من سلاطين سامان . وبعد موته خلفه ابنه إسحق ، وكان لإسحق هذا مملوك يدعى سبكتكين آلت إليه السلطة (٣٦٦ — ٣٨٧هـ) : فضرب النقود باسمه ، ومدّ سلطانه فى الشرق حيث أسس دولة حاضرتها بشاور وانتشر نفوذه فى فارس حيث استولى على خراسان ، فمكنه ذلك من الاستيلاء على أجزاء فى الهند بعد حروب طاحنة ، ثم اتسعت رقعة ولايته حتى استمان ابن أسد السامانى بسبكتكين الذى يعتبر أعظم سلاطين الغزنويين . وخلف سبكتكين ابنه محمود الذى ظهرت فيه قوته فجأة ، وغزا الهند اثنتى عشرة مرة ، وضم إلى مملكته بلاد البنجاب وأخضع بلاد ماوراء النهر ، ووالى ضرباته لبنى بويه ، وانتهى الأمر باستيلائه على أصبهان ، وخضعت له خراسان وعين أخاه نصرا على جيوشها فاتخذ نيسابور مركزاً له وخطب للخليفة القادر (٣٨١ — ٤٢٢ هـ) . وبذلك زالت الدولة السامانية من خراسان على يد محمود الغزنوى ، الذى كان أول من اتخذ لقب أمير ، ولقبه الخليفة القادر بالله . يمين الدولة وأمين الملة ، وظهرت هذه الألقاب على السكة التى كانت تظهر باسمه : ومن أهم سلاطين الدولة الغزنوية ابنه مسعود (٤٢١ — ٤٣٢ هـ) ، ثم السلطان مودود بن مسعود (٤٣٢ - ٤٤١ هـ) ، ومن بعده تداعى سلطان الغزنويين فى الهند وانقسمت دولتهم إلى أسرات إسلامية مستقلة .

بذلك نرى أن قيام الدويلات كان شراً مستطيراً على الخلافة العباسية . ولم يعد الأمر مقصوراً على ظهور دويلات تتمتع بجميع مظاهر الاستقلال ، وتقلل من نفوذ الخليفة العباسى وسلطانه ، بل أن الدولة العباسية حرصت على أن تخطب ود الدول القوية التابعة لها . وأكبر دليل على ذلك ، مسألة زواج الخليفة العباسى

وأبا عبد الله بن قبيحة ولقبه المعتز ، وإبراهيم وسماه المؤيد . على أن المتوكل قد رأى أن يقدم ابنه المعتز على أخويه : المؤيد والمنتصر ، فى وراثة العرش ، رغم أحقيتهما عنه ، لتقديره لقبيحة أم المعتز . غضب المنتصر لذلك ، باعتباره صاحب الحق الأول ، ودبر مع الأتراك مؤامرة اغتيل فيها المتوكل .

وصل المنتصر (٢٤٧ — ٢٤٨ هـ) إلى عرش الخلافة ، وعلى الرغم من أنه كان يعطف على الأتراك قبل قتل أبيه ، إلا أنه لم يلبث أن غضب عليهم وصار يسبهم ويقول ; هؤلاء قتلة الخلفاء . ففكروا بدورهم فى قتله ، وأغروا طبيبه ابن طيفور وأعطوه ثلاثين ألف دينار ، فمات مسموما وهو فى السادسة والعشرين من عمره فى ٥ ربيع الآخر سنة ٢٤٨ هـ .

وبموت المنتصر ، بويع المستعين بالله (٢٤٨ — ٢٥٢ هـ) ، لأن العباسيين لم يؤمنوا جانب الأتراك ، فعملوا على تولية الخلافة من يطمئنوا إليه من أمراء البيت العباسى ، فلم يولوا أحداً من أولاد المتوكل . وفيه يقول صاحب الفخرى : « واعلم أن المستعين كان مستضعفا فى رأيه وعقله وتدبيره ، وكانت أيامه كثيرة الفتن ، ودولته شديدة الاضطراب »[1] ، ولما رأى الأتراك تنكر المستعين لهم ، خلعوه .

واعتلى عرش الخلافة من بعده المعتز (٢٥٢ — ٢٥٥ هـ) ابن المتوكل وولد قُبيحة ، وله من العمر تسع عشرة سنة . وأخرج المستعين ، الخليفة المعزول ، إلى بلدة واسط ، واختار الأتراك أحمد بن طولون ليصحبه ، فأحسن إليه وأطلق له الحرية فى التنقل والصيد . وعلى الرغم من ذلك الفوز الذى أحرزه بخلع المستعين

---

(١) ابن طباطبا : الفخرى ص ٢٢٠ .

ونفيه ، فإنهم أوجسوا شرا من بقائه حيا ، وأوعزوا إلى المعتز أن خلافته لن تثبت إلا إذا قتل المستعين ، ووافقتهم على ذلك قَبيحة أم المعتز فقد خافت على حياة ولدها أن تمتد إليها يد الأعداء. فكتبوا إلى ابن طولون يطلبون إليه قتل المستعين ويمنونه بولاية واسط ، فلم يرض ابن طولون أن يقتل خليفة له فى رقبته بيعة لذلك أرسلوا سعيدا الخادم أحد حجاب القصر ، فى شرذمة من الجيش إلى بلدة واسط ، فتولى بنفسه قتل المستعين[1] .

وليس أدل على مدى تغلغل الأتراك فى أمور الدولة وتسلطهم على حياة الخلفاء أنفسهم ، من هذه العبارة : « لما جلس المعتز على سرير الخلافة ، قعد خواصه وأحضروا المنجمين، وقالوا لهم : أنظروا كم يعيش وكم يبقى فى الخلافة ، وكان بالمجلس بعض الظرفاء فقال : أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته فقالوا : كم تقول إنه يعيش وكم يملك ؟ قال : ما أراد الأتراك ، فلم يبق بالمجلس إلا من ضحك » .

وما لبث الأتراك أن قبضوا على الخليفة المعتز وقتلوه . ويصف ابن الأثير قتل الخليفة فى هذه العبارة : « فدخل جماعة منهم ، فجروه برجله إلى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس ، وخرقوا قميصه وأقاموه فى الشمس فى الدار ، فكان يرفع رجلا ويضع أخرى لشدة الحر ، وكان بعضهم يلطمه وهو يتقى بيده وأدخلوه حجرة وأحضروا ابن أبى الشوارب وجماعة أشهدوهم على خلعه ، وشهدوا على صالح بن وصيف أن للمعتز وأمه وولده وأخته الأمان ، وكانت أمه قبيحة قد اتخذت فى دارها سردابا فخرجت منه هى وأخت المعتز ، وكانوا قد أخذوا عليها الطريق ومنعوا أحدا يجوز إليها . وسلموا المعتز إلى مَنْ يعذبه ، فمنعه الطعام والشراب ثلاثة أيام

(١) على إبراهيم حسن : نساء لهن فى التاريخ الإسلامى نصيب ص ٩٣ ـ ٩٥ .

فطلب حسوة[1] من ماء البئر فمنعوه ، ثم أدخلوه سردابا وجصصوا[2] عليه ، فمات »[3] .

اختفت قبيحة بعد موت ابنها المعتز خوفا على حياتها من شر صالح بن وصيف وأخفت ما عندها من المال وقدره ١٫٨٠٠٫٠٠٠ دينار ، عدا كثير من الجواهر والحلى والزمرد واللؤلؤ والياقوت الذى لاتعرف له قيمة . ومن الغريب أنها عرضت ابنها للقتل ، ورفضت أن تدفع للثائرين من الأتراك الذين تأخرت رواتبهم خمسين ألف دينار[4] . وقد رثى الشعراء ، المعتز ، بقصائد تبين مدى تغلغل نفوذ الأتراك فى الدولة العباسية وانتهاكهم حرمة الخلافة ، ومن ذلك :

قتلوه ظلما وجوراً فألفو ... ه كريم الأخلاق غير جزوع
أصبح الترك مالكى الأمر وال ... عالم ما بين سامع ومطيع
وترى الله فيهم مالك الأمو ... ر سيجزيهم بقتل ذريع

الخليفة ألعوبة فى أيدى الأتراك :

بعد وفاة المعتز ، ولى المهتدى (٢٥٥ — ٢٥٦ ﻫ) بن الواثق الخلافة ، وكان من أحسن الخلفاء سيرة وأظهرهم ورعا وأكثرهم عبادة . وكان يتشبه بعمر ابن عبد العزيز ويقول : « إنى استحى أن يكون فى بنى أمية مثله ، ولا يكون مثله فى بنى العباس » . وكان يجلس للمظالم . فيحكم بين الناس بالقسطاس المستقيم . وكان كغيره من الخلفاء الذين جاءوا بعد المتوكل ألعوبة فى يد الأتراك.

---

(١) حسوة : جرعة .
(٢) جصصوا عليه : جعلوه فى بيت وسدوا بابه .
(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٦٨ — ٦٩ .
(٤) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ٣٢ — ٣٣ .

وليس أدل على ما وصل إليه الخليفة من ضعف وما بلغته الخلافة من انحلال ما ذكر عن أن المهتدى «رفع يده إلى السماء ، ثم قال : اللهم إنى أبرأ إليك من فعل موسى بن بغا .. اللهم تول كيد من كايد المسلمين . . . » . وسرعان ما اجتمعت كلمة الأتراك على قتله ، وعلى أثر ذلك ، قام بعض الموالى بثورة ضده ثم أسروه وخلعوه من الخلافة ، ولم يكتفوا بذلك ، بل عذبوه حتى مات .

ويتمثل ضعف الخلافة العباسية المطلق فى العصر الثانى ، فى خلافة المعتمد على الله (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ) بن المتوكل . وفى عهده غلب عليه أخوه الموفق ، حتى لم يبق له من الخلافة إلا اسمها . يقول صاحب الفخرى : « كان المعتمد مستضعفا ، وكان أخوه الموفق طلحة هو الغالب على أموره . وكانت دولة المعتمد دولة عجيبة الوضع ، كان هو وأخوه الموفق طلحة كالشريكين فى الخلافة ، ولأخيه طلحة الأمر والنهى وقيادة العساكر ومحاربة الأعداء ومرابطة الثغور وترتيب الوزراء والأمراء »[1] .

تقسيم أملاك الدولة :

صار الموفق صاحب الأمر والنهى فى بغداد ، إذ كان الموفق لا يرى أخاه المعتمد أهلا للخلافة . وزاد حقد الموفق على المعتمد تقديمه ابنه المفوض عليه فى ولاية العهد ، وقسم الخليفة المعتمد أملاك الدولة بينه وبين ابنه المفوض وأخيه الموفق : على أن يخص المفوض الأملاك الشرقية وتضم إليه البصرة والكوفة ، ويخص الموفق الأملاك الباقية وهى القسم الغربى من الدولة العباسية . ووضع المعتمد تلك الشروط فى الكوفة ، ونص فيها على أنه إذا حدث فى القسم الخاص بأحدهما ما يستدعى إنفاق شىء من المال ، فإن نفقته تكون من مال خراج

(١) ابن طباطبا : الفخرى ص ٢٢٦ .

ذلك القسم ، وكانت مصر من القسم الذى يشرف عليه المفوض ابن الخليفة[١] .

ولما بدأ الموفق قتاله مع صاحب الزنج[٢] ، وطلب إلى ابن طولون الأموال التى يستعين بها فى قتاله ، أرسلها إليه ابن طولون على أساس أنها تساعد على صيانة الدولة العباسية وتحافظ على كيانها ، ولكن حين استلم الموفق المبلغ المرسل إليه ، كتب إليه ابن طولون ينبهه إلى أنه ليس تابعا له وأن مصر ليست من القسم الذى يشرف عليه أو يحق له جباية الأموال منها وأنه لم يرسل تلك الأموال تلبية لطلبه أو تنفيذا لأمره بل ليبعد الخطر الذى يهدد سلامة الدولة العباسية . ومن هنا اشتد العداء بين الموفق وابن طولون[٣] ، حتى كانت مهمة الموفق اقصاءه عن ولاية مصر ، ولكنه فشل فى كل محاولاته ضده .

الخليفة يستنجد بطولون :

اتجه الموفق ناحية الخليفة المعتمد وضيق عليه ، وغل يده عن كثير من أعمال الدولة ، دون أن يترك له شيئا من حرية التصرف . ذلك أن حال الخليفة المعتمد باتت من الضعف حدا لا يمكن تصوره ، حتى قيل إنه احتاج مرة إلى ثلثمائة دينار فلم يجدها ، فقال :

---

(١) على إبراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ص ٢٠٦ — ٢٠٧ .

(٢) الزنج : هم طائفة من عبيد إفريقية ، أثاروا الرعب والفزع فى حاضرة الخلافة العباسية ، وهددوا كيان الدول . وكان مسرح هذه الثورة العنيفة فى المستنقعات الممتدة بين البصرة وواسط ، قاد هؤلاء الزنوج رجل فارسى يدعى على بن محمد ، ادعى أنه من ولد على زين العابدين بن الحسين بن على ، ولكنه لم يجهر بعقائد المذهب الشيعى على الرغم من إدعائه النسب إلى على وفاطمة ، ولكنه جهر بعقائد مذهب الخوارج الذين جعلوا الخلافة أمرا مشاعا بين المسلمين الأحرار والأرقاء على السواء . قدم صاحب الزنج العراق ودعا إلى تحرير العبيد فى البصرة وضواحيها واستمال قلوبهم حتى أنهم تركوا واليهم وانضموا إليه ، فعظم شأنه وقويت شوكته ولقيت دعوته قبولا ، ثم سار إلى بغداد سنة ٢٥٤ هـ ، فعهد الخليفة المعتمد إلى أخيه الموفق بقتالهم .

(٣) ابن الداية : سيرة ابن طولون ص ٤٠ و ٤١ .

أليس من العجائب أن مثلي   يرى ماقلّ ممتنعا لديه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا   وما ذاك شيء في يديه
إليه تحمل الأموال طرا   ويمنع بعض مايجبى إليه ؟

شكا المعتمد حاله إلى ابن طولون ، فرد عليه بكتاب يشير فيه عليه بالحضور إلى مصر . وارتاح الخليفة إلى فكرة ابن طولون ، وكتب إليه يخبره بعزمه على المسيرة إلى مصر . وانتهز المعتمد فرصة غياب أخيه الموفق وانشغاله بحرب صاحب الزنج ، وخرج من سامرا ، واستقر فى الرقة سنة ٢٦٩ هـ . وما لبث الموفق أن علم بمسير الخليفة إلى مصر ، فعمل على إحباط المشروع ، وعهد بذلك إلى ابن كنداج ، عامله على الموصل والجزيرة . . وفى الرقة كثر الجدل بين أتباع كل من الخليفة وابن كنداج على النتائج التى تترتب على تنفيذ المشروع الذى اعتزمه الخليفة . وبعد أن اشتد النقاش ، أمر ابن كنداج بالقبض على كل من حضر مع المعتمد من سامرا ، وعنف الخليفة بشدة على ترك ملكه وفراقه أخاه وهو منشغل بحرب صاحب الزنج والاحتماء بأحد ولاة الدولة العباسية وهو ابن طولون ، ثم أمر بأن يكبل كل من الخليفة وأتباعه بالقيود ويعودوا من حيث أتوا .

فشلت بذلك محاولة الخليفة الاستقرار فى مصر ، وأحبط مشروع ابن طولون وهو نقل مقر الخلافة إلى الديار المصرية ، وما يتبع ذلك من تقوية مركزه الدولى ورفع شأن مصر بين الأمم . واستاء ابن طولون من عمل الموفق وعامله على البصرة ، فأرسل إلى أهل مصر كتابا قرىء عليهم وفيه « أن أبا أحمد (يقصد الموفق) نكث بيعة المعتمد وأسره وحرّش عليه وأنه يبكى بكاء شديداً »[1] .

وخطب الخطيب بمصر يوم الجمعة ، فذكر ما آل عليه أمر المعتمد وقال: اللهم

(١) الكندى : كتاب القضاة ص ٢٢٦ .

فأكفه من حصره ومن ظلمه » وبعد موت ابن طولون سنة ٢٧٠ هـ ، تحسنت العلاقات بين الموفق أخى الخليفة المعتمد وبين خمارويه بن أحمد بن طولون ، وأصبح خمارويه بموافقة الخليفة العباسى واليا على مصر والشام هو وأولاده من بعده مدة ثلاثين سنة . ومات الموفق وابن كنداج سنة ٢٧٨ هـ ، وتوفى الخليفة المعتمد بعدهما سنة ٢٧٩ هـ ، بعد أن بقى فى الخلافة ثلاثا وعشرين سنة ، وكان عهده عهد فتن واضطرابات ، وأيامه أيام محن وخطوب ، رغم ازدهار عصره بطائفة من العلماء كالبخارى ومسلم ومحمد بن عبد الحكم المؤرخ المصرى والقاضى بكار .

ازدياد خطر التجزؤ :

زاد حالة الخلافة العباسية سوءا ، أن نفوذ الدولة قد تقلص عن جزء كبير من ولاياتها ، مما فت فى عضدها ، وعد استمراراً لظاهرة التجزؤ ، التى انتابت الخلافة ، إذ استقل عن الدولة العباسية قبل ذلك العهد : الدولة الأموية بالأندلس (١٣٨ — ١٩٧ هـ) زمن عبد الرحمن الأول الملقب بالناصر ، وتأسست دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى (١٧٢ — ٣١١ هـ) ودولة الأغالبة فى تونس (١٨٤ — ٢٩٦ هـ) وفى مصر كانت السيادة للطولونيين (٢٥٤ — ٢٩٢ هـ) .

وقام فى المشرق فى بلاد الفرس وبلاد ماوراء النهر عدة دويلات يرجع قيامها إلى انتعاش الروح القومية التى ظهرت منذ أيام المأمون ، فقد قامت الدولة الطاهرية (٢٠٥ — ٢٥٩ هـ) فى خراسان على يد طاهر بن الحسين فى عهد المأمون ولكنها كانت تعترف بسلطان الخليفة العباسى وامتد نفوذهم إلى بلاد الهند ونقلوا قاعدتهم إلى نيسابور حيث بقوا بها حتى سنة ٢٥٩ هـ . ومنها انتقلت السلطة إلى أسرة جديدة هى الدولة الصفارية (٢٥٤ — ٢٩٠ هـ) التى قامت على يد يعقوب بن الليث الصفار ، والدولة السامانية (٢٦٦ — ٣٨٩ هـ) على

يد نصر أحمد بن السامانى فى بلاد ماوراء النهر ، وتفرعت عنها الدولة الغزنوية (٣٦٦ - ٥٧٩ هـ) لأن ألبتكين مؤسس هذه الدولة كان من بين الموالى الأتراك الذين استخدموا فى البلاط السامانى . وتفاقم خطر هذه الدويلات ، فقويت شوكة بنى بويه (٣٣٤ - ٤٤٧ هـ) وكانوا من الشيعة الغلاة ، وامتد شرهم إلى حياة الخلفاء العباسيين أنفسهم الذين أصبحوا من الضعف ، بحيث لم يعد الخليفة قادرا على الدفاع عن بغداد نفسها ، وبعد أن كانت بغداد مركز الحضارة فى العالم الإسلامى ، ظهرت مراكز أخرى تنافس حاضرة العباسيين ، مثل قرطبة والقاهرة وبخارى ، وأصبح كل منها قبلة العلماء والأدباء والشعراء.[1] تلك كانت حالة الخلافة العباسية فى العصر الثانى .

على أن عهد المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ) يتميز بخروج عمرو بن الليث الصفار ، أحد زعماء الصفارية واستيلائه على كثير من بلاد الفرس . فقد تمكن يعقوب مؤسس الأسرة الصفارية من الاستحواذ على ولاية خراسان وبلاد فارس وشرطتى بغداد وسر من رأى وعقد له على كرمان وسجستان والسند وطبرستان وجرجا والرى وأذربيجان وقزوين ، وذلك بموافقة الخليفة العباسى ، ولم يكتف يعقوب بذلك بل قصد بغداد نفسها ولكنه هزم فى سنة ٢٦٢ هـ . فى خلافة المعتمد . وبوفاته سنة ٢٦٥ هـ ، أقر الخليفة المعتمد عمر بن الليث على ما كان يتولاه أخوه يعقوب من البلاد . ولكن العلاقات لم تلبث أن ساءت بين الدولة الصفارية والخلافة العباسية ، وعزل المعتمد عمرو بن الليث الصفار عن البلاد التى ولاه إياها ، وقلد محمد بن طاهر بن الحسين بلاد خراسان وأمر بلعن عمرو على المنابر . ولكن محمد بن طاهر آثر البقاء فى حاضرة الخلافة وأناب عنه رافع بن هرثمة على خراسان . ولما ولى الخلافة المعتمد ، عزل رافع وأعاد عمرو بن الليث الصفار إلى

---

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ١٤١ — ١٤٢ .

ولاية خراسان. ولم يكتف بذلك بل طلب من الخليفة ولاية ماوراء النهر وكانت تحت إمرة إسماعيل بن أحمد السامانى، فرفض إسماعيل تسليمها له وحاربه وأسره وشتت شمل جيشه. وكانت هذه الموقعة من المواقع الحاسمة، فقد كانت عاملا هاما فى سقوط الدولة الصفارية وقيام الدولة السامانية على أنقاضها سنة ٢٨٧ هـ[1].

وبذلك يكون مؤسس الدولة السامانية فى بلاد ماوراء النهر، نصر بن أحمد السامانى قد خرج كذلك على المعتضد. وتنسب هذه الدولة إلى أسرة فارسية عريقة فى المجد، ونال السامانيون حظوة كبيرة عند الخليفة المأمون، فولاهم بلاد ماوراء النهر ورفع من شأنهم. وكان لأحمد سبعة أولاد، واشتهر منهم نصر بن أحمد بن أسد بن سامان وإسماعيل بن أحمد بن أسد بن سامان. وفى عهد إسماعيل ظهرت الدولة السامانية بمظهر القوة، وقامت بدور خطير فى إزالة الدولة الصفارية، وقضى على هذه الدولة سنة ٣٤٣ هـ على أيدى الغزنويين وخانات تركستان، رغم ما كان لأمراء السامانيين من فضل كبير فى تشجيع العلم والأدب وبخاصة الأدب الفارسى، من ذلك: كتاب الشاهناه للفردوسى، والكتاب المنصورى الذى ألفه أبو بكر الرازى وهو من أشهر كتب الطب فى ذلك العصر وقد أهداه إلى أبى صالح منصور بن إسحاق السامانى الذى ولى سجستان نيابة عن السامانيين. وقد روى ابن سيناء الفيلسوف المشهور أنه رأى فى مكتبة مدينة بخارى حاضرة الدولة السامانية من طرائف الكتب مالم يسمع بمثله من قبل.

وكان ضعف الخلافة العباسية فى بغداد من عوامل ظهور الدولة الغزنوية (٣٥١ – ٥٨٢ هـ = ٩٦٢ – ١١٣٦ م) فى بلاد الأفغان والبنجاب، وذلك على النحو الذى ظهرت به الدولة الصفارية فى خراسان والدولة الصفارية فى خراسان والدولة السامانية فى بلاد ماوراء النهر.

---

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حـ ٧ ص ١٧٨ – ١٧٩.
Browne: Lit. Hist. of Persia, Vol. I. p. 345.

عهد سيطرة الأتراك

الخلافة العباسية منذ وفاة الواثق إلى أن استولى بنو بويه على بغداد .

٢٣٢ – ٣٣٤هـ = ٨٤٧ – ٩٤٦ م

كان الخليفة فى هذه الفترة من العصر العباسى الثانى ، كالأسير فى يد الأتراك إن شاءوا أبقوه أو خلعوه أو قتلوه ولذلك كان الخلفاء العباسيون ضعافا ليس لهم نفوذ ولا سلطان ، ويتوقف بقاؤهم فى الخلافة على مقدار رضا الأتراك عنهم وكانت عهود الخلفاء فى تلك الفترة عهود فتن وقلاقل واضطرابات .

تدخل النساء فى أمور الدولة :

وقد ترك النساء يتدخلن فى أمور الدولة ويصرفن شئونها ، وكانوا يرجعون إلى أقوالهن ويأخذون بآرائهن ، ومن نساء العصر العباسى الثانى ، من كانت لهن السطوة على أولادهن من الخلفاء ، حتى كن يشرفن على شئون الدولة ويشركن فى تدبير أمور الحكم ، وكان لهن أكبر الأثر فى سير الحوادث فى بغداد .

كان الخليفة العباسى المتوكل (٢٣٢ – ٢٤٧ هـ) مدمنا على شرب الخمر ، أهداه ابن طاهر هدية فيها مائتا وصيفة ووصيف ، وفى الهدية جارية يقال لها محبوبة ، كانت لرجل من أهل الطائف ، وقد أدبها وثقفها وعلمها مختلف صنوف العلم ، فحلت من قلب المتوكل فى أسمى مكان . ولم يكن أحد يعدلها عنده ، وأعجب بها وتزوجها ، وأطلق عليها « قُبيحة » لحسنها وجمالها ، كما كان يسمى الأسود كافوراً . وفى سنة ٢٣٥ هـ ولىّ المتوكل العهد أولاده : محمداً وسماه المنتصر ،

المعتضد من قطر الندى ابنة خمارويه بن أحمد بن طولون والى مصر مع أن مصر لم تعد فى ذلك أن تكون ولاية من الولايات التابعة لها .

وتفصيل ذلك أن العلاقات بين الطولونيين والعباسيين كانت عدائية ، على أثر ذلك الخلاف الذى قام بين أحمد بن طولون والموفق طلحة أخى الخليفة المعتمد ، مما سبب قيام الحرب فى بدء ولاية خمارويه على مصر بينه وبين الموفق، وانتهت بانتصار خمارويه وعقد الصلح بينهما . ولكن على أثر وفاة الموفق سنة ٢٧٨ھ ثم الخليفة المعتمد سنة ٢٧٩ ھ ، أصبحت العلاقات ودية بين الطولونيين والعباسيين ، حتى أن الخليفة العباسى المعتضد أقر خمارويه على ولاية البلاد الممتدة بين العراق شرقا وبرقة غربا مدة ثلاثين سنة ، ولأولاده من بعده ، ابتداء من سنة ٢٨٩ ھ . وكان من أثر سياسة حسن التفاهم « أن رسول الخليفة قدم على خمارويه يحمل إليه إثنتى عشرة خلعة وسيفا وتاجا ووشاحا »[1] وعرض خمارويه زواج أسماء التى تعرف باسم « قطر الندى » من ابن الخليفة العباسى ، ولكن الخليفة للمعتضد اختارها لنفسه ، وبذل خمارويه الأموال الطائلة فى تجهيز ابنته إلى الخليفة ، وغالى فى ذلك الجهاز . وبعد إعداد الجهاز ، خرجت قطر الندى من القطائع قاصدة بغداد ، وبلغ الموكب شاطىء بغداد فى أول المحرم سنة ٢٨٢ ھ ، وشهدت بغداد أياما كلها حبور وسرور ، وسارت السفن تمخر عباب نهر دجلة ، وأخذت بغداد زخرفها وازينت ، وجليت قطر الندى على عروسها فى يوم الثلاثاء ٥ ربيع الآخر من ذلك العام . ولم تطل حياتها ، فقد توفيت بعد قليل من زواجها ولحق بها الخليفة المعتضد عام ٢٨٩ ھ[2] .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٧٨

(٢) على إبراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ص ٧٢ — ٧٣ .

واعتلى المكتفى (٢٨٩ — ٢٩٥ هـ) عرش الخلافة العباسية . وفى عهده ظهر ضعف الخلافة العباسية بجلاء ، وزادت ظاهرة اقتطاع أجزاء من أراضى الدولة العباسية : فقد أصبح السامانيون أصحاب النفوذ المطلق فى فارس ، وتفاقم شر القرامطة حول بغداد والبصرة وفى سورية واليمن بزعامة زكروية ، وألقوا الرعب والفزع فى قلوب الأهلين . وكان الخليفة مبذرا كثير البذل والإنفاق . وكان اعتلاؤه العرش إيذاناً بزوال سلطان الطولونيين عن مصر ، فقد بعث قائده المشهور محمد بن سليمان الكاتب لاسترداد مصر ، فنزل الفسطاط وسار منها إلى القطائع عاصمة الطولونيين سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٤ م) ، وأشعل فيها النار فالتهمت الدور والمساجد والحمامات والأسواق والبساتين ، وأصبحت تلك المدينة أثراً بعد عين .

ويصف المقريزى فى « الخطط » كيف أزال محمد بن سليمان معالم الطولونيين فى القطائع وما ارتكبوه فيها وفى الفسطاط من الفظائع ، فى هذه العبارة : « دخل محمد بن سليمان يوم الخميس أول ربيع الأول ، فألقى النار فى القطائع ونهب أصحابه الفسطاط وكسروا السجون وأخرجوا من فيها وهاجموا الدور وهتكوا الرعية . . . وسائوا النساء وفعلوا كل قبيح من إخراج الناس من دورهم وغير ذلك . وأخرج ولد أحمد بن طولون وهم عشرون إنساناً وأخرج قوادهم ، فلم يبق منهم أحد يذكر ، وخلت منهم الديار وعفت منهم الآثار وتعطلت منهم المنازل وحل بهم الذل بعد العز والتطريد والتشريد بعد اجتماع الشمل ونضرة الملك ومساعدة الأيام ، ثم سيق أصحاب شيبان إلى محمد بن سليمان وهو راكب ، فذبحوا بين يديه كما تذبح الشاة ، وقتل من السودان سكان القطائع خلقاً كثيراً »[1] . وتقلد محمد بن سليمان عقب ذلك ولاية مصر مكافأة له على ما يفعله من جهود فى سبيل إعادة مصر إلى سيطرة العباسيين المطلقة .

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٢٢ .

ظهور أم المقتدر على المسرح السياسي :

وقد أدى تدخل النساء فى أمور الدولة فى العصر العباسى إلى ضعفها وحرمانها من وزرائها الأكفاء واستهتار العامة بها ، ووضحت تلك الظاهرة فى عهد الخليفة المقتدر (٢٩٥ – ٣٢٠ هـ) حين أصبح الأمر والنهى بيد أمه ، وكانت تسمى « السيدة » وهى سيدة رومية ، بلغ من ازدياد نفوذها أنها كانت إذا غضبت هى أو قهرماناتها[1] من أحد الوزراء أصبح مصيره العزل لامحالة .

وليس هذا كل هذا ما كانت تتمتع به السيدة من نفوذ ، فقد اتسعت سلطتها إلى حد أنها استطاعت أن تعين فى ٣٠٦هـ قهرمانتها « ثومال » صاحبة للمظالم ، وبذلك تعدى الأمر جلوس الوزراء للمظالم إلى جلوس بعض النساء ، إذ كانت ثومال تجلس فى الرصافة وتنظر فى رقاع الناس كل جمعة وتحضر القضاة والأعيان وتبرز التواقع وعليها خطها ، وكان من أثر هذا التعيين أن استهتر العامة بالخلافة ونظروا إلى أحكامها نظرة احتقار وازدراء . ولم تكن محكمة المظالم تنظر فى قضايا الأفراد وحدها ، بل تعدى اختصاصها إلى الفصل فى شكاوى الشعب عامة .

وفى ذلك يقول الفخرى : « واعلم أن دولة المقتدر كانت دولة ذات تخليط كثير لصغر سنه ، ولاستيلاء نسائه عليه فكانت دولة تدور أمورها على تدبير النساء ، نخربت الدنيا فى أيامه وخلت بيوت الأموال ، واختلفت الكلمة ، فخلع ، ثم أعيد ثم قتل[2] .

---

(١) القهرمانة : المسيطرة على من تحت يدها .
(٢) ابن طباطبا : الفخرى ص ٢٤٠ .

واستأثرت السيدة أم المقتدر بنفوذ كبير فى الدولة العباسية . وليس أدل على عظم نفوذها وتدخلها فى شئون الدولة وتمتعها بنفوذ أقوى من نفوذ الخليفة ، من ذلك الكتاب الذى بعث به إليها الوزير المصلح على بن عيسى ، يتنصل فيه من التصرفات التى نسبتها إليه فى إدارة شئون الدولة المالية ، وكان مصير هذا الوزير العزل رغم ما قام من إصلاح .

وفى ذلك يقول ابن الأثير : « ولما كان آخر ذى القعدة سنة ٣٠٤ ، جاءته أم موسى القهرمانة لتتفق معه على إصلاح ما يحتاج إليه حرم الدار والحاشية من الكسوات والنفقات ؛ فوصلت إليه وهو نائم ؛ فقال لها حاجبه : إنه نائم ولا أجسر أن أوقظه ، فاجلسى فى الدار ساعة حتى يستيقظ ، فغضبت من هذا وعادت ، واستيقظ على بن عيسى فى الحال ، فأرسل إليها حاجبه وولده يعتذر ، فلم تقبل منه ، ودخلت على المقتدر وتخرصت[1] على الوزير عنده وعند أمه ، فعزله عن الوزارة وقبض عليه ثامن ذى الحجة[2] .

وكذلك عملت السيدة على عزل الوزير أبى العباس أحمد بن عبدالله بن أحمد ابن الخصيب ، وصودرت أمواله سنة ٣١٤هـ ، وفى عهد الوزير حامد بن العباس ازداد نفوذ السيدة على حين كان الخليفة قابعا فى داره[3] .

وقد قص الصولى الذى تتلمذ عليه الراضى بن المقتدر وهو أمير ، قصة تبين لنا عدم اهتمام السيدة وقهرماناتها بتنشئة الأمراء تنشئة قوامها التوافر عن العلم وتوجيههم وجهة صالحة فى الإلمام بنظم الحكم والوقوف على أحوال الدولة وعلاقاتها بغيرها من الدول ، بل على العكس من ذلك لم يأبهن أن يكون الأمير أو ولى العهد متعلماً مثقفاً ، إنما يرونه ضعيفاً غير ملم بشئون الحكم[4] .

---

(١) تخرصت : كذبت .

(٢) الكامل فى التاريخ ج ٨ ص ٣٧ .

(٣) حسن إبراهيم حسن وعلى إبراهيم حسن : النظم الإسلامية ص ١٦٠ .

(٤) على ابراهيم حسن : نساء لهن فى التاريخ الإسلامى نصيب .

وفى ذلك يقول الصولى : « وإنى لأذكر يوما فى إمارته وهو يقرأ على شيئا من شعره بشأنه ، وبين يديه كتب لغة وكتب وأخبار ، إذ جاء خادم من خدم جدته السيدة ، فأخذ جميع ما بين يديه من الكتب ، فجعلوه فى منديل كان معهم وما كلمونا بشيء ومضوا ، فرأيته قد وجم لذلك واغتاظ . . . ومضت ساعات أو نحو ذلك ، ثم ردوا الكتب بحالها . . . وقالت السيدة ما نريد أن يكون أولادنا أدباء ولا علماء ، وهذا أبوهم قد رأينا كل ما نحب فيه وليس بعالم فاعمل على ذلك . . . »[1] .

ازدياد شوكة الأتراك :

فى عهد الخليفة المقتدر أيضاً . بدأت ظاهرة جديدة فى العصر العباسى ، هى كثرة تولية كبار الموظفين وعزلهم ، حتى قيل إنه عيّن فى يوم واحد تسعة عشر ناظرا للكوفة ، وأخذ من كل واحد منهم رشوة . وساءت الأحوال فى عهد المقتدر واضطربت أمور الدولة من جراء السياسة التى اتبعها فى تعيين وزرائه وعزلهم ، فقد ولى الوزارة فى عهده إثنى عشر وزيرا ، وكان لكل وزير أتباع ومحاسيب يرتفع ذكرهم وتتحسن أحوالهم بتولية الوزارة ، فإذا ما عزل عزلوا .

وبرغم ما عرف به المقتدر من الضعف وما كانت عليه الخلافة من تفكك ووهن ، فقد ظهرت الدولة العباسية فى عهده بمظهر القوة حين علم أن رسول إمبراطور الروم فى طريقه إلى بغداد لطلب الهدنة وتبادل الأسرى . فقد أنشأ لذلك داراً لاستقبال رسول الإمبراطور ، عرفت بدار الشجرة ، وفيها قيل إنها « فرشت بالفروش الجميلة ، وزينت بالآيات الجليلة ، ورتب الحجاب وخلفاؤهم والحواشى على طبقاتهم ، على أبوابها ودهاليزها وممراتها ومخترقاتها وصحونها ومجالسها ،

---

(١) الصولى : الأوراق ص ٢٤ — ٢٥ .

ووقف الجند صفين بالثياب الحسنة وتحتهم الدواب بمراكب الذهب والفضة، وبين أيديهم الجنائب على مثل هذه الصورة»[١] . ووصف السيوطى احتفال الخليفة بالإمبراطور ، فقال : « وفى سنة ٣٠٥ هـ قدمت رسل ملك الروم بهدايا وطلبت عقد هدنة ، فعمل المقتدر موكبا عظيما ، فأقام العسكر وصفهم بالسلاح وهم مائةوستون ألفا . . وبعدهم الخدام وهم سبعة آلاف خادم ، ويليهم الحجاب وهم سبعمائة حاجب . وكانت الستور التى نصبت على حيطان دار الخلافة ثمانية ألف ستر من الديباج ، والبسط إثنين وعشرين ألفا ، وفى الحضرة مائة سبع فى السلال . . . »[٢] . ووصف صاحب تاريخ بغداد استقبال الخليفة للإمبراطور فقال : « ووصلوا إلى حضرة المقتدر بالله وهو جالس فى التاج مما يلى دجلة ، أن لبس بالثياب الدبيقية[٣] المطرزة بالذهب على سرير آبنوس قد فرش بالدبيقى المطرز بالذهب ، وعلى رأسه الطويلة ، ومن يمنة السرير تسعة عقود مثل السبح معلقة ، ومن يسرته تسعة أخرى من أفخر الجواهر وأعظمها قيمة غالبة الضوء على ضوء النهار ، وبين يديه خمسة من ولده : ثلاثة يمنة وإثنان يسرة . ومثل الرسول وترجمانه بين يدى المقتدر بالله . . . ووقفا ساعة ... وناوله المقتدر بالله من يده جواب ملك الروم ، وكان ضخما كبيرا ، فتناوله وقبله إعظاما له » . على أن المقتدر بعد أن أجاب رسول ملك الروم إلى ماطلب « سير مؤنسا الخادم ليحضر الفداء ، وجعله أميرا على كل بلد يدخل يتصرف فيه على مايريد إلى أن يخرج عنه ، وسير معه جمعا من الجنود وأطلق لهم أرزاقا واسعة ، وانفذ معه مائة وعشرين ألف دينار لفداء أسارى المسلمين ، وسار مؤنس والرسول ، وكان الفداء على يد مؤنس » .

---

(١) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ج ١ ص ١٠٠ .

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٥٣ .

(٣) الدبيقية : نسبة إلى دبيق ، بلدة فى مصر .

ومما يدل على مدى اضطراب الدولة العباسية فى عهد المقتدر ، أن مؤنسا الخادم أحد القواد خرج على الخليفة فى سنة ٣١٧ هـ ، وبايع هو وغيره من الأمراء محمد بن المعتضد بالخلافة ولقبوه « القاهر بالله » ، وطلب الجند أرزاقهم فى الوقت الذى قامت فيه الاحتفالات بتقليد الخليفة الجديد الخلافة وحملوا المقتدر على أعناقهم وردوه إلى دار الخلافة ، وعزلوا القاهر ، فأخذ يبكى ويقول : « الله الله فى نفسى » ، فاستدعاه المقتدر وقبله وقال له « يا أخى ! أنت والله لاذنب لك ، والله لاجرى عليك منى سوء أبداً »[1] غير أنه لم يمض على عودته إلا قليلا حتى خرج عليه مؤنس مرة ثانية (سنة ٣٢٠ هـ) وحاربه بجنده من البربر ، وانتهى الأمر بقتل الخليفة . ودفن فى الموضع الذى مات فيه فى شوال سنة ٣٢٠ هـ .

ولى الخلافة من بعده ، أخوه « القاهر بالله » (٣٢٠ — ٣٢٢ هـ) . وفى عهده انتشرت الفتن ، وشغب عليه الجند . وعول كبار رجال دولته وقائده مؤنس ووزيره ابن مقلة على خلعه ، فهجموا عليه وقتلوه ، ثم حبس إلى أن مات فى جمادى الأولى سنة ٣٣٩ هـ .

وفى عهد الراضى (٣٢٢ — ٣٢٩ هـ) ازداد ضعف الخلافة العباسية ، بسبب ازدياد شوكة على بن بويه فى فارس والحسن بن بويه فى الرى وأصبهان ، واستقل بنو حمدان بالموصل وديار بكر وديار ربيعة ومضر ، واستقل الإخشيد بمصر والشام ، واستقل نصر بن أحمد السامانى ، بخراسان ، وتلقب عبد الرحمن الثالث الأموى (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) بالأندلس بلقب أمير المؤمنين ، وأصبح فى العالم الإسلامى ثلاث خلافات : العباسية فى بغداد ، والفاطمية فى بلاد المغرب ، والأموية فى الأندلس .

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٥٤ .

وأهم ما يتميز به عهد الراضى ، أن علاقة الإخشيد بالخليفة العباسى ظلت ودية ، وأصبحت مصر تعترف فى الخطبة بسيادة العباسيين عليها. ولكن تبدلت صلة الوفاق التى سادت بين الإخشيد والخليفة العباسى ، بمسير رجل من رجال الدولة العباسية يدعى محمد بن رائق الخرزى إلى الشام يريد أخذ مصر. فأثار هذا العمل حنق الإخشيد حتى ألغى الدعاء للخليفة العباسى فى خطبة الجمعة ، وأمر بذكر اسم الخليفة القائم الفاطمى مكانه وفى رمضان سنة ٣٢٨هـ . وقعت الحرب بين الإخشيد وابن رائق ، فبعث ابن طغج بأحد رجاله ويدعى عمران بن فارس على رأس جيش كبير إلى بلاد الشام لملاقاته ، ورغم ذلك استولى ابن رائق على دمشق بعد أن هزم واليها عبد الله بن طغج ، واستولى على حمص وحلب ودخل الرملة . على أن الإخشيد استعمل مع ابن رائق الأناة والصبر حتى لا يغضب الخليفة العباسى . لذلك كتب إلى على بن أحمد العجمى نائبه فى بغداد ، يطلب إليه أن يخبر الخليفة الراضى بمسير ابن رائق ويستوضحه حقيقة الأمر ، وجاء فى حديثه : « فإن كان أمير المؤمنين قلده ، سلمت له أو يأمرنى بالقتال ، فإنى صالحته وراضيته فما رضى » ، ولما عرض ابن العجمى ذلك الأمر على الخليفة ، لم يبد رأيا فى الموضوع ، ولكى يحكم قال : « من حارب بالسيف وهزم صاحبه ، فالعمل له » . فكتب ابن رائق يبلغ ذلك الرأى إلى الإخشيد[1] .

أعد الإخشيد العدة لقتال ابن رائق ، فاستخلف أخاه الحسن على مصر ، وخرج بنفسه سنة ٣٢٨ هـ ، ونزل الفرما التى كانت قد اقتربت منها جيوش ابن رائق . ويظهر أنه لم يكن الإخشيد وابن رائق رغبة جدية فى القتال ، لأنه على أثر وقوع مناوشات بسيطة ، عقد الصلح بينهما على أن تكون الرملة للإخشيد وطبرية ومافى شمالها لمحمد بن رائق ، وعاد الإخشيد بعد ذلك إلى دمشق سنة ٣٢٨ هـ ، وما لبث ابن رائق أن نقض شروط الصلح ، وسار من دمشق

(١) ابن سعيد : كتاب المغرب فى حلى المغرب ص ٢٦ — ٣٦ .

فى ذلك العام ، ميما شطر الديار المصرية . فلما بلغ ذلك الإخشيد غضب غضباً شديداً ، وغادر البلاد على رأس جيوشه إلى الرملة ، ودار القتال بين الفريقين ، فانتصر الإخشيد أولا فى العريش ، وعاد بن رائق منهزما إلى دمشق ، وذهب الإخشيد إلى الرملة وبعث منها بجيش تحت قيادة أخيه الحسين، ولكن ابن رائق هزمه هزيمة كبرى وقتل قائد الحسين، ورغم ذلك تصافح الفريقان مرة أخرى ، وفى ذلك الصلح تعهد الإخشيد بأن يدفع لابن رائق جزية سنوية قدرها ١٤٠٫٠٠٠ دينار ، وأن يتقلد ابن رائق من الإخشيد ولاية الأراضى الشامية شمالى الرملة[1] . وكان قبول الإخشيد لعقد الصلح على هذا النحو ، هو خوفه من دوام تهديد الخلافة العباسية لملكه .

إمرة الأمراء (٣٢٤ — ٣٣٤ هـ)

واختلت أمور الدولة فى أوائل عهد الراضى الذى أسند الوزارة إلى رجال لم يقوموا بأى عمل فى سبيل إصلاح شئون البلاد وإقالتها من عثرتها، لازدياد نفوذ كبار القواد وتدخلهم فى أمور الدولة، مما دعا الخليفة الراضى إلى استمالة ابن رائق الذى كان يلى واسط والبصرة ، وسلّم إليه مقاليد الحكم ولقبه أمير الأمراء ، فازدادت سلطته وعلت على مرتبة الوزير وقلده الإمارة ورئاسة الجيش ، ورد إليه تدبير أعمال الخراج والضياع ، وفوّض إليه تدبير المملكة . وأمر بأن يخطب له على جميع المنابر فى الممالك ، وبطل يومئذ أمر الوزارة، ولم يكن للوزير غير اسم الوزارة فقط » . ثم تغير الخليفة الراضى على بن رائق ، وتقلد بجكم إمرة الأمراء، ولكن ابن رائق مالبث أن عاد إلى إمرة الأمراء ودخل بغداد فى صفر سنة ٣٢٧ هـ واشتد الضعف فى عهد ولاية كل من ابن رائق وبجكم ، روى الصولى فى كتابه « الأوراق » ، أن الراضى عبر عن ألمه من هذا الحال ، فقال : كأنى بالناس

(١) على إبراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ص ٢٤٦ — ٢٥٠ .

يقولون ، أرضى هذا الخليفة أن يدبر أمره عبد تركى يتحكم فى المال وينفرد بالتدبير ؟ ولا يدرون أن هذا الأمر أفسد قبلى ، وأدخلنى فيه قوم بغير شهوتى ثم دبر الأمر ابن رائق فدبّره أشد تسحبا فى باب المال منهم وانفرد بشربه ولهوه ولو بلغه وبلغ الذين قبله أن على فرسخ منهم فرسانا قد أخذوا الأموال واجتاحوا الناس ، فقيل لهم أخرجوا إليهم فرسخاً ، لطلبوا المال وطالبوا بالاستحقاق. وربما أخذوه ولم يبرحوا ، ويتعدى الواحد منهم أو من أصحابهم على بعض الرعية ، وآمر فيه بأمر فلا يمتثل ولا ينفذ ولا يستعمل : أو أكثر مافيه أن يسألنى كاتب من كلابهم فلا أملك رده ، وإن رددته غضبوا وجمعوا وتكلموا . . . وكان الأجود أن يكون الأمر كله لى كما كان لمن مضى من قبلى ، ولكن لم يجر القضاء بهذا ! » .

ومما يبين ما امتاز به الراضى ، تلك العبارة التى أوردها صاحب الفخرى ، حيث يقول « ختم الخلفاء فى أشياء منها : أنه آخر خليفة دوّن له شعر ، وآخر خليفة انفرد بتدبير الملك ، وآخر خليفة خطب على منبر يوم الجمعة ، وآخر خليفة جالس الندماء ووصل إليه معلما . . . » [1] قال الصولى : سئل الراضى أن يخطب يوم جمعة ، فصعد المنبر بسُرّ من رأى ، فحضرت أنا واسحاق بن المعتمد ، فلما خطب شنف الأسماع وبالغ فى الموعظة » [2] .

ولم تستفد الخلافة العباسية من نظام إمرة الأمراء شيئا ، بل على العكس من ذلك ازدادت أحوالها سوءا حتى لم يتمكن الخليفة الراضى أن يدفع أرزاق الجند أو يحصل على مايكفيه . ولم يكن تاريخ الراضى سوى سلسلة منازعات بين رجال الدولة على الاستئثار بالسلطة والنفوذ .

وكذلك كان عهد الخليفة المتقى (٣٢٩ — ٣٣٣ ﻫ) عهد اضطراب ، فقد

(١) ابن طباطبا : الفخرى ص ٢٦١ .
(٢) الأوراق ص ٢٢٣ :

ظهرت الفوضى خلاله بسبب قيام النزاع على منصب إمرة الأمراء ، إذ قام نزاع بين ابن رائق وأبى عبد الله البريدى صاحب الأهواز ، ثم خرج بجكم على ابن رائق وانتزع من يده إمرة الأمراء سنة ٣٢٧ هـ وظل فيها إلى أن قتل سنة ٣٢٩ هـ ، ثم دخل البريدى بغداد ولحق به منافسه ابن رائق . وانتهى الأمر بخروج ابن رائق ومعه الخليفة المتقى إلى ناصر الدولة بن حمدان بالموصل الذى قتل ابن رائق حتى لا يقف فى وجهه ولا يحول بينه و بين منصب إمرة الأمراء . وسرعان مادخل ابن حمدان بغداد ومعه الخليفة العباسى ، وتقلد أعباء هذه الوظيفة فى مستهل شعبان سنة ٣٣٠ هـ . على أن أيام الحمدانيين (٣٣٠ - ٣٣١ هـ) لم تطل فى بغداد ، ولم تكن حال بغداد فى عهدهم بأحسن منها فى عهد مَنْ سبقهم من أمراء الأمراء ، فقد طردهم منها توزون التركى رئيس الشرطة فى شهر رمضان سنة ٣٣١ هـ ، وطارد جيوشهم إلى الموصل ، وتقلد إمرة الأمراء .

لم يدم الصفاء بين توزون والخليفة المتقى ، بسبب تآمره على توزون وعمله على صرفه : واستنجد المتقى – بعد أن اتضحت نوايا توزون السيئة إزاءه – بالإخشيد أقوى ولاته فى ذلك الوقت . وسار الإخشيد إلى الشام فى سنة ٣٣٢ هـ ، والتقى الخليفة فى مدينة الرقة الواقعة على الطريق بين الشام والعراق . وفى تلك المدينة قدم الإخشيد إلى المتقى عدداً من التحف والهدايا ، فقيل « إنه حمل إليه من العين والورق والكسوة والجوهر والطيب والفرش والكراع والبغال مامبلغه مائتان وخمسون ألف دينار » عدا ماقدّمه إلى أتباع الخليفة وخاصته ، مما يدل على وفاء الإخشيد ، إذ كان الخليفة فى ذلك الوقت لا يملك من الأمر شيئا . وفى الرقة عرض الإخشيد على الخليفة البقاء معه فى الشام ، أو الذهاب إلى مصر وهو الاقتراح الذى سبق أن عرضه أحمد بن طولون فى نفس هذا المكان على الخليفة المعتمد وقال له الإخشيد : « ياأمير المؤمنين ! أنا عبدك وابن عبدك ، وقد عرفت الأتراك وغدرهم وفجورهم ، فالله فى نفسك ، وسر معى إلى الشام ومصر ، فهى لك

وتأمن على نفسك » [١] . فلم يقبل الخليفة ذلك العرض ، حتى لا يترك بغداد عاصمة مُلكه ومقر أُسرته ، ولو قَبِل ذلك لتغيّر مجرى الحوادث ولأصبح لمصر مركزا ممتاز بين الأمم الإسلامية . وسار الإخشيد بعد ذلك إلى مصر [٢] .

رجع المتقى إلى بغداد بعد أن تعهد توزون بحمايته ، إذا ما عاد إليها ، إلا أن توزون لم توف بعهده ، فإنه قبض على الخليفة فى شهر صفر سنة ٣٣٣ هـ ونهب أصحابه معسكره وأخذ الخاتم من يده [٣] « و كُحِّل [٤] المتقى لله فصاح ، فأمر أصحاب الدبادب [٥] فضربوا بها ، فصاح فلم يسمع صياحه بعد أن خلع نفسه . . . فكانت خلافته ثلاث سنين وأحد عشر شهرا » [٦] . ويقول المسعودى « فبكى المتقى ، وصاح النساء والخدم لصياحه ، وأدخل إلى الحضرة مسمول العينين ، وأخذ منه البردة [٧] والقضيب [٨] والخاتم وسلمها إلى المستكفى بالله » [٩] .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٥ .

(٢) على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ص ٢٤٩ — ٢٥٠ .

(٣) حسن ابراهيم وعلى ابراهيم : النظم الإسلامية ص ٧٩ .

(٤) كحل : كناية عن سمل عينه .

(٥) الدبادب : جمع دبدب ، وهو الطبل .

(٦) الصولى : الأوراق ص ٢٨٢ — ٢٨٣ .

(٧) البردة : هى بردة النبي صلى الله عليه وسلم ، التى اعتاد الخلفاء لبسها فى المواكب . وهى شملة مخططة ، وقيل كساء أسود مربع فيه صغر . وقد اختلف فى وصولها إلى الخلفاء : فقيل أن النبي قد وهبها لكعب بن زهير حين امتدحه بقصيدته التى أولها : بانت سعاد ، ثم اشتراها معاوية بن أبى سفيان منه أو من ورثته بعشرين ألف دينار ، وقيل إن النبي أعطاه أهل ايلة أمانة لهم فأخذها منهم عبد الله بن خالد بن أوفى عامل مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية على ايلة ، وبعث بها إليه ، فظلت فى خزانته حتى آلت إلى أبى العباس السفاح أول خلفاء الدولة العباسية . القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٦٩ .

(٨) بقى القضيب والبردة عند خلفاء بنى العباس فى بغداد إلى أن انتزعها السلطان سنجر السلجوقى من الخليفة المسترشد بالله ، ثم أعادها إلى المقتفى بالله عند توليته الخلافة سنة ٥٣٥ هـ ، فاحتفظ بها من جاء بعده من خلفاء بنى العباس حتى انقراض دولتهم سنة ٦٥٦ هـ القلقشندى : نفس المصدر ج ٣ ص ٢٧٠ .

(٩) مروج الذهب ج ٣ ص ٥٣٢ .

ويعد المستكفى (٣٣٣ - ٣٣٤ هـ) آخر خلفاء العصر العباسى الثانى ممن وقع تحت سيطرة الأتراك خلال حكمهم فى بغداد واشتهر بالصلاح والتقوى وعدم شرب النبيذ . وكان - كغيره من خلفاء ذلك العصر - ألعوبة فى أيدى الأتراك، حتى أن توزون الذى أقره الخليفة فى إمرة الأمراء واستبد بالسلطة دونه « ضم إليه غلاماً تركياً من غلمانه ، وذلك حتى يقف هذا الغلام على أسرار الخليفة وما يجرى فى دار الخلافة » . وفى منتهى الدلالة على مدى الضعف الذى كان عليه الخليفة والهوة التى انحدرت إليها الخلافة العباسية إذ ذاك . ويقول الصولى إنه « لما جلس على السرير [1] . وبايعه الناس باق يومه وأياما بعد ذلك ، وكل مَنْ بايعه أحلف على طاعته ونصيحته وموالاة من والاه ومعاداة من عاداه » [2] .

وفى أوائل عهد المستكفى مات توزون ، فخلفه فى إمرة الأمراء أبو جعفر ابن شيراز ، فلم يكن أقل عنتا ممن سبقوه . ولا غرو فقد أصبح فى يد أمير الأمراء حبس الخليفة وخلعه وقتله ، فكان هذا تعديا على سلطة الخليفة الدينية وما لها من حرمة فى النفوس . فقد اجتمعت السلطة كلها فى يد أمير الأمراء ، وفوض الخليفة إليه أمر تدبير المملكة حتى لم يعد للخليفة من الأمر شىء سوى سلطته الدينية ممثلة بذكر اسمه فى الخطبة ونقشه على السكة ، ولم يكن هذا إلا لأغراض سياسية غايتها احتفاظ هؤلاء الخلفاء بمراكزهم أمام الجمهور . ولم يكن عند الخليفة من سبيل يأمن به فى نفسه الأذى ، إلا هروبه من معسكر أحد الأمراء ، فكان إنقاذه تحولا عما فيه من مذلة إلى مذلة أخرى ، حتى دفعه اليأس إلى دعوة بنى بويه إلى معاونته وتخليصه ، فإذا ما وقع تحت رحمتهم صار ألعوبة فى يدهم .

---

(١) سرير الملك أو عرش الملك : هو من رسوم الملك وآلاته ، متخذ من رخام ، وأول من اتخذ ذلك فى الإسلام معاوية بن أبى سفيان ، ثم اتخذه من جاء بعده من خلفاء بنى أمية وبنى العباس . القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٦ .

(٢) الأوراق ص ١٨٧ .

ولم تكد فترة التنافس على إمرة الأمراء تنتهى ، حتى كان الضيق قد استحكم بأهل بغداد ، فصاروا يأكلون الكلاب والقطط وانتشر النهب والسلب بينهم ، وأدى الجوع بهم إلى نهب الحوانيت والحصول على مافيها من البضائع وفر كثير منهم من بغداد إلى البصرة ولكن أغلبهم كان يموت جوعا من شدة الضعف والفقر . وكان من أثر التنازع على إمرة الأمراء ، أن استعان بعضهم ببعض ذوى النفوذ ، مما أدى إلى الفوضى والاضطراب ودخول معز الدولة ابن بويه سنة ٣٣٤ هـ مدينة بغداد واختفاء ابن شيرزاد أمير الأمراء . ومنذ ذلك الحين ، أصبحت الخلافة العباسية فى قبضة بنى بويه .

الخلافة العباسية فى عهد بنى بويه

٣٣٤ — ٤٤٧ هـ = ٩٤٦ — ١٠٥٥ م

سلاطين بنى بويه فى العراق :

سنة هجرية	أسماء السلاطين	سنة ميلادية
٣٢٠	معز الدولة - أبو الحسين أحمد	٩٣٢
٣٥٦	عز الدولة بختيار	٩٦٧
٣٦٧	عضد الدولة (فى فارس)	٩٧٧
٣٧٢	شرف الدولة (فى فارس)	٩٨٢
٣٧٩	بهاء الدولة أبو نصر فيروز	٩٨٩
٤٠٣	سلطان الدولة (فى فارس)	١٠١٢

ينتسب بنى بويه إلى بهرام بن يزدجرد من ملوك آل ساسان ، وكان أبوهم أبو شجاع بويه فقيراً معدماً من أهالى بلاد الديلم . وكان بنو بويه من الشيعة

الغالين ، ولذا كانوا لا يعترفون بحق الخليفة العباسى فى السيادة على جميع العالم الإسلامى وقد عمل سلاطين بنى بويه على أن يكونوا مطلقى التصرف فى العراق، ولم يتورعوا عن التعدى . على أشخاص الخلفاء العباسيين وانتقاص حقوقهم ، ولم يقل استبداد بنى بويه بالسلطة فى بغداد عن استبداد الأتراك حتى أصبح خلفاء العباسيين فى عهدهم لا قيمة لهم [١] .

كان أول من تولى الحكم فى بغداد من بنى بويه ، علىّ بن بويه ، الذى استولى على العراق سنة ٣٣٤ هـ فى عهد الخليفة العباسى المستكفى ، ولُقب « معز الدولة بن بويه » أحد سلاطين البويهيين الذين استحوذوا على السلطنة فى بغداد ، وقوى أمره واشتد نفوذه وخلع الخليفة المستكفى وسمل عينيه . وفى ذلك يقول السيوطى : ثم إن معز الدولة تخيل من المستكفى فدخل عليه فى جمادى الآخر سنة أربع وثلاثين (وثلاثمائة) ، فوقف — والناس وقوف على مراتبهم — فتقدم إثنان من الديلم إلى الخليفة ، فمد يديه إليهما ، فظنا أنهما يريدان تقبيلهما فجذباه من السرير حتى طرحاه إلى الأرض وجراه بعمامته ، وهجم الديلم دار الخلافة إلى الحرم ونهبوها فلم يبق فيها شىء ومضى معز الدولة إلى منزله ، وساقوا المستكفى ماشيا إليه وخلع وسملت عيناه يومئذ ، وكانت خلافته سنة وأربعة أشهر [٢] .

* * *

وخلف المستكفى الخليفة « الطائع » (٣٣٤ — ٣٦٣ هـ) وقدر له معز الدولة مائة دينار فى كل يوم . ويتميز عهد الطائع ، بذلك الصفاء الذى ساد بين الخلافة العباسية ومصر ، حتى تمكن كافور الإخشيدى من أن يحتفظ بمبدأ وراثة

---

(١) Arnold : The Caliphate, P. 68.

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣٦٣ — ٣٦٤ .

العرش على النحو الذى وضعه الإخشيد ، وذلك بأن حصل على موافقة الخليفة المطيع العباسى على تولية الأمير أنوجور بن الأخشيد على مصر بعد أبيه ، وأصبحت مملكته تشمل مصر والشام والمدينتين المقدستين (مكة والمدينة) ، واستطاع كافور بعد ذلك أن يضم إلى حكم مصر كل بلاد سورية بما فى ذلك دمشق وحلب وأنطاكية وطرسوس والمصيصة[1] وغيرها من المدن والثغور[2] ولكن كافورا حين وجد أن مصلحته الشخصية تتعارض مع مبدأ وراثة العرش فى أسرة الإخشيد ، استغل فرصة صغر أولاد الإخشيد وتقدير الخليفة العباسى له ، وتمكن من أن يستصدر قراراً من دار الخلافة فى ٢٦ المحرم سنة ٣٥٥ هـ بتوليته على مصر وما يقع تحت سيطرتها من البلاد ، على الرغم من أنه لا يمت بأية قرابة إلى الأسرة الإخشيدية الحاكمة ، وتخطى أحمد بن على بن الإخشيد .

الشروع فى إقامة خلافة فاطمية فى بغداد :

اتبع بويه إذاء بنى العباس ، سياسة تنطوى على الأسرة والأنانية ، بل وفكر معز الدولة فى وضع حد للخلافة العباسية وإقامة خلافة علوية أى فاطمية مكانها . ولكن بعض خاصته أشاروا عليه بالعدول عن هذا الرأى ، وأبانوا له أن الخليفة العباسى فى بغداد ضعيف جداً ومن الممكن حبسه أو قتله متى خرج عن طاعة البويهيين ، أما خلفاء الفاطميين فإن فى استطاعتهم الاستبداد بالسلطة فى بغداد والقضاء على معز الدولة متى أرادوا[3] . وانتصح بنو بويه بهذا الرأى وعدلوا عن مسألة نقل الخلافة من العباسيين إلى الفاطميين ولو تم ذلك ، لتحقق للعلويين أملهم فى الخلافة ، الذى ظلوا يناضلون من أجل تحقيقه منذ قيام الخلافة الأموية .

قتل معز الدولة سنة ٣٦٣ هـ على يد عضد الدولة ، وذلك فى عهد الخليفة الطائع

---

(١) المصيصة : تقع بين أنطاكية وبلاد الروم ، بالقرب من طرسوس فى بلاد الشام .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤٣٢ — ٤٣٣ .

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ١٦٢ .

العباسى ، فانتقلت سلطة بنى بويه فى بغداد إلى عضد الدولة (٣٦٧ - ٣٧٢هـ)، وخلع عليه الخليفة الطائع خلعة السلطنة وقلده سيفا وعقد له لواءين أحدهما مفضض على رسم الأمراء والآخر مذهب على رسم ولاة العهود . ولم يعقد هذا اللواء الثانى لغير عضد الدولة ، وكتب له الخليفة عهداً وقرىء بحضرته[1] ، ولم يكتف عضد الدولة بذلك ، بل عمل على ذكر اسمه فى الخطبة ، وحمل الخليفة على أن يمنحه تفويضاً كالذى يعطيه الخلفاء لولاة عهودهم . وأمر عضد الدولة بأن يقرأ هذا التفويض على ملأ من الناس ، مع مخالفة ذلك لتقاليد الخلافة ، إذ كان الخليفة يعطى التفويض لولى عهده مغلقاً ، ويقول له : « هذا تفويض منحته لك ، وعليك أن تعمل على ما يقتضى به » . لذلك اضطر الخليفة الطائع إلى أن يخرج لاستقبال عضد الدولة ، بعد عودته إلى بغداد من إحدى رحلاته ، وهذا يبين لنا مدى نفوذ بنى بويه فى بغداد وسيطرتهم على الخليفة العباسى وأمور الدولة العباسية ، ويتضح ذلك ملياً من أنه حين ساءت العلاقة بين الخليفة الطائع وبين عضد الدولة ، أمر الأمير بحذف اسم الخليفة من الخطبة فى بغداد وغيرها من المدن ، وظل الحال على ذلك مدة شهرين ، وأرغم الخليفة على أن يصدر أوامره بضرب الدبادب أمام داره ثلاث مرات فى اليوم : فى وقت الصبح والمغرب والعشاء ، مع أن ذلك كان من الأمور التى انفرد بها الخليفة دون غيره فى بغداد[2] .

ويظهر أن خلفاء بغداد اعترفوا بإمامة الفاطميين ، رغم ذلك العداء المستحكم بين الدولتين . يدل على ذلك ، الكتاب الذى بعث به العزيز سنة ٣٦٥هـ إلى عضد الدولة سلطان بنى بويه فى بغداد . وفيه يقول : « من الإمام العزيز بالله إلى عضد الدولة الإمام ، نصير ملة الإسلام . . وبعد فإن رسولك وصل إلى حضرة أمير

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٠ .
(٢) السيوطى : نفس المصدر ص ٢٧٠ .

المؤمنين مع الرسول المنفذ إليك ، فأدى ما يحمله من إخلاصك فى ولاية أمير المؤمنين ومودتك ومعرفتك بحق إمامته ، ومحبتك لآبائه الطائعين الهاديين المهديين ، فسر أمير المؤمنين بما سمعه عنك » . ورد عضد الدولة على كتاب العزيز بكتاب يعترف فيه بفضل أهل البيت ويقول للخليفة : « إنه من أهل تلك النعمة الطاهرة وإنه فى طاعته » ووجه الغرابة فى أمر هذه المراسلات ، أن عضد الدولة أرسل خطابه هذا الذى يعترف فيه بإمامة الفاطميين بعلم الخليفة الطائع العباسى . مما يوضح لنا عظمة الدولة الفاطمية فى تلك الفترة من تاريخها وعجز العباسيين عن الوقوف أمامها .

على أن عضد الدولة - رغم قوته وضعف الخليفة - كان يظهر أمام الناس بأنه إنما يستمد نفوذه من الخليفة ويتمتع برضاء ليكسب بذلك ثقة الأهلين وطاعتهم إياه . وفى ذلك يقول السيوطى « فى سنة تسع وستين (وثلثمائة) ورد رسول العزيز صاحب مصر إلى بغداد ، وسأل عضد الدولة للطائع أن يزيد فى ألقابه : تاج الملة ، ويجدد الخلع عليه ، ويلبسه التاج ، فأجابه . وجلس الطائع على السرير ، وحوله مائة بالسيوف والزينة ، وبين يديه مصحف عثمان ، وعلى كتفه البردة ، وبيده القضيب ، وهو متقلد بسيف رسول الله صلى الله عليه وسلم . وضربت ستارة بعثها عضد الدولة ، وسأل أن تكون حجاباً للطائع ، حتى لا يقع عليه أحد من الجند قبله . ودخل الأتراك والديلم وليس مع أحد منهم حديد ، ووقف الأشراف وأصحاب المراتب من الجانبين ، ثم أذن لعضد الدولة فدخل ، ثم رفعت الستارة ، وقبل عضد الدولة الأرض ، فارتاع زياد القائد لذلك ، وقال لعضد الدولة ماهذا أيها الملك ؟ أهذا هو الله ؟ فالتفت إليه وقال : هذا خليفة الله فى الأرض ، ثم استمر يمشى ويقبل الأرض سبع مرات ، فالتفت الطائع إلى خالص الخادم وقال : استدنه ، فصعد عضد الدولة فقبل الأرض

مرتين فقال له : ادن إلى ، فدنا . . وأمره فجلس على الكرسى . . . فقال له الطائع : قد رأيت أن أفوض إليك ماوكل الله إلىّ من أمور الرعية فى شرق الأرض وغربها ، وتدبيرها فى جميع جهاتها سوى خاصتى وأسبابى ، فتتول ذلك . فقال : يعيننى الله على طاعة مولانا أمير المؤمنين وخدمته ، ثم أفاض عليه الخلع وانصرف » وقد علق السيوطى على هذه العبارة بقوله « انظر إلى هذا الأمر وهو الخليفة المستضعف ، الذى لم تضعف الخلافة فى زمن أحد ماضعفت فى زمنه ، ولا قوى أمر سلطان ماقوى أمر عضد الدولة »[1] .

وبوفاة عضد الدولة سنة ٣٧٢ هـ ، تتابع على السلطة من بنى بويه فى بغداد ، ثلاثة إخوة هم : صمصام الدولة (٣٧٢ — ٣٧٦ هـ) وشرف الدولة (٣٧٦ — ٣٧٩ هـ) وبهاء الدولة (٣٧٩ — ٤٠٣ هـ) الذى انتقلت السلطة فى النهاية وخلع عليه الخليفة الطائع سبع خلع وعمامة سوداء[2] ، ومشى الحجاب بين يديه ، وقرىء عهده ، ولقبه الطائع : بهاء الدولة ، وضياء الملة . إلا أنه مالبث أن قبض سنة ٣٨٢ هـ على الخليفة الطائع ، لأنه حبس رجلا من خواصه « فجاء بهاء الدولة وقد جلس الطائع فى الرواق ، متقلداً سيفاً ، فلما قرب بهاء الدولة ، قبل الأرض وجلس على كرسى ، وتقدم أصحاب بهاء الدولة فجذبوا الطائع من سريره ، وتكاثر عليه الديلم فلفوه فى كساء ، وأصعد إلى دار السلطنة وارتج البلد ، ورجع بهاء الدولة وكتب على الطائع إيمانا بخلع نفسه وأنه سلم الأمر إلى القادر بالله[3] .

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٠ . — ٢٧١ .

(٢) كان أول من لبس العمامة السوداء هو النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم لبسها جماعة من الصحابة ، وتبعهم الخلفاء العباسيون . وهى عبارة عن عمامة مدورة من حرير بعذبة قدر ذراع ترسل بين الكتفين : القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٧٦ .

(٣) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٢ .

كان القادر — على ماوصفه به الخطيب البغدادى — « أنه من الستر والسيادة وإدامة التهجد بالليل وكثرة البر والصدقات »(١) . على أن نفوذ بهاء الدولة قد ازداد فى عهد الخليفة القادر (٣٨١ - ٤٢٢ هـ) واستبد بالسلطة دون الخليفة ، وتعصب للمذهب الشيعى دون السنة مذهب العباسيين ، وأضمر كل منهما الآخر العداوة والبغضاء ، ونادى بذلك السلطان بهاء الدولة بن بويه سنة ٣٩٨ هـ فى زمن الخليفة القادر . ولكن تحويل الخلافة إلى الفاطميين كان معناه القضاء على سلطان بنى بويه فى بغداد الذين جعلوا الخليفة ألعوبة فى أيديهم ، فعند ما تعرض نفوذهم فى العراق للخطر سنة ٤٠١ هـ — حين أمر قرواش بن المقلد أمير بنى عقيل الذى آلت إليه السيادة فى الموصل والأنبار والمدائن والكوفة بإقامة الخطبة للخليفة الفاطمى الحاكم - سارع بهاء الدولة رغم ميوله الشيعية بإرسال جيش اضطره إلى رد الخطبة للخليفة العباسى فى بغداد ، قاصداً بذلك الاحتفاظ بسلطان بنى بويه فى العراق(١) . وبذلك فشلت المحاولة الثانية التى بذلت فى سبيل إقامة خطبة فاطمية فى بغداد ، وكانت الأولى فى عهد البويهين أيضاً زمن معز الدولة بن بويه ، حين كان خلفاء الفاطميين لايزالون فى المغرب ولم تكن دولتهم قد تأسست بعد فى مصر .

تشهير الخلفاء العباسيين بنسب الفاطميين :

لجأ الخليفة العباسى القادر بعد تلك الحادثة - حادثة محاولة إقامة الخطبة للحاكم فى بلاد الخلافة العباسية - إلى سياسة التشهير بنسب الفاطميين . ذلك أن الخليفة القادر ، أمر فى ربيع الثانى سنة ٤٠٢ هـ بكتابة محضر يقدح فى أنساب الخلفاء الفاطميين وعقائدهم ، على أن يقرأ فى بغداد وينشر فى الأمصار ،

---

(١) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ج ٤ ص ٣٧ .
(٢) حسن إبراهيم وعلى إبراهيم : النظم الإسلامية ص ٨٩ .

وجاء فيه : « وهم (أى الفاطميون) منسوبون إلى ديصان بن سعيد الخرمى ، إخوان الكافرين ونطف الشياطين ، شهادة يتقربون بها إلى الله ومعتقدون ما أوجب الله على العلماء أن ينشروه للناس ، فشهدوا جميعاً أن الناجم بمصر ، وهو منصور نزار الملقب بالحاكم ، هو ومن معه من سلفه الأرجاس الأنجاس عليه وعليهم اللعنة ، أدعياء خوارج لا نسب لهم فى ولد على بن أبى طالب وأن ذلك باطل وزور . . وأن هذا الناجم بمصر هو وسلفه ، كفار ، فساق ، فجار زنادقة ، عطلوا الحدود ، وسفكوا الدماء ، وسبوا الأنبياء ، ولعنوا السلف ، وادعوا الربوبية »[١] . ويقول أبو المحاسن تعليقاً على موقف الحاكم إزاء عمل الخليفة القادر أنه « لما بلغ الحاكم ذلك قامت قيامته ، وهان فى أعين الناس ، لكتابة هؤلاء الأعلام فى المحضر »[٢] .

وسار الخليفة القائم (٤٢٢ — ٤٦٧ هـ) عن القادر على سياسة أبيه فى الطعن فى نسبهم تحقيراً لهم وصرفاً للمسلمين عن أن يولوا وجوههم شطرهم . واستكتب علماء بغداد سنة ٤٤١ هـ محضراً يماثل المحضر الذى كتب فى عهد أبيه طعناً فى الفاطميين .

إلا أن خطة الخليفة القادر والخليفة القائم فى محاربة الفاطميين بسلاح التشهير بنسبهم لم يؤد إلى الغرض المقصود ، وهو إضعاف نفوذ الفاطميين وحث الخاضعين لسلطانهم على الثورة عليهم ، بل على العكس ما كان عهد الحاكم بأمر الله الفاطمى ينتهى ويتولى عرش الخلافة الفاطمية المستنصر ، حتى امتد سلطان الفاطميين فى الشطر الأول من خلافته ، فشمل الشام وفلسطين والحجاز وصقلية وشمالى إفريقية بما فى ذلك مصر ، وأصبح إسمه يذاع على كافة منابر البلاد الممتدة من المحيط الأطلسى غرباً إلى البحر الأحمر شرقا ، كما أذيع اسمه على منابر

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٢٢٩ — ٢٣٠ .
(٢) أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ص ٢٣٠ .

اليمن والحجاز والموصل ، وفى ذلك الاتساع أكبر دليل على تقلص سلطان الخليفة العباسى وعلى أن الدولة الفاطمية اتسعت على حساب العباسيين .

وعلى الجملة ، أصبح الخلفاء العباسيون فى عهد بنى بويه ، لاقيمة لهم ، فى الوقت الذى أصبح فيه غيرهم أكثر قوة ونفوذاً ، وأصبحوا يديرون العالم الإسلامى دون أن يحفلوا بمن يدعى أنه أمير المؤمنين . وأصبح هؤلاء الخلفاء ألعوبة فى أيدى سلاطين بنى بويه يجلسونهم على العرش ويعزلونهم عنه متى شاءوا وشاءت أهواؤهم . ولم يعد للخليفة العباسى شىء فى عهد سيطرة بنى بويه سوى معاملته الدينية ، ممثلة بذكر اسمه فى الخطبة ونقشه على السكة ، وقد احتفظ بنو بويه للخلفاء بهذين المظهرين احتفاظاً للخليفة بمركزه أمام الجمهور ، على اعتبار أنه لايزال محتفظا بالسلطة الروحية على رعاياه ، رغم أنه مسلوب السلطة السياسية . ومع ذلك ، فينبغى أن نذكر أن بنى بويه راعوا مظاهر احترام الخليفة العباسى فى الحفلات ، باعتباره الرئيس الأعلى لجماعة المسلمين ، فكان الخليفة يستقبل السفراء ويلبس بردة النبى عليه السلام ويضع أمامه مصحف عثمان توكيداً لسلطته الدينية .

الخلافة العباسية فى عهد سلاطين السلاجقة

ينتسب السلاجقة ، الذين استولوا على السلطة فى بغداد بعد بنى بويه ، إلى سلجوق بن تقاق أحد رؤساء التركمان ، وموطنه الأصلى بلاد ماوراء النهر . وقد غزا طغرلبك السلجوقى بلاد خراسان ، واستولى على الولايات الغربية للدولة الغزنوية ، كما أدخل تحت سلطانه أملاك بنى بويه ، ودخل بغداد فى سنة ٤٤٧ هـ .

ذكر اسم الخليفة الفاطمى على منابر بغداد :

كان ضعف الخليفة العباسى أمام السلاجقة واضحاً للعيان . ومما أوضح مدى الضعف الذى وصلت إليه الخلافة العباسية فى العصر الثانى ، ذلك الأمر الخطير الذى حدث إذ ذاك وهو ذكر الخليفة المستنصر الفاطمى على منابر بغداد حاضرة العباسيين ، فإن الأمير الحارث أرسلان البساسيرى[1] ، انتهز فرصة ضعف الخليفة العباسى القائم بأمر الله وانشغال طغرلبك أول ملوك السلاجقة بفتح بعض بلاد العراق واشتباكه مع إبراهيم ينال الذى شق عصا الطاعة عليه،ودخل البساسيرى بغداد فى اليوم الثامن من ذى القعدة سنة ٤٥٠ هـ حاملا الرايات المستنصرية ، فرحب به أهل الكرخ وكانوا شيعيين ، وازداد نفوذهم فى بغداد وأدخلوا فى الأذان عبارة «حى على خير العمل» ، كما انضم أهل السنة إلى الخليفة القائم بأمر الله[2] .

ودار القتال بين كل من السنيين وعلى رأسهم الخليفة العباسى وبين الشيعيين تحت قيادة البساسيرى . وانتهى الأمر بانتصار البساسيرى وأتباعه ، وخطب يوم الجمعة ١٣ ذى القعدة سنة ٤٥٠ هـ على منابر بغداد للمستنصر الفاطمى بجامع المنصور . وانتهز بعض الأهالى هذه الفرصة ونهبوا دار الخلافة العباسية .

ولما استتب الأمر للبساسيرى فى بغداد قبض على الوزير أبى القاسم بن المسلمة، وقال له « مرحباً بمدمر الدولة ومهلك الأمم ومخرب البلاد ومبيد العباد . فقال له ابن المسلمة : « أيها الأجل ! العفو عند المقدرة » . فقال له البساسيرى:

---

(١) هذه النسبة إلى بلدة فى فارس تسمى « بسا » ، وهو أبو الحارث أرسلان بن عبد الله ، مقدم الأتراك فى بغداد .

(٢) على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ص ٢٣٩ — ٢٤٠ .

قد قدرت فما عفوت ، وأنت تاجر صاحب طيلسان ، ولم تبق على الحريم والأموال والأطفال . فكيف أعفو عنك وأنا صاحب سيف ، وقد أخذت أموالى وعاقبت أصحابى ودرست دورى وسبقتنى وأبعدتنى »[1] ، ثم أمر البساسيرى بحبس الوزير أبى القاسم .

أما الخليفة ، فحمل إلى معسكره راكباً وعلى كتفه البردة وبيده سيف وعلى رأسه اللواء . ولما رأى ماحل به من الإهانة امتنع عن الطعام والشراب ، فألح عليه قريش أحد أتباع البساسيرى ، حتى حمله على تناول الطعام ، وسار به إلى قلعة الحديثة حيث ظل مسجونا بها . وعندما وصل الخليفة العباسى إلى الأنبار ، شكا البرد وبعث يطلب من واليها بعض الملابس ، فأرسل إليه جبة ولحافا .

وسار البساسيرى فى حكم أهل بغداد سيرة طيبة . فقد أحسن معاملتهم وبذل الأموال للفقهاء ، وأفرد لوالدة الخليفة دارا وعين لها راتبا شهريا ، وحبب إليه - بحسن سياسته وعدم تعصبه - كل من السنيين والشيعيين . ولما استقر الأمر للبساسيرى ، وأصبح مطلق التصرف فى بغداد ، أرسل إلى المستنصر بالله يبشره بامتداد نفوذه إلى بلاد العراق ويبلغه أن اسم الخليفة الفاطمى الشيعى فى مصر قد ذكر فى الخطبة على منابر بغداد ، مقر الخلافة العباسية . وفى الوقت الذى كان منتظراً فيه أن يحمد المستنصر للبساسيرى عمله ، فإنه لم يجبه إجابة تنم عن تأييده لعمله ولم يمده بالأموال الكافية . وكان ذلك بتأثير الوزير أبى الفرج محمد ابن جعفر المغربى الذى كان يحقد على البساسيرى ، فاستطاع أن يوغر صدر المستنصر عليه ويخوفه من عاقبة اتساع نفوذ البساسيرى فى العراق .

إلا أن البساسيرى لم يقابل السياسة التى اتبعها المستنصر إزاءه بسياسة مثلها ، بل على العكس واصل فتوحه فى بلاد العراق واستولى على البصرة وواسط

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٩ .

وخطب على منابر جوامعهما باسم المستنصر الفاطمى . وظلت الخطبة تقام باسم المستنصر على منابر بغداد نحوا من سنة أى أربعين أسبوعاً . واشتد نفوذ البساسيرى فى بغداد واتصل بالخلافة الفاطمية فى مصر ، حتى أنه فى أثناء السنة التى أقيمت فيها الخطبة باسم الفاطميين فى بغداد ، أخذ عمامة الخليفة العباسى وعرشه وخلعته[1] ، وأرسلها إلى المستنصر حيث حفظت فى قصر الخلافة الفاطمية حتى عرضت للبيع فى أثناء الشدة العظمى التى حلت بمصر فى عهد ذلك الخليفة .

ومن أطراف مارُوى فيما يتعلق بإقامة البساسيرى الخطبة للمستنصر فى بغداد، أن مغنية علمت بتوغل البساسيرى فى أراضى الدولة العباسية ، يفتتحها باسم المستنصر ، فأنشدت :

يابنى العباس صدوا ملك الأمرَ معدّ
ملككم كان معارا والعوارى تسترد

وطرب المستنصر لتلك الأغنية ، ووهبها أرضا بمصر تعرف الآن بأرض الطبالة ، نسبة إلى هذه السيدة التى غنت هذه الأبيات بدف فى يدها . وأرض الطبالة تحد اليوم من الشمال والغرب بشارع الظاهر ، ومن الجنوب بشارع الفجالة وسكة الفجالة ، ومن الشرق بشارع الخليج المصرى .

على أن الخليفة العباسى لم يقف مكتوف الأيدى إزاء ماقام به البساسيرى من نشر سلطان الفاطميين فى بلاد العراق ، فكتب إلى طغرلبك أول ملوك السلاجقة يطلب منه القدوم إلى بغداد وإخراج البساسيرى منها ، وكان الخليفة

(١) قيل ان الخليفة العباسى لما رجع الى داره لم ينم بعدها إلا على فراش مصلاه ولازم الصيام والقيام ، وأنه لما سجنه البساسيرى كتب قصته وأنفذها الى مكة ، فعلقت فى الكعبة وفيها يشكو الى الله فعل البساسيرى ويطلب إليه أن يجازيه على بغيه وعدوانه . حسن إبراهيم وعلى إبراهيم : النظم الإسلامية ص ٩٢ .

بذلك كالمستجير من الرمضاء بالنار ، ولقد لبى طغرلبك طلبه وسار بعسا كره إلى بغداد ، ففر البساسيرى منها ، إلا أن طغرلبك ظفر به وقتله شر قتلة سنة ٤٥١ ، ه ثم أطلق سراح الخليفة القائم وأعاده إلى بغداد وخطب له على منابرها ، وحين ذاك يصدق المثل الذى ذكرناه ، فإن الخليفة تخلص من سلطان البساسيرى والفاطميين ليقع تحت سلطان السلاجقة ، ويصبح حاله تحت إشرافهم أشد هوانا ومذلة مما لو استمر سلطان البساسيرى فى بغداد .

حالة الخلفاء العباسيين :

على أن حالة الخلفاء العباسيين فى أيام السلاجقة لم تختلف اختلافا كبيرا تحت سيطرة السلاجقة عما كانت عليه فى أيام بنى بويه : فبينما كان أمراء بنى بويه يقيمون فى بغداد ويجمعون كل السلطة فى أيديهم ، كان نواب السلاجقة العسكريون يحكمون العراق ويستأثرون بالسلطة . ولم يكتف السلاجقة بما حل بالبساسيرى ، بل عمدوا إلى استعادة نفوذ الخليفة العباسى أو على الأصح نفوذهم على الأقطار التى فقدتها الدولة العباسية ، نتيجة سياسة الفاطميين الخاصة بتوسيع رقعة إمبراطوريتهم على حساب العباسيين . وتنفيذا لتلك السياسة التى رسمها طغرلبك ، أرسل السلطان ملكشاه أول سلاطين السلاجقة فى بغداد ، الجيوش إلى الشام سنة ٤٦٢ ه ، فتمكنت من فتح الرملة وبيت المقدس ، ولكنها عجزت عن فتح دمشق ، فعادت إليها ثانية سنة ٤٦٧ ه حيث نجحت فى فتحها وحذفت اسم المستنصر من الخطبة وأحلت اسم الخليفة المقتدى العباسى محله . ولم يكتف بذلك ، بل سارت جيوش العباسيين بأمر ملكشاه إلى مصر ، وكان وزيره إذ ذاك بدر الجمالى ، ولكنها هزمت فعادت ثانية إلى دمشق ، وكانت الجيوش المصرية قد احتلتها فعادت تلك الجيوش إلى مصر سنة ٤٧٠ ه .

كان الخلفاء العباسيون يعيشون فى أيام السلاجقة من إقطاعات مقررة يديرها

عمال على رأسهم الوزير وكاتب الإنشاء كما كانت أيام بنى بويه ، ولم يكن لهم من الأمر شىء سوى ذكر اسمهم فى الخطبة . ومما يدل على ضعف الخلفاء العباسيين أن الناس فى بغداد قاموا فى أيام الخليفة القائم « وأنكروا كثرة المغنيات والخمور ، فقطع بعضهم أوتار عود مغنية كانت عند جندى ، فثار به الجندى الذى كانت عنده فضربه ، فاجتمعت العامة ومعهم كثير من الأئمة ... واستغاثوا إلى الخليفة ، وطلبوا هدم المواخير والحانات وتبطيلها ، فوعدهم أن يكاتب السلطان فى ذلك »[١] وكان الخلفاء يقضون أوقات فراغهم فى الإشراف على بناء القصور وترميمها[٢] .

تحسن العلاقات بين الخلفاء العباسيين وسلاطين السلاجقة :

إلا أن معاملة السلاجقة للخلفاء كانت أفضل بكثير من معاملة بنى بويه لهم . يدل على ذلك :

١ — عامل سلاطين السلاجقة الخليفة العباسى فى المناسبات المختلفة بالاحترام والإجلال اللائقين بمقامه ، يدل على ذلك أن طغرلبك لما عاد إلى بغداد فى سنة ٤٤٩ هـ ، على أثر إخضاعه الموصل ، حضر عند الخليفة القائم « لخمس بقين من ذى القعدة . . . والخليفة على سرير عال من الأرض نحو سبعة أذرع ، وعليه بردة النبى صلى الله عليه وسلم وبيده القضيب الخيزران » . فقبل السلطان الأرض وقبل يده ، وأجلس على كرسى . فقال الخليفة لرئيس الرؤساء : قل له إن أمير المؤمنين شاكر لسعيك ، حامد لفعلك ، مستأنس بقربك ، وقد ولاك جميع ماولاك الله من بلاده ، ورد عليك مراعاة عباده ، فاتق الله فيما ولاك ، واعرف نعمته عليك فى ذلك ، واجتهد فى نشر العدل وكف الظلم وإصلاح

(١) ابن الأثير جـ ١٠ ص ٣٨ .

Le Strange:Baghdad during the Abbasid Caliphate,P. 327 (١)

الرعية ، فقبل الأرض . وأمر الخليفة بإضافة الخلع عليه ، فقام إلى موضع لبسها فيه ، وعاد وقبل يد الخليفة ووضعها على عينيه ، وخاطبه الخليفة بملك المشرق والمغرب ، وأعطى العهد وخرج »[1] .

٢ — تجلت تلك العلاقات الطيبة التي سادت بين الخلفاء العباسيين وسلاطين السلاجقة ، في الخلع التي كانوا يتبادلونها ، فقد كان الخليفة إذا مالرتقى عرش الخلافة يبعث في طلب السلطان السلجوقي لأخذ البيعة وحمل الخلع السلطانية والهدايا ، كما كان السلطان السلجوقي يلتمس بعد توليه السلطنة التفويض من الخليفة العباسي .

٣ — وظهرت تلك العلاقات الطيبة جلية من ارتباط البيتين السلجوقي والعباسي برباط المصاهرة . فقد تزوج طغرلبك (في سنة ٤٥٤ هـ) من ابنة الخليفة القائم ، وتزوج المقتدى بن القائم من ابنة السلطان ألب أرسلان (سنة ٤٦٤ هـ) ، وتزوج الخليفة المستظهر من ابنة السلطان ملكشاه (٥٠٢ هـ) وتزوج الخليفة المتقى من فاطمة بنت محمد ملكشاه وأخت السلطان محمود بن محمد ملكشاه[2] .

٤ — زاد تلك العلاقات وثوقا بين البيتين العباسي والسلجوقي ، أن السلاجقة كانوا يعتنقون المذهب السني ، مذهب الخلفاء العباسيين وقيل إن السلاجقة كانوا يحترمون الخليفة العباسي ، لا لمركزه السياسي بل لأنه خليفة الله .

النزاع بين العباسيين والسلاجقة :

على أن هذه الروابط الوثيقة بين العباسيين والسلاجقة ، لم تحل دون قيام النزاع بينهم . يدل على ذلك .

١ — أن سلاطين السلاجقة تعدوا على سلطة الخلفاء وانتهكوا حرمتها .

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ٢٦٤ — ٢٦٥ .

(٢) ابن الأثير جـ ١ ص ٨ و ٢٩ و ١٩٩ .

فلما غضب السلطان ملكشاه على الخليفة المقتدى بسبب تدخله فى شئون الحكم أمره بالخروج من بغداد والإقامة فى البصرة .

٢ — واتخذ سلاطين السلاجقة لقب « ظل الله » وهو لقب كان يحتفظ به الخلفاء العباسيون لأنفسهم ، واتخذ ملكشاه لقب أمير المؤمنين ، وهو لقب لم يطلق إلا على الخلفاء فقط[1] .

٣ — أخذ السلاجقة من الخليفة المسترشد (٥١٢ - ٥٢٩ هـ) بردة الرسول التى كان يلبسها الخلفاء عند توليتهم الخلافة أو حضورهم الحفلات الدينية[2] .

٤ — لقب ملكشاه نفسه بلقب «أمير المؤمنين» وهو اللقب الذى لم يطلق إلا على الخلفاء أنفسهم .

محاولة الخلفاء العباسيين استعادة نفوذهم :

إلا أن هذه الأعمال العدائية لم تصدر عن السلاجقة إلا فى القليل النادر، وكانت معاملة السلاجقة لخلفاء بنى العباس بالحسنى ، عاملا من عوامل إحياء الأمل فى نفوسهم باعادة ما كان للخلافة العباسية من نفوذ وسلطان حتى استطاعوا فى أواخر عهد السلاجقة أن يظفروا بشىء من السلطة ، وبخاصة عندما قام النزاع بين أفراد البيت السلجوقى . يستدل على ذلك من .

١ — محاولة الخليفة المقتدى التدخل فى شئون الحكم . يقول ابن خلكان : « كان للخليفة ولدان : أحدهما المستظهر بالله ، والآخر أبو الفضل جعفر ابن بنت السلطان ... وكان الخليفة قد بايع ولده المستظهر أكبر أولاده بولاية العهد ، فألزم السلطان الخليفة أن يخلعه ، ويجعل جعفراً ولى العهد بدله ، ويسلم بغداد

---

(١) Camb. Med. Hist. Vol. IV. P. 307

(٢) Arnold : The Caliphate, P.80.

إليه ويخرج هو إلى البصرة . فشق ذلك على الخليفة ، وبالغ فى استنزال السلطان عن هذا الرأى فلم يفعل ، وطلب المهلة عشرة أيام ليتجهز فأمهله ، فقيل إن الخليفة فى تلك الأيام جعل يصوم ، وإذا أفطر جلس على الرماد للإفطار ، وهو يدعو الله سبحانه وتعالى على السلطان ، فرض السلطان فى تلك الأيام ومات وكفى الخليفة أمره[١] » . وبموته اعتلى عرش السلطنة محمود بن ملكشاه ولقب « ناصر الدنيا والدين » ، وفى اليوم التالى مات الخليفة المقتدى .

٢ – محاولة الخليفة المسترشد (٥١٢ – ٥٢٩ هـ) إعادة ما كان لخلفاء بنى العباس الأول من نفوذ وقوة . ولكنه فشل فى هذا السبيل ، رغم أن السيوطى وصفه بأنه « كان ذا همة عالية وشهامة زائدة وإقدام ورأى وهيبة شديدة ضبط أمور الخلافة ورتبها أحسن ترتيب وأحيا رسم الخلافة ونشر عظامها وشيد أركان الشريعة وطرز أكمامها وباشر الحروب بنفسه[٢] . وقد خرج الخليفة المسترشد سنة ٥٢٠ هـ على السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه وهزم قواته ، وكاد يستقل بأمور الخلافة لولا مساعدة زنكى والى البصرة للسلطان . ولما مات محمود حرض المسترشد بعض أمراء البيت السلجوقى على الخروج على السلطان الجديد ، ثم حارب زنكى وشتت جيوشه وطاردها حتى الموصل (٥٢٧ هـ) حيث حاصره ثلاثة أشهر ، ثم سار بجيشه وبصحبته سلجوق أحد أمراء البيت السلجوقى ، والتقى مع جند مسعود على مقربة من همزان[٣] ولكن المسترشد هزم وأسره جند مسعود وقتلوه .

وحاول الخليفة الراشد (٥٢٩ – ٥٣٠ هـ) بن المسترشد الخليفة المقتول الثأر لأبيه ، ولكن سعودا سار إلى بغداد وحاصرها وأرغم الخليفة على الهرب

---

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٦٤ .
(٢) السيوطى ج ٢ ص ١٦٤ .
(٣) ابن الأثير ج ١ ص ٢٧١ — ٢٧٢ و ٢٨٩ .

إلى الموصل والاحتماء بعماد الدين زنكي ، وإذ ذاك جمع مسعود القضاة والشهود وكتب محضراً بخلعه . ولم يلبث أن قتل الراشد على باب أصبهان وذلك في سنة ٥٣٢ هـ ومات السلطان مسعود سنة ٥٤٤ هـ . وبموته أفل نجم البيت السلجوقي، فقد خلفه سلاطين قضوا وقتهم في اللهو واللعب والإدمان على شرب الخمر .

وتصادف أن كان على عرش الخلافة في ذلك الوقت خليفة عباسي على جانب كبير من الشجاعة والشهامة يدعى المقتفي (٥٣٠ — ٥٥٥ هـ) ، وفيه قال السيوطي أنه قليل المثل في الأئمة ، لايجرى في دولته أمر وإن صغر إلا بتوقيعه ، جدد معالم الإمامة ومهد رسوم الخلافة ، وباشر الأمور بنفسه ، وغزا غير مرة ، ولم ير مع سماحته ولين جانبه ورأفته بعد المعتصم خليفة في شهامته وصراحته وشجاعته مع ما خص به من زهده وورعه وعبادته .

وكان السلطان مسعود قد تنبأ قبل وفاته بما سيكون للخليفة المقتفي من عظم الشأن فقال : « لقد اجلسنا في الخلافة رجلا عظيما ، فالله تعالى يكفينا شره »[1] . وسار السلطان مسعود في سنة ٥٥١ إلى بغداد وحاصرها ولكنه عاد منهزماً . وكان ذلك نهاية العهد السلجوقي في العراق .

ويمكن القول بوجه عام أن الخليفة العباسي في العصر الثاني قد أصبح ألعوبة في أيدي الأتراك وبني بويه والسلاجقة، يسجنونه أو يعزلونه أو يقتلونه ، وصار عاجزا عن التصرف في شئونه . ولكنه رغم أن فقد سلطته الزمنية ، فقد تمتع بسلطته الدينية ، ممثلة في أن يحصل أمراء المسلمين على تفويض من الخليفة يجعل سلطانهم شرعيا ، باعتباره خليفة للنبي صلى الله عليه وسلم . على أن الخليفة لم يكن من القوة بحيث يستطيع أن يعارض في شيء ، بل كان يقابل هذه المطالب

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ٢٩٢ .

بالارتياح والقبول ، على أساس أنها اعتراف بسلطته النظرية [1] . يؤيد ذلك مارواه السيوطى من أنه « فى سنة تسع وسبعين وأربعمائة ، أرسل يوسف ابن تاشفين صاحب سبتة إلى المقتدى يطلب أن يسلطنه وأن يقلده مابيده من البلاد ، فبعث إليه الخلع والأعلام والتقليد ولقبه أمير المؤمنين ، ففرح بذلك وسر فقهاء المغرب » [2] .

وتقاسم ملك السلاجقة دول شتى تعرف باسم دول الأتابكة . وكان أقوى الدول منافسة للسلاجقة هى دولة خوارزم [3] إحدى دول الأتابكة [4] التركية.

وفى عهد الخليفة المستضىء بالله العباسى (٥٦٦ — ٥٧٥ هـ) تمكن علاء الدين تكش أخو سلطان شاه بن إيل أرسلان بن أتسز ، من الاستيلاء على بلاد خوارزم والاستقلال بها ومن القضاء بعد ذلك على ملك السلاجقة بالعراق ، واتسع ملك علاء الدين تكش حتى امتد من أقاصى بلاد ما وراء النهر شرقاً إلى بلاد الرى التى استولى عليها بعد قضائه على السلاجقة .

ولكن مُلك علاء الدين فى الرى لم يكن ثابتاً ، فقد عوّل الخليفة الناصر لدين الله العباسى (٥٧٥ — ٦٢٢هـ) على أن تكون له سيادة الرى بعد رحيل خوارزم شاه عنها ، فأرسل إليها جيشاً استردها من عامل علاء الدين تكش ، فعاد هذا إلى الرى واستردها من جند الخليفة . وبعد وفاة علاء الدين تكش،

---

(١) Arnold : The Caliphate. P. 83

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٨١ .

(٣) أسس هذه الدولة محمد بن أنوشتكين ، وكان أبوه مملوكا لأمراء البيت السلجوقى ، فنشأ نشأة طيبة وعرف بالأدب وتوفر على العلم ، كما كان على الهمة فعينه حبشى قائد بركياروق على بلاد خوارزم ولقبه خوارزم شاه . وبموته سنة ٥٢١ هـ خلفه ابنه أتسز ، فاكتسب محبة السلطان ورسخت أقدام هذا البيت .

(٤) الأتابكة : يعبر عن صاحبها « أتابك العساكر » ، وأصله أطابك ومعناه « الوالد الأمير » وأول من لقب بذلك نظام الدولة وزير ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقى ، حين فوض إليه المملكة سنة ٤٦٥ هـ ولقبه بعدة ألقاب ، من بينها هذا اللقب .

خلفه سنة ٥٩٦ هـ ابنه قطب الدين خوارزم شاه محمد ، فطلب إلى الخليفة أن يأمر بذكر اسمه فى الخطبة بدل السلاجقة ، فرفض الخليفة ذلك ، واشتدت العداوة بينهما حتى حذف خوارزم شاه (أى ملك خوارزم) قطب الدين محمد اسم الخليفة من الخطبة على منابر بلاده . وقد بقى قطب الدين محمد فى الحكم إلى سنة ٦١٧هـ (وهى السنة التى بدأت فيها فتوح المغول) وجاء من بعده جلال الدين منكبرتى إلى سنة ٦٢٨ هـ وهو آخر شاهات هذه الأسرة .

سقوط بغداد وزوال الخلافة العباسية

كان من أثر إزدياد العداوة بين الخليفة العباسى و خوارزم شاه أن استنجد الخليفة الناصر بالتتار أو المغول[1] ، ليشغل بهم خوارزم شاه حتى يأمن شره ، ويحول بذلك دون ماقد يحدق ببلاده من خطر هجوم جيوش خوارزم شاه .

وليست هذه أول مرة يستنجد فيها خلفاء العباسيين بغيرهم : فقد راسلوا بنى بويه ليخلصوهم من استبداد الأتراك ، وكتبوا إلى طغرلبك السلجوقى لينتشلهم من تحكم البساسيرى ، وأوفدوا الرسل إلى خوارزم شاه لينجيهم شر السلاجقة ، ثم استنجدوا أخيراً بالتتار ليمنعوا أذى خوارزم شاه عنهم . ومن ثم فقد عاش خلفاء العصر العباسى الثانى تحت كنف الأتراك وبنى بويه والسلاجقة وخوارزم شاه والتتار .

---

(١) ظهر المغول فى عالم التاريخ حوالى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى ، فى الجهات الشمالية من بلاد الصين ، فى الأراضى التى نبتت فيها أصول قبائل الهون والترك ، وهم يمتون إليهم بصلة قوية . وقد اختلفت تسميتهم باختلاف العصور . ويظهر أن الشعوب التى كانت مغولا فى الأصل واللغة ، كانت تسمى باسم « التتر » أو « التتار » ، إلا أن تلك التسمية قد عيرت وسميا بعد جنكيزخان — وهو الثامن من سلالة مؤسسى هذه الأسرة — بكلمة « مغل » Moghul أو Moghol فى بلاد منغوليا وفى أواسط آسيا ، وكذا فى بلاد الهند فيما بعد . حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام بين المغول ، مجلة الجامعة المصرية ، مايو ١٩٣٣ . على إبراهيم حسن : دراسات فى تاريخ المماليك ص ١٠٩ .

ولم يكن الخليفة يتوقع وقت دعوته للتتار أنهم يستطيعون الوصول بسهولة إلى بلاده لبُعد الشقة ووقوف جند خوارزم شاه فى سبيلهم .

وقيل إن سبب غزو التتار لبلاد خوارزم أنه فى سنة ٦١٢ هـ ، أرسل جنكيزخان من قِبَله رسلا من كبار المسلمين الذين كانوا يقيمون فى بلاده إلى خوارزم شاه ، يطلب منه عقد معاهدة بين البلدين ، وأرسل إليه هدايا نفيسة ، فأجاب خوارزم شاه طلب جنكيزخان ، وتمت المعاهدة بينهما ، وأخذ التجار يترددون على البلدين ، مما وجه أنظار التتار إلى البلاد الإسلامية .

فى تلك الفترة الحاسمة من تاريخ الدولة ، ظهرت بجلاء مطامع التتار ، فقد أغاروا على بخارى وسمرقند قصبة بلاد ماوراء النهر وكعبة العلماء ومعين الثروة والرخاء ، ثم استولوا على نيسابور والرى وهمذان وأذربيجان ، وغزا جرجان وأرمينية الكبرى مرتكبين أقسى الفظائع وأشدها هولا ، وقضوا بذلك على دولة خوارزم وامتدت فتوحهم إلى أوربا .

وكان استعداد التتار للهجوم على بغداد ، فى عهد الخليفة العباسى المستعصم (٦٤٠ — ٦٥٦ هـ = ١٢٤٢ - ١٢٥٨ م) ، آخر خلفاء العباسيين فى بغداد . وكان ضعيف الرأى ، غير ملم بأحوال دولته ، منصرفاً إلى اللهو واللعب . لذلك لم يستمع إلى نصح وزيره مؤيد الدين بن العلقمى حين حذره بالاحتياط والاستعداد لمواجهة خطر المغول ، فلم يزد إلا استهتاراً بقوة العدو[1] . قال صاحب الفخرى : « كان المستعصم رجلا خيرا متدينا ، لين الجانب سهل العريكة ، عفيف اللسان ، حمل كتاب الله تعالى ... وكان سهل الأخلاق ، وكان خفيف الوطأة . إلا أنه كان مستضعف الرأى ، ضعيف البطش ، قليل الخبرة بأمور المملكة ، مطموعا فيه ، غير مهيب فى النفوس ولا مطلع على حقائق الأمور ، وكان زمانه ينقضى

---

(١) الفخرى ص ٢٩٤ .

أكثره بسماع الأغانى والتفرج على المساخرة ، وفى بعض الأوقات يجلس بخزانة الكتب جلوساً ليس فيه كبير فائدة ، وكان أصحابه مستولين عليه وكلهم جهال من أراذل القوم ، إلا وزيره مؤيد الدين محمد بن العلقمى فإنه كان من أعيان الناس وعقلاء الرجال ، وكان مكتوف اليد مردود القول يترقب العزل والقبض صباح مساء ... » ثم يقول : « وفى آخر أيامه قويت الأراجيف بوصول عسكر المغول صحبة السلطان هولاكو ، فلم يحرك ذلك منه عزماً ، ولم ينبّه منه همة ، ولا أحدث عنده هما ، وكان كلما سمع عن السلطان من الاحتياط والاستعداد شيء ظهر من الخليفة نقيضه من التفريط والإهمال ، ولم يكن يتصور حقيقة الحال فى ذلك ، ولا يعرف هذه الدولة - يسّر الله إحسانها وأعلى شأنها - حق المعرفة . وكان وزيره مؤيد الدين بن العلقمى يعرف حقيقة الحال فى ذلك ، ويكاتبه بالتحذير والتنبيه ، ويشير عليه بالتيقظ والاحتياط والاستعداد ، وهو لا يزداد إلا غفولا . وكان خواصه يوهمونه أنه ليس فى هذا كبير خطر ، ولا هناك محظور ، وأن الوزير إنما يعظم هذا لينفق[1] سوقه ولتبرز إليه الأموال لتجند بها العساكر ، فيقتطع منها لنفسه »[2] .

بعد أن قضى هولاكو على طائفة الحشاشين ، أرسل إلى الخليفة المستعصم من مدينة همذان التى اتخذها مركزاً لقيادته كتابا ينذره فيه بالحرب ، إذا لم يقدم نفسه ويسلم حاضرة ملكه إلى المغول ، « فوقع التعيين من ديوان الخليفة على ولد أستاذ الدار ، وهو شرف الدين عبد الله بن الجوزى ، فبعث رسولا إلى خدمة الدركاة السلطانية بهمذان ، فلما أن وصل وسمع جوابه ، علم أنه جواب مغالطة ومدافعة ، فحينئذ وقع الشروع فى قصد بغداد وبث العساكر إليها »[3] .

---

(١) نفقت السلعة : غلت ورغب فيها .
(٢) الفخرى ص ٢٩٤ - ٢٩٧ .
(٣) الفخرى ص ٢٩٧ .

سار هولاكو — بعد شهرين — بجنده إلى بغداد فى شهر نوفبر عام ١٢٥٧ م (٦٥٥ ﻫ) فى عهد كوبيلاى خان (٦٥٥ – ٦٩٣ ﻫ) إيلخان (إمبراطور) المغول فى فارس ، وبصحبته كثير من أمراء المسلمين ، وعسكر حول منتصف المحرم سنة ٦٥٦ﻫ (يناير ١٢٥٨ م) على مقربة من بغداد من ناحية الشرق . وسهل على المغول هذا الحصار ، تلك المؤامرات التى كان يدبرها الشيعة لأهل السنة داخل أسوار المدينة .

ويصف صاحب الفخرى فتح بغداد على يد التتار ، فيقول : « أجفل الناس من دُجيل والإسحاق ونهر مَلِك ودخلوا الى المدينة بنسائهم وأولادهم ، حتى كان الرجل أو المرأة يقذف بنفسه إلى الماء ، وكان الملاح إذا عبر أحداً فى سفينة من جانب إلى جانب يأخذ أجرته سواراً من ذهب أو طرازاً من زَرْكش أو عدة من الدنانير . فلما وصل العسكر السلطانى (أى جند هولاكو) إلى دُجَيل ، وهو يزيد على ثلاثين ألف فارس ، خرج إليه عسكر الخليفة صحبة مقدم الجيش مجاهد الدين أيبك الدويدار ، وكان عسكراً فى غاية القلة ، فالتقوا بالجانب الغربى من بغداد قريباً من البلد ، فكانت الغلبة فى أول الأمر لعسكر الخليفة ، ثم كانت الكثرة للعسكر السلطانى ، فأبادوهم قتلا وأسرا . وأعانهم على ذلك نهر فتحوه فى طول الليل ، فكثرت الوحول فى طريق المنهزمين ، فلم ينج منهم إلا مَنْ رمى بنفسه فى الماء أو من دخل البرّية ومضى على وجهه إلى الشام . ونجا الدويدار فى جمعية من عسكره ووصل إلى بغداد ، وساق باجو حتى دخل البلد من جانبه الغربى ووقف بعساكره محاذى التاج ، وجاست عساكره خلال الديار ، وأقام محاذى التاج أياما . وأما حال العسكر السلطانى ، فإنه فى يوم الخميس رابع المحرم من سنة ٦٥٦ ﻫ ثارت غبرة عظيمة شرق بغداد على درب يعقوبا بحيث عمت البلد ، فانزعج الناس من ذلك وصعدوا إلى أعالى السطوح والمنابر يتشوفون ، فانكشفت الغبرة عن عساكر السلطان وخيوله ولفيفه وكراعه . وقد طبّق

وجه الأرض وأحاط ببغداد من جميع جهاتها ، ثم شرعوا فى استعمال أسباب الحصار ، وشرع العسكر الخليفى فى المدافعة والمقاومة إلى اليوم التاسع عشر من شهر المحرم ، فلم يشعر الناس إلا ورايات المغول ظاهرة على سور بغداد من برج يسمى « برج العجمى » من ناحية باب من أبواب بغداد يقال له « باب كلواذى » وكان هذا البرج أقصر أبواب السور ، وتقحم العسكر السلطانى هجوماً ودخولا لجرى من القتال الذريع والنهب العظيم والتمثيل البليغ ، ما يعظم سماعه جملة فى الظن بتفاصيله »[1] .

وأسر المغول الخليفة المستعصم وأودعوه هو وأسرته فى معسكرهم ، ثم استقر هولاكو فى قصر المأمونية فى شرق بغداد . وقد ذبح المغول السواد الأعظم من الأهالين كما تذبح الشاة ، وأضرموا النيران فى المدينة ، فأتلفت مسجد الخليفة وضريح موسى الكاظم ومقابر الخلفاء فى الرصافة ، كما خرجت معظم الشوارع والطرقات والبيوت ، حتى أصبحت المدينة أثراً بعد عين . واستأنفت جموع المغول سيرها لمواصلة الفتح والنهب ، فخربوا المساجد ليحصلوا على قبابها المذهبة ، وهدموا القصور بعد أن جردوها مما بها من التحف الفارسية والصينية النادرة ، وخربوا المكاتب وأتلفوا الكتب التى بها إما بإحراقها أو برميها فى دجلة ، كما قتلوا معظم أهل المدينة دون أن يستثنوا امرأة وطفلا أو يعطفوا على مريض أو يقدروا عالماً . وأمر هولاكو قبل رحيله بتجديد بناء مسجد الخليفة وضريح موسى الكاظم .

انتهت هذه الحوادث المحزنة بقتل الخليفة المستعصم وأولاده ، وسقوط بغداد فى أيدى التتار بعد أن ظلت زهاء خمسة قرون حاضرة للدولة العباسية ومركزاً للعالم الإسلامى ومهبطاً للعلماء . ولم تعد تلك المدينة الزاهرة منذ ذلك الحين حاضرة الإسلام ، وإن كانت لم تزل أهم بلاد العراق العربى . وبسقوط الدولة

---

(١) الفخرى ص ٢٩٧ .

العباسية ، انتهت الخلافة بنظامها القديم واختل نظامها حتى أصبح فى مقدرة كل أمير قوى متغلب على جهة إسلامية أن يستجيز لنفسه لقب الخلافة .

وبعد مقتل المستعصم ، خيل للمسلمين أن العالم على وشك الانحلال وأن الساعة آتية عن قريب ، وصاروا يؤولون كل ظاهرة على أنها تعبير عن سخط الله ، واتخذوها أدلة على ماسيحدث فى العالم من انقلاب سيء لخلوه من خليفة ، لأن الناس كانوا يرون ضرورة وجود خلافة تُبارك العالم وتجعل سلطان الولاة شرعيا[1] .

الخلافة العباسية فى القاهرة والقسطنطينية

بمقتل المستعصم سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) انتهت الخلافة العباسية فى بغداد ولم تقم لها قائمة حتى أحياها بيبرس سلطان المماليك فى مصر . ذلك أنه فى سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) استدعى بيبرس الأمير أبا العباس أحمد الذى كان قد بايعه « قطز » فى دمشق ، غير أنه لم يحضر ، وسبقه الأمير أبو القاسم أحمد إلى القاهرة بعد فراره من وجه التتار المتغلبين على بغداد . وصل أبو القاسم أحمد إلى القاهرة فى ٨ رجب سنة ٦٥٩ هـ فأعد السلطان العدة لاستقباله ، وخرج للقائه ، ومعه الوزير الصاحب بهاء الدين بن حنا ، وقاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز وجميع الأمراء والجند وأعيان القاهرة ومصر والمؤذنون والشهود واليهود يحملون التوراة والنصارى يحملون الإنجيل . وساروا جميعاً إلى المطرية لمقابلته ، ولما وقع نظر الظاهر بيبرس على هذا الأمير العباسى[2] ترجل إجلالا ، وتقدم فعانقه. وركب معه السلطان يتبعهما الجيش حتى وصلا إلى القلعة[3] . وهنا تأدب

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣٠٩ .

(٢) شعار العباسيين هو السواد .

(٣) ابن أيبك : كنز الدرر ج ٨ القسم الأول ص ٦٣ . المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٤٩

السلطان الظاهر ولم يجلس على مرتبة ولا فوق كرسى[١] بحضرة الخليفة . وفى يوم الإثنين ١٣ رجب سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦٠ م) عقد الظاهر بيبرس مجلساً فى قاعة الأعمدة بالقلعة دعا إليه القضاة والعلماء والأمراء وشيخ الإسلام عز الدين ابن عبد السلام وسائر أرباب الدولة، والعرب الذين قدموا إلى مصر مع أبى القاسم أحمد[٢] ، وذلك لإثبات نسبه وتقرير بيعته ، لأن الخلافة قد شغرت منذ مقتل المستعصم بالله ، فسر السلطان باتصال أسبابها وتجديد أثوابها وإقامة منارها وإظهار شعارها ، لتكون ثابتة الأساس متصلة فى بنى العباس ، كما سبقت الوعود النبوية بأنها خالدة فى هذه الذرية »[٣] .

ولما انتظم عقد المجلس جلس بيبرس بين يدى الإمام أبى القاسم أحمد ، واستدعى العربان الذين قدموا معه من بغداد ، « سئلوا عنه فى ذلك المجلس : هل هذا هو الإمام أحمد بن أمير المؤمنين الظاهر محمد بن الناصر أحمد ؟ فأجابوا بنعم . وشهد جماعة بالاستفاضة عند القاضى تاج الدين بن الأعز بذلك » . فأقر ذلك أيضاً بعض الفقهاء والقضاة ، فقبل قاضى القضاة شهاداتهم وحكم بصحة نسبه وبايعه بالخلافة . ثم قام بعد ذلك الملك الظاهر بيبرس وبايعه « على كتاب الله وسنة رسول الله ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والجهاد فى سبيل الله ، وأخذ الأموال بحقها ، وصرفها فى مستحقها »[٤] ، وبايعه بعد السلطان شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام ، ثم الأمراء وكبار رجال الدولة ثم الناس على اختلاف طبقاتهم . وتلقب أبو القاسم أحمد بلقب « الخليفة المستنصر بالله »[٥] .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٠١ .

(٢) ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار (مخطوط) جـ ٦ القسم الثالث ص ٦٠٥

(٣) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٩ .

(٤) المصدر السابق ورقة ٢٩ . المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٤٥٠ .

(٥) يعد المستنصر بالله الخليفة الثامن والثلاثين من خلفاء بنى العباس وسار بينه وبين العباس أربعة وعشرون أبا . ولقب بالمستنصر لقب أخيه . ولم يتفق أن لقب خليفة بلقب أخيه سواه . المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٤٥١ .

ولما تمت البيعة قلد الخليفة المستنصر بالله السلطان الملك الظاهر «البلاد الإسلامية وما ينضاف إليها ، وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار »[١].
وكتب السلطان إلى النواب والحكام فى سائر الولايات التابعة لمصر بأخذ البيعة للخليفة المستنصر بالله ، والدعاء له فى خطبة الجمعة على المنابر[٢] ، والدعاء للسلطان من بعده ، وأن تنقش السكة باسمهما .

ثم دعاه السلطان ليخطب ويصلى بالناس صلاة الجمعة. فاجتمع القضاة والعلماء وسائر الأمراء ، وخطب الخليفة أبو القاسم أحمد خطبة أثنى فيها على فضل الملك الظاهر . الذى رد الخلافة إلى بنى العباس ، استهلها بقراءة سورة الأنعام ، ثم صلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، وترضّى عن الصحابة ، وذكر شرف بنى العباس ، ودعا للملك الظاهر »[٣] ، فامتدح الناس خطبة الخليفة ، وزادت عناية السلطان به .

وفى ٤ شعبان سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦٠ م) ركب الخليفة والسلطان والوزير والقضاة والأمراء وكبار رجال الدولة إلى خيمة أقيمت خارج القاهرة ، وهناك ألبس الخليفة السلطان الملك الظاهر بيبرس خلعة السلطنة . وعلى أثر ذلك ، عقد اجتماع تلا فيه فخر الدين بن لقمان — صاحب ديوان الإنشاء — تفويض الخليفة العباسى للملك الظاهر بيبرس،وذلك تقوية لعرشه على أعدائه من أمراء المماليك، وإثباتا لأحقية المماليك فى تولى شئون مصر ، وفى هذا التفويض اعتبر الخليفة نفسه حاكما على أراض لم تحكمها الدولة العباسية منذ قرون ، بل ادعى لنفسه السيادة الشرعية على العالم الإسلامى . ولما فرغ فخر الدين بن لقمان من قراءة هذا التفويض سار السلطان وعليه الخلعة يتقدم موكب السلطنة ، عائداً إلى القاهرة

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٠١ .
(٢) كان أول من دعى له على المنابر مع الخليفة : عضد الدولة بن بويه فى خلافة الطائع بالله (٣٦٣ — ٣٨١ هـ و ٩٧٤ — ٩٩١ م) .
(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٠١ .

حتى وصل إلى باب النصر ، ثم سار فى طريق مفروش بالبسط يمتد من باب النصر إلى القلعة ، ومر بشوارع القاهرة الرئيسية ، وتقدم السلطان الموكب وتلاه الخليفة ، فالوزير الصاحب بهاء الدين بن حنا يحمل التقليد ، على رأسه وتبعهم الأمراء وسار الناس مشاة . وبعد أن خرج الموكب من باب زويلة ، سمح للأمراء بالركوب واستمر الموكب فى سيره حتى وصل إلى القلعة . وهناك جلس بيبرس على عرش ملكه . وهكذا تمت مراسيم اعتلاء بيبرس على عرش السلطنة المصرية بصفة رسمية تؤيدها الصفة الشرعية التى نالها من قبل الخليفة ، فأمن بذلك جانب أعدائه ومنافسيه فى الداخل والخارج . وازدهرت الخلافة العباسية فى مصر ، بعد أن قضى عليها سنة ٦٥٦ ﻫ .

عزم السلطان بيبرس بعد ذلك على إعادة الخليفة إلى بغداد ، ولم يتضح تماما الغرض الذى كان يرمى إليه هذا السلطان من ذلك ، وكان بيبرس قد عزم على أن يرسل مع الخليفة عشرة آلاف فارس ويجهزه بالمال والسلاح لمعاونته فى إعادة الخلافة العباسية وإقامة نفسه خليفة فى بغداد ، وخرج السلطان مع الخليفة إلى دمشق . غير أن أحد أمراء الموصل أشار إلى السلطان أن يعدل عن هذا الرأى وقال له : « إن الخليفة إذا استقر أمره ببغداد نازعك وأخرجك من مصر »[1] ، فخاف بيبرس عاقبة هذا الأمر ، ولم يجهز الخليفة إلا بثلثمائة فارس ، سار على رأسهم إلى بلدة الرحبة الواقعة على نهر الفرات ، حيث انضم إليه أربعمائة فارس من عرب العراق الذين لجأ إليهم عقب هربه من بغداد بعد مقتل الخليفة المستعصم ، وتقدم الخليفة إلى مشهد على ، حيث التقى بأبى العباس أحمد يقود سبعمائة فارس من التركمان ، فاتفقا معا على إعادة الخلافة العباسية فى بغداد ، واتجها نحو الحديثة الواقعة على نهر الفرات يريدان هيت حيث أحاطت بهم جنود التتار وهزموهم وقتلوا معظمهم ، ولم ينج

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٤٦٢ .

منهم سوى الأمير أبى العباس أحمد ونحو الحسين فارسا[1] . أما الخليفة أبو القاسم أحمد فلم يقفوا له على أثر . ولما علم بيبرس بمقتل الخليفة المستنصر بالله تأسف غاية الأسف ، لأن ما بذله فى سبيل إقامة خلافة عباسية فى القاهرة « قد راح فى البارد » على حد تعبير ابن إياس[2] ، إذ أنه بقتل هذا الخليفة قد فقد الأمل فى استمرار قيام خلافة عباسية فى مصر ، تجعل سلطانه ، وسلطان خلفائه شرعيا .

وسرعان ما تبددت هموم بيبرس وسنحت له الفرصة بقيام الخلافة العباسية فى مصر فى شخص أبى العباس أحمد الذى كان قد بايعه قطز فى دمشق واستدعاه بيبرس عند جلوسه على العرش ، لكن أبا قاسم أحمد كان قد سبقه إلى مصر . وأحضر السلطان أبا العباس أحمد راكبا إلى الإيوان الكبير بقلعة الجبل ، حيث أجلسه ، وجلس بجانبه ، وقرىء نسبه ولُقِّب بالحاكم بأمر الله أمير المؤمنين . ثم أمر السلطان بأن يخطب باسم الخليفة واسمه على منابر مصر وأعمالها[3] ، وأن يقدم اسم الخليفة فى الدعاء يوم الجمعة على المنابر قبل اسمه ، ورتّب له ما يكفيه هو وأولاده[4] . وفى يوم الجمعة ١٠ المحرم سنة ٦٦١ هـ (١٢٦٣ م) خطب الخليفة وصلى بالناس بالقلعة ، ثم ألقى خطبة ثانية . وفى الخطبتين ذكر الجهاد والإمامة ، وتعرض إلى ما حدث من زوال الخلافة العباسية وفصّل الظاهر بيبرس فى إقامتها بعد زوالها ، وخاصة أنه رأى فى تلك الآونة ضرورة استمرار قيام الخلافة العباسية بمصر ، إذ أنه لم يفكر بعد مبايعة الحاكم بأمر الله فى إعادة الخلافة العباسية فى بغداد كما فعل مع سلفه المستنصر بالله .

قصر بيبرس سلطان هذا الخليفة على الأمور الدينية دون سواها وضيّق

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٤٦٢ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٠٢ .

(٣) خطب للحاكم بأمر الله فيما بعد على منابر دمشق ومكة والمدينة وبيت المقدس .

(٤) ابن إياس : نفس المصدر والجزء ص ١٠٢ .

حدود سلطته حتى جعلها لا تتعدى ذكر اسمه فى الخطبة فى مصر والأقطار التابعة لها[١] . وقد شملت مدة خلافة الحاكم بأمر الله عهود السلاطين : بيبرس وابنيه بركة خان وسلامش ، وقلاوون وابنيه خليل والناصر محمد (فى عهد سلطنته الأولى) ، وكتبغا ولاجين والناصر محمد (فى عهد سلطنته الثانية) ، وظل فى الخلافة حتى توفى سنة ٧٠١ هـ (١٣٠١م) . فكانت مدة خلافته أربعين سنة ، وهو أول من دفن بمصر من الخلفاء العباسيين ، وظل الخليفة الحاكم بأمر الله مقيما كالسجين بالبرج الكبير فى قلعة الجبل منذ سنة ٦٦١ هـ (١٢٦٢ م) أى مدة ثلاثين سنة . وبقى لا يجتمع بأحد من أهل الدولة إلى أن أفرج عنه السلطان الأشرف خليل بن قلاوون وأعاد إليه خطبة الجمعة ، وكان قد حرم حتى من القيام بهذا الواجب[٢] ، ثم عهد إليه بالدعوة إلى الحث على قتال التتار واستخلاص بلاد العراق من أيديهم[٣] . وفى عهد السلطان لاجين نقل الخليفة الحاكم بأمر الله سنة ٦٩٦ هـ من البرج الكبير بالقلعة إلى القصر المعروف باسم «مناظر الكبش» ، التى أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب حوالى سنة ٦٤٠ هـ على جبل يشكر بجوار جامع ابن طولون وأصبحت بعده فى المنازل الملوكية . وأذن له بالخروج من القصر للنزهة كيفما شاء ، كما سمح له بأن يخطب يوم الجمعة بجامع القلعة ، وسار يركب مع السلطان فى المواكب ثم أذن له بالذهاب إلى القلعة مرة فى كل شهر ليهنىء السلطان بحلول الشهر الجديد[٤] .

فى ١٦ جمادى الأولى سنة ٧٠١ هـ (١٣٠١م) أوصى الخليفة الحاكم بأمر الله ـ بحضور القضاة ـ بولاية العهد من بعده لابنه أبى الربيع سليمان . وتوفى

---

(١) وبذلك قلل بيبرس نفوذ الخليفة الحاكم بأمر الله ، مع أنه أمر بنقش اسم الخليفة المستنصر بالله على السكة .

(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٦٨٨ . السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٤٨ .

(٣) ابن أيبك : كنز الدرر جـ ٨ القسم الثالث ص ١٤٧ .

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٠٢ .

الحاكم بعد ذلك بيومين ، فاستشار السلطان الناصر قاضى القضاة تقى الدين ابن دقيق العيد فى أمر تولية سليمان الخلافة بعد أبيه فأفتى بصلاحيته . وعلى أثر ذلك استدعى السلطان أبا الربيع سليمان إلى القلعة وعقد مجلساً حضره القضاة والأمراء ، وبايع أبا ربيع بالخلافة ولقبه المستكفى بالله ، وأمره بأن يقيم فى قصر الكبش وبأن يمنح ما كان مقرراً لوالده الحاكم من الرواتب[1] ، كما حدد له اختصاصاته على نحو ما كان متبعاً فى أيام أبيه . وأقام الخليفة المستكفى بالله بمناظر الكبش حتى نقل إلى القلعة فى ٢٣ ذى القعدة سنة ٧٣٦ هـ (١٣٣٠ م) حيث أقام أبوه الحاكم من قبل ، ولكن الناصر حد بعد ذلك من حريته وأمر برحيله إلى مدينة قوص فى أواخر سنة ٧٣٧هـ (١٣٣٦ م)[2] وقيل فى سنة ٧٣٨هـ (١٣٣٧ م)[3]، فوصل إليها هو وأولاده وسائر أفراد أسرته الذين بلغ عددهم نحو مائة نفس ، وفى هذا منتهى الدلالة على أن الخليفة العباسى فى مصر كان خاضعاً لأهواء السلطان من رضاء وغضب ، وتوفى الخليفة بمدينة قوص .

بموت المستكفى بالله ، اعتلا عرش الخلافة ، الخليفة إبراهيم الذى ينتهى نسبه إلى الخليفة الحاكم بأمر الله ثانى خلفاء العباسيين فى مصر ولقبه الواثق ، وفى عهده اضمحل شأن الخلافة وانحطت قيمتها عما كانت عليه . فقد اتصف الخليفة الجديد بسوء التدبير وانصرف إلى اللهو واللعب ومخالطة السفلة من الناس ، وكان يستدين المال دون أن يرده إلى صاحبه .[4] وحرم الواثق حتى

---

(١) كانت هذه الرواتب عبارة عن خمسمائة دينار فى الشهر وثمانى أرادب قمح وثلاثة أرادب شعير ، وفى كل يوم أربع جرايات خبز وعشرين رطلا من اللحم ، عدا الكسوة Zetterstèen : تاريخ سلاطين المماليك ص ٢٠١ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٥٢ .

(٣) Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ١٩٤ .

(٤) حكم فى بغداد فى نهاية العصر العباسى الأول الخليفة الواثق (٢٢٧ — ٢٣٢ هـ = ٧٤٢ — ٧٤٧ م) بن المعتصم . ولذا فإن السيوطى (تاريخ الخلفاء ص ٣٢٥ =

ذكر اسمه فى الخطبة لأن السلطان الناصر اتفق هو وقاضى القضاة على أن يقتصر الأمر على اسم السلطان ، وبذلك « رحل بموت المستكفى اسم الخلافة عن المنابر كأنه ما علا ذروتها وخلا الدعاء للخلفاء من المحاريب كأنه ما قرع بابها ومروتها »[1] . ولما دنا أجل السلطان الناصر أوصى بتحويل الخلافة إلى أحمد ابن الخليفة المستكفى بالله وندم على تولية الواثق بالله إبراهيم . ولما ولى السلطنة أبو بكر بن الناصر ، أقر وصية أبيه .

ولم يعهد الخليفة أحمد بن المستكفى بالله بالخلافة لأحد بعد موته ، فأمر الأمير شيخو ، وكان يومئذ أتابك العساكر وصاحب السلطة الفعلية فى الدولة فى عهد السلطان الصالح صلاح الدين صالح (٧٥٢ – ٧٥٣ هـ) – أن يجتمع القضاة والأمراء والأعيان للمشاورة فيمن يلى الخلافة . فوقع اختيارهم على أخى الخليفة أحمد المتوفى واسمه أبو بكر ، فبايعوه سنة ٧٥٣ هـ ، ولقب المعتضد بالله ، وكنى أبا الفتح ، وضم إلى اختصاصاته نظر المشهد النفيسى[2] وكان المعتضد بالله « عارفا ، مهابا ، واسع الفكرة ، محبا لأهل الخير والعلم » . وقد ظل خليفة على مصر حتى توفى سنة ٧٦٣ هـ (١٣٦١ م) .

وتولى الخلافة من بعده ابنه أبى عبد الله محمد الذى تلقب « المتوكل على الله » . وقد حدث لهذا الخليفة حادث يعد الأول من نوعه فى تاريخ الخلافة العباسية فى مصر ، إذ عرض عليه أمراء مصر أن يضم إلى خلافته عرش

= قد أتى بمقارنة لطيفة بين الخليفتين العباسيين فى بغداد والقاهرة اللذين كان يطلق عليهما هذا الاسم . ومنها نتبين أن هذا المؤرخ قد نزل بالواثق العباسى فى مصر إلى الحضيض . يقول السيوطى : « أين هو صاحب هذا الاسم الذى طالما سرى رعبه فى القلوب وأعيت هيبته مضاجع الجنوب ، وهيهات لاتعد من القمر التماثيل ولا الناموسة وإن طال خرطومها كالفيل ، وإنما سوق الرمان قد ينفق ما كسد والهر يحكى انتفاخا صورة الأسد » .

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣٢٤ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٥٨ .

السلطنة ، ذلك أنه فى سنة ٧٧٨ هـ (١٣٧٦ م) سافر السلطان الأشرف شعبان لحج بيت الله الحرام ومعه الخليفة المتوكل والقضاة والأمراء . وفى الطريق اتحد الأمراء ضد الأشرف وأرادوا الغدر به ، ولكنه عاد خلسة إلى القاهرة ، فلم يتمكن الأمراء من تنفيذ ما اعتزموه من قتله . وعلى أثر هربه استقر رأى الأمراء على عرض السلطنة على الخليفة المتوكل على الله ، وقالوا له يا أمير المؤمنين « تسلطن ونحن بين يديك » . فامتنع الخليفة من قبول السلطنة ، وقام الأمراء بذلك العرض دون أن يكونوا قد علموا بوصول المنصور على إلى العرش[1] . وعلى الرغم من أن هذا الحادث قد عد غريباً فإن وقوعه لم يكن مستبعداً ، لما اتصف به هذا الخليفة من جميل الصفات وحميد الخلال . وظل المتوكل على الله فى منصب الخلافة إلى أن قُتل الأشرف شعبان ، وأقيم بعده المنصور علىّ . ونظراً لصغر سن ذلك السلطان ، كان أينبك البدرى هو المهيمن على شئون الدولة على نحو ما كان متبعاً فى عصر السلاطين الأطفال .

وكان هذا الأمير يحقد على المتوكل موقفه من خلع الأشرف شعبان وقتله وما كان من عرض السلطنة عليه من طريق بعض الأمراء ، فبعث إلى عباسى آخر اسمه زكريا وأقامه خليفة سنة ٧٧٩ هـ بغير مبايعة ولا إجماع ولقبه « بالمستعصم بالله »[2] وأمر بنفى الخليفة المتوكل إلى قوص ليبقى بها بقية حياته[3] كما فعل الناصر محمد مع الخليفة المستكفى بالله . ولكن شفع فى الخليفة بعض الأمراء لدى أينبك . فلم يرحل إلى قوص ، بل اكتفى بخلعه وبقى مقيما فى داره بالقاهرة ، ثم عاود الأمراء كلامهم مع أينبك فى أمر عودة الخليفة المتوكل إلى منصبه ، فعاد إليه وعزل زكريا . وبذلك كانت مدة خلافة زكريا خمسة

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا) جـ ٥ القصل الأول ص ٢٢٣ . السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣٣٤ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٥٩ .

(٣) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣٣٤ .

عشر يوما، أو على حد تعبير ابن إياس : « مثل سِنة من النوم أو يوم أو بعض يوم »[1]. ولكن المتوكل مالبث أن عزل على يد برقوق مؤسس دولة المماليك البرجية سنة ٧٨٥ هـ وحبسه بقلعة الجبل ، وعقد البيعة للإمام أبى حفص عمر الواثق بالله ، فظل خليفة إلى أن توفى فى ١٧ شوال سنة ٧٨٨ هـ ، وعيّن برقوق مكانه أخاه محمد زكريا الذى ولى الخلافة مدة يسيرة فبويع ولقب « المستعصم بالله » ، واستمر فى منصبه إلى ٢ جمادى الأولى سنة ٧٩١ هـ ، وإذ ذاك ندم برقوق على ما فعل بالمتوكل وأخرجه من حبسه وأعاده إلى كرسى الخلافة وخلع زكريا . واستمر المتوكل فى الخلافة إلى أن مات سنة ٨٠٨ هـ فكانت مدة خلافته خمسة وأربعين سنة ، بما تخللها من خلع وحبس .

* * *

واستمرت الخلافة العباسية بمصر ، إلى أن فتحها العثمانيون على يد السلطان سليم الأول سنة ١٥١٧ م . وقد قيل إن السلطان سليم أخذ معه الخليفة المتوكل ، آخر خلفاء العباسيين بمصر ، إلى القسطنطينية . ونزل له هذا عن الخلافة ، وسلمه شاراتها ، أى مخلفات الرسول وهى : البردة التى كان يلبسها الخلفاء العباسيون فى بغداد ، وبعض من شعر لحية النبى صلى الله عليه وسلم ، وسيف الخليفة عمر بن الخطاب .

وقد أسهب المؤرخون المعاصرون فى ذكر ما آل إليه أمر الخليفة المتوكل بعد فتح مصر ، إلا أننا لا نقف من ثنايا هذه المعلومات على أية إشارة تتضمن انتقال لقب الخلافة إلى سليم ، حتى بعد أن رحل الخليفة العباسى إلى القسطنطينية . والأدلة على ذلك :

---

(١) بدائع الزهور جـ ١ ص ٢٤١ .

١ — أنه لم يرد عن « الخليفة » أية إشارة أو ذكر فى ذلك الكتاب الطويل الذى بعث به السلطان سليم إلى ابنه سليمان ، والذى وصف فيه مدى انتصاراته التى انتهت بفتح مصر ، وأظهر سروره لفتحه الحجاز والمدينتين المقدستين : مكة والمدينة ، مما جعل له الحق فى تسمية نفسه « خادم الحرمين » ، ذلك اللقب الذى كان يتلقب به سلطان مصر من المماليك لا الخليفة العباسى من القاهرة .

٢ — أن سليم ورد إسمه فى الخطبة التى أقيمت له فى مساجد القاهرة ، فى اليوم الذى أحرز فيه النصر الأعظم — وهو ٢٣ يناير سنة ١٥١٧ م — مصحوبا بلقب « سلطان » . وكان هذا اللقب وحده هو الذى تكرر فى هذه الخطبة .

٣ — أن السلطان سليم لم ينقش على السكة التى ضربت باسمه لقباً آخر من الألقاب غير لقب السلطان ، كما كانت الحال بالنسبة إلى من جاء قبله أو بعده من السلاطين . على أن أحداً من العثمانيين لم يلقب نفسه على العملة بلقب خليفة أو إمام أو أمير المؤمنين .

٤ — أن سليمان لم يذكر فى مراسلاته مع أبيه سليم لقب الخلافة ، ولا أى لقب آخر يتصل به ، كما لا نجد فى رسائله إلى كبار الموظفين بعد اعتلائه العرش ، أن أباه كان خليفة بالمعنى الإسلامى القديم ، وإنما أشار إليه باعتباره سلطاناً فحسب ، فيقول : السلطان ، الخاقان ، خادم البحرين وغيرها من الألقاب .

٥ — أن السلطان وجد أن لقب الخلافة قد أصبح شائع الاستعمال مبتذلا وأن هذا اللقب كان يطلق فى ذلك العصر على صغار الأمراء ، حتى لم يعد له شىء من مظاهر التقديس والاحترام ، التى كانت له فى العصور الوسطى . وكان يعلم أن منافسه الذى كان يضمر له الكراهة والبغضاء — وهو الشاه إسماعيل الصفوى —

قد عين أحد الخصيان أميرا على بغداد بعد استيلائه عليها سنة ١٥٠٨ م ، وأسند إليه منصب الخلافة ولقبه « خليفة الخلفاء » .

٦ – أن السلطان سليم وأسلافه كانوا يتمتعون منذ زمن طويل بمثل ما كان للخلفاء من نفوذ وسلطان ، فرأى فى أخذه التنازل من الخليفة المتوكل العباسى أمراً لامعنى له ، حتى لايكون عالة على شخص ليس له نفوذ كالخليفة العباسى فى القاهرة ، الذى فقدت الخلافة القديمة مع أسرته كل ما كان لها من هيبة ونفوذ ، وذلك على أثر ما أصاب الخلافة من الانحطاط فى غضون قرنين ونصف قرن من الزمن ، خضعوا فيها لأهواء المماليك وتقلباتهم .

وقد حذا متأخرو السلاطين العثمانيين حذو من سبقهم من السلاطين ، فلم يحفلوا بألقاب « الخليفة » و « الإمام » و « أمير المؤمنين » ، حتى أننا لانرى ذكراً لها فى المكاتبات الرسمية ولم نلاحظ أن سلاطين العثمانيين تلقبوا بلقب الخلفاء ، إلا فى القرن الثامن عشر الميلادى ، إذ أصبحوا يستعملون لقب الخلافة بشكل جديد فى معاملاتهم الدولية مع المسيحيين . وكان ذلك لأغراض سياسية ، غايتها أن يكون لهم شىء من النفوذ الدينى على العالم الإسلامى ، الذى كان كثير منه تحت سلطان الدول المسيحية . ففى معاهدة « كجوك كينارجى » ، التى أبرمت بين السلطان عبد الحميد الأول وكترين الثانية قيصرة روسيا سنة ١٧٧٤م ، اقترن اسم عبد الحميد بلقب إمام وخليفة .

فهرست الموضوعات

الموضوع	الصحيفة

الموضوع	الصحيفة

الموضوع	الصحيفة